مؤنس الرزاز

جمعة القفاري

يوميات نكرة



رواية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مؤنس الرزّاز

جمعة القفاري

يوميّات نكرة

رواية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

جمعة القفاري

يوميات نكرة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية
برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع : عمان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى
١٩٩٠

مقدمــة

مشاهد من حياة شاهد

نعم . أنا جمعة القفاري (ما غيره) الذي عاش طوال حياته في عمـان الغربية . لم يغادرها إلا في سفرات سياحية الى اوروبا ، أو للعلاج في أمريكا . نعم ، أنا نكرة . نعم . أكاد أسمع أبـا حيان التـوحيدي يقـول : « ما أقـل حيـاءك ، وما أصلب وجهـك ، وما اوقـح حدقتـك ! » لماذا ؟ لأنني صـريح وأعترف . نعم ، بوسع الانسان في الاردن أن يولد في عمـان الغربيـة ويموت فيها ، دون ان يكتشف مجاهل « جبل النظيف » الذي تحتاج شوارعه الى حملة تنظيف . ولا « جبل النزهة » الذي لا يصلح للنزهة . بوسعك ان تعيش من المهد الى اللحد في عمـان الغربيـة ، دون ان تضطر الى زيـارة الشوبـك ، أو معرفة المفرق ، أو المرور بالطفيلة . (أحياناً أذهب الى فندق العقبة بـالطائـرة وأقضي في الفندق وعلى رمال الشاطىء وفي البحر أيامـاً ، دون ان أخرج الى الشارع . فأنا أعرف فنادق العقبة . . لا العقبة نفسها .

نعم أنا جمعة القفاري ، أسند خدي بباطن كفي وأفكر في كتابـة رواية بعنوان : « مغامرات النعمان في عمان » . ولكن أي مغامرات يمكن ان تجترح في عمان المحافِظة العصريّة في آن معاً ؟

وأنا جمعة القفاري الذي أحبَّ المغـامرات ولم يخـض في لجتهـا . جمعة الذي أحب عشرات النساء . من « آنا كارنينا » التي اخترعها تولستوي الى نادية لطفي التي اجترحتهـا السينما المصـرية . لا . . لم أحب امـرأة واحدة من لحم ودم . مثل هذا الحب يفسد الحلم . يفسد الغموض الذي يضفي على الحياة

مغزى مبهماً يثير الفضول . ومن هذا المنطلق ، رفضت التعرف الى بطل أحلامي أديب الدسوقي ، خصوصاً بعد ان هزمه . فهد الطنبور[1] في المدرج الروماني . يا الهي كم أبغض الهزائم . بكيت مثل طفل صغير حين فقد أديب الدسوقي لقبه . ولهذا السبب بالتحديد أرفض لعب ورق الشدة ، أو البلياردو ، أو التنس . لأنني أخشى الهزيمة . وأديب الدسوقي أقام حوله هالة اسطورية صغيرة . قال انه تحدى كاسيوس كلاي قبل أن يشهر اسلامه . وتغلب على بطل الامبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس . ونسجنا نحن حول هالته الاسطورية الصغيرة هالة اسطورية ملحمية . فقلنا أنه هزم أبطال الاستعمار . حتى أنه ضرب بطل أمريكا الشمالية والجنوبية (لم نكن نعرف أن امريكا الجنوبية معثرة مثلنا) ضربة بقبضته العربية الحديدية ، فإذا بأمعاء الملاكم الاستعماري ، تندلق من بطنه . لكن أديب الدسوقي ، الفارس العربي النبيل ، الذي يتمتع بأخلاق الابطال الجبابرة ، ما كان منه إلا أن أعاد أمعاء الملاكم الاستعماري الى بطنه . . . وكأن شيئاً لم يكن . وتركه للاطباء . . فلم يجهز عليه . أما لماذا لا يركز الاعلام الغربي على بطل الاردن الاسطورة ، فلأنه اعلام يسيطر عليه الصهاينة . هكذا كانت أيام أحمد سعيد وصوت العرب وتمساح النيل أبو هيف وأبطال الزمالك . نعم . أبطال نادي الزمالك المصري كانوا أبطالنا . أبطال العرب . كم أحببت « الكابتن » صالح سليم في فيلم الشموع السوداء . ثم اتى فهد الطنبور وانهال على أحلامنا بقبضته التي تشبه « المهدة » فانهار الدسوقي ، وانهارت احلامنا . وقال الدسوقي ان جهة ما دست مادة مخدرة في الكازوزة التي احتساها قبل المباراة . غير أننا لم نتوقف عن النحيب . فالوجوه مخموشة بالاظافر ، والعيون غرقى بالدموع ، والقلوب متلظية .

نعم . أنا جمعة القفاري الذي لا يعرف سعر علبة السمنة أو كيلو اللحم . ولا يتقن اصلاح ما ينكسر بدءاً من ساق طاولة ، انتهاء بقلب حبيب . والذنب ليس ذنبي بشهادة ابن عمي وصديقي اللدود فاضل القفاري

---

(١) الدسوقي والطنبور ملاكمان أردنيان ذاع صيتهما في الخمسينات والستينات .

المعروف بـ « كثير الغلبة » . انه ذنب أمي رحمها الله ثم اختي عائشة . فهما اللتان تتسوقان . . أما أنا فلم ألمّ ببقالة في حياتي إلا لشراء علبة سجائر .

نعم . أنا جمعة القفاري ، دون كيشوط هذا العصر ، كما تقول اختي عائشة التي لا أعرفها . كيف لا أعرفها ؟ سؤال وجيه يليق بكثير الغلبة . لا أعرفها لأنها باطنية . تبدي ما لا تخفي ، وتخفي ما لا تبدي !

نعم . أنا جمعة القفاري ، النكرة في عصر لم يعد فيه عمالقة . مَنْ كان آخرهم ؟ ديغول ؟ ماوتسي تونغ ؟ طارق مصاروة كتب في احدى الصحف المحلية عن نهاية عصر العمالقة . المهم انني عاجز عن التكيف والتأقلم لأسباب عصية على الفهم . انني لا أنسجم مع ذاتي ، فكيف انسجم مع المحيط ؟

نعم . أنا جمعة الذي ورث عن أبيه عشرة دونمات من الارض . كانت تساوي في الخمسينات مائة دينار . في السبعينات ، أيام الطفرة باتت تساوي مليون دينار . وها هي اليوم لا تكاد تساوي مائة الف دينار . الخطير في الأمر انني بعت نصفها قبل الطفرة . والنصف الثاني بعد الطفرة ، وأنفقت نقودي على الزواج والمستشفيات وفي أمور سخيفة لكنها نبيلة . كنت مليونيراً ذات يومْ . مع انني عاطل عن العمل !

نعم . أنا جمعة القفاري الذي يحن الى صدر أمه رحمها الله . كانت تتنهد حسرة وتقول :

- هل تذكر عمان حين كانت مدينة صغيرة ؟ أهلها كأنهم عائلة واحدة ؟ هل تذكر جبل اللويبدة حين كان من أرقى جبال عمان ؟

كانت امي تسأل أصدقائي ونحن نلعب في حديقة الدار :

- ما اسمك يا شاطر ؟

وتمسد شعره بيدها . فما ان يذكر لها اسمه حتى تسأله :

- هل أنت ابن فلان ؟

فإذا هز رأسه بالايجاب ، ارسلت ضحكة فيها رائحة انتصار وقالت :

- طبعاً طبعاً . وجدك اسمه فلان . وأمك اسمها فلانة . وجدتك اسمها علانة . هل تعرف كيف تزوج أبوك من أمك ؟ أنا أعرف .

البلد صغير . وجبل اللويبدة وجبل عمان وجبل الحسين أرقى الجبال . ثم انبثقت عبدون والصويفية وقبلهما الشميساني بغتة . . فانتقل الجيل الجديد ابن طفرة السبعينات الى هذه المناطق الباذخة . وظل الشيوخ والعجائز يلازمون بيوتهم القديمة في اللويبدة وجبل عمان القديم وجبل الحسين . . . وبقيت أنا معهم .

ما سبب إحساسي المحض بالغربة والاغتراب والاستلاب ؟ (يسأل كثير الغلبة . طبعاً ، مَنْ غيره يستخدم مفردات عجيبة مثل هذه ؟) سؤال لا أكاد أتبين له جواباً .

ولكن مالي ولجمعة القفاري ، لماذا لا اسند خدي بباطن كفي ، وأتخيل مغامرات نعمان ، المعروف بالنعمان ، في عمان وغيرها من البلدان !؟

* * *

ملاحظة : الجزء الأول من رواية مغامرات النعمان في شوارع عمان سوف يحمل العنوان التالي : نعمان العموني : الغراميات .

أما الجزء الثاني فـ : نعمان العموني : المغامرات والاستكشافات . وهكذا دواليك !!!

جمعة يعترف :
أنا نكرة
جمعة يتحدث الى القراء !

نعم ، أنا ، مجرد نكـرة : وما العيب في ذلـك ؟ هل تستـطيع أنت ان تتمتع بهذه النعمة ؟ هل سمعت بالمرحوم ميشيل النمري ؟ ميشيل النمـري لم يكن نكرة ، فانظر الى أي مصير انتهى . إنها الأضواء يا عزيزي ! كـان هذا الشاب الجريء يرغب في تغيير العالم . خاض غمار السياسة ثم الصحافـة . أنبأني « كثير الغلبة » ان المرحوم ميشيل كان تحت الأضواء ، وانه ذو طموح ، ولهذا قتلوه . من قتله لست أدري ، صديقي اللدود « كثير الغلبة » يـدري . ولكنه جرني من ذراعي ، فرحنا ومشينا في جنازة ميشيل في « المفرق » .

كان المرحوم في عزّ شبابه ولم يكن نكرة مثلي . ولأنه لم يتمتع بامتيازات النكرة . . . قتل . اسمه بدأ يلمع ، واللمعان يجذب الانتباه . والانتباه يدفع الناس الى مراقبة مصدر البريق . ومن راقبه الناس مات قتـلاً . هكذا يقـول « كثير الغلبة » الذي أحسده . لمـاذا أحسده ؟ أراك تسـأل . أنت ! نعم أنت أنت أيها القارىء الأصلع الذي لا ينحي الغليون عن فمه . لا أقصدك أنت أنت أصلع بلا غليون . أقصد ذاك القارىء الأصلع الـذي لا ينحي الغليون عن فمه . أحسده ، يا سيدي العزيز لأن حياته حـافلة . فقد مضى الى دولـة نفطية في الوقت المناسب ، وعاد بثروة بدد نصفها على المغامرات . أما أنا فقد بددت كل ثروتي على « فستق فاضي » .

إذن ، اتفقنا ، أن للنكرة امتيازات لا يتمتع بها أصحاب الاسماء اللامعة الـذين تتسلط عليهم الاضواء . لمـاذا تضحك ؟ لا .. أقصـد ذاك القـارىء

الأصلع الذي أقلع عن التدخين . انه يضحك لأنني أكلم نفسي . الأحمق . كلنا نكلم أنفسنا . أراهنك أنه يكلم نفسه في الحمام . لا بل ويغني أغاني أسمهان التي قتلتها الاضواء كذلك . أنت لا تصدقني . حسن ، انظر الى مصير تيسير سبول المفجع . ألم يكن كاتباً لامعاً ذا مستقبل براق ؟ ما الذي جناه من هذا اللمعان . . هيه ؟ لقد صوب مسدساً الى رأسه وانتحر هنا ! أنت يا أصلع يا أبا غليون لا تستحي . يا اخي ما الذي يضحكك ؟ أنا لا أتفكه . . انني أتحدث بكل جدية . آه . . لا . لا أقصد انه انتحر هنا حيث أجلس الآن . أقصد « هنا » في عمان . ثم انظر ما الذي جناه أديب عباسي من وراء صيته الذائع . ألم يصرح أكثر من مرة ان الدوائر الاستعمارية تستهدفه ؟ فما اضطره الى أن يلوذ ببلدته الصغيرة . . « الحصن » ، ويعتزل العالم والناس . تصوروا . . مرة بلغ جنوني ووحشتي أشدهما . فكدت ان أرتكب جريمة بحق نفسي . ذهبت الى احدى الصحف . وقابلت محرراً مسؤولاً . قلت انني أحمل له سبقاً صحفياً . قال انه مشغول . ثم حدد لي موعداً لمقابلته في بيته . وفي الموعد المحدد قرعت بابه . فتح الباب ، فدلف البرد القارص ، ثم تبعته قطة حولاء ، ثم قفوت أنا أثرهما . فطرد الصحافي القطة وتركنا أنا والبرد ندخل بأمان .

لا . أنا لا أرغب في كوب من الشاي ، قلت له . أرغب في نشر قصة حياتي . إنها قصة حياة نكرة . لماذا تكركر ضاحكاً يا أستاذ ؟ هذا عيب . أن تضحك وتسخر من حياة برمتها . ماذا ؟ من يرغب في قراءة حكايات رجل يقول عن نفسه : نكرة ؟ سؤال وجيه . أنا أقول لك . المشاهير والوجهاء والاقطاب . . وما أكثرهم . ثم هل تحسب ان قصة حياة هذه الممثلة زوجة المشير عامر ، ما اسمها ؟ آه . . برلنتي عبد الحميد ، يسلم فمك ، مثيرة اكثر من قصة حياتي ؟ على الأقل حكايات حياتي أنا حقيقية . وسألني ان كانت حياتي حافلة . فقلت له لا . ولكن حياة صديقي كثير الغلبة حافلة . وهذا بالتحديد ما يميز حياتي . انها ليست حافلة .

لكن الصحافي الأحمق قام وأشعل التدفئة المركزية . فطرد البرد ، ولما

ألمحت والحفت طردني ، فهرولت على درج بيته وراء البـرد . والقطة الحـولاء تحدق الينا بشماتة . حـين بت في الطريق آمنـاً صرخت في وجهـه : « حافلة تدوسك تحت عجلاتها ان شاء الله » .

وعلى الرغم من ذلك لم استسلم . انني رجل متفائل . لكن ما حيلتي إذا كانت الحياة تعاندني ؟ أمازحها فتأبى إلا الجد ، أقبل عليها راغباً في مصالحتها فتشيح معرضة . ثم تنقلب فتغازلني ولكنها لاتمكنني . لا أكاد أدنو منها حتى تنأى عني ، ولا أكاد أبلغها حتى تفوتني . لماذا أرغب في أن أصالحها ؟

سؤال سخيف . حتى الصحافي الذي يعيش في بيت ذي سقف واطىء لم يسألني هذا السؤال المحرج . ولماذا لا أتصالح معها ؟

حـين غادرت المستشفى عملت بنصيحـة الدكتـور جوزيف ذي كلوب (وهو من أصل عـربي ، واسمه الأصـلي يوسف النـادي) الذي قـال لي وهو يربت على كتفي : تصالح مع نفسك يا جمعة ، وتصالح مع الحياة . . . وإلا أصبت بانهيار عصبي أو جلطة مبكرة .

سـأحكي لك حكـايتي مـع المستشفى في وقت لاحق . مـاذا ؟ أنتَ لا تصدق أن الحياة تعاندني عن سابق تصور وتصميم على الرغم من كل محاولاتي لابرام صلح مع نفسي ومعها ؟ إذن اسمع هذه الحكاية التي لا يمكن أن تقع إلا لأمثالي .

* * *

جمعة يشم الهواء !

ملاحظة : « اسمي جمعة القفاري . ومع ان اسمي الأول يوحي بزمان ، واسم عائلتي يوحي بمكان إلا ان هذه الحوارات التي سجلتها في مذكراتي تحمل دلالات اكثر اهمية من الدلالات التي يحملها اسمي». كنت اجلس على مقعد خشبي طويل في حديقة صغيرة مستديرة ، حين أقبل رجل لم تقع عيني عليه من قبل .

وقف أمامي مباشرة . سيجارة في فمه ، يداه في جيبيه. رفعت عيني دون رأسي . رمقته بنظرة خاطفة ثم اشحت . دار دورتين حول نفسه ، ثم اتخذ مجلسه الى جانبي دون ان يستأذن او يلقي تحية . لم أكن أرى اشجار الحديقة . كنت أفكر ببطل روايتي حين تكلم الرجل .

الرجل (دون ان يلتفت نحوي) :

- يبدو انك مقطوع من شجرة .

- . . .

الرجل (يلتفت نحوي) :

- أقول يبدو انك مقطوع من شجرة .

انا (دون ان التفت نحوه) :

- عفواً . . كنت احسب انك تخاطب غصن الشجرة .

الرجل (بدهشة) :

ـ غصن الشجرة !

أنا :

ـ ذاك . . الساقط هناك . لعل الشجرة خلعته كما تخلع القبيلة صعاليكها .

الرجل :

ـ ولعل البستاني خلعه . أو طفل شقي . . أو . .

أنا :

ـ الرماد

الرجل (بدهشة) :

ـ الرماد ؟

انا :

ـ رماد سيجارتك يكاد يسقط على قميصك .

الرجل :

ـ آه . . ولكني أشعر بالبرد . . ولا ارغب في اخراج يدي من جيبي . سيسقط تلقائياً .

أنا :

ـ غصن الشجرة ؟

الرجل :

ـ لا . رماد السيجارة . كنت أقول انك تبدو مقطوعاً من شجرة .

انا :

ـ لماذا ؟

الرجل :

ـ لأن اليوم يوم جمعة .

انا (بدهشة) :

ـ وما علاقة يوم الجمعة بالغصن المقطوع من الشجرة ؟

الرجل (يحدق الى البعيد) :

ـ يوم الجمعة يوم عطلة .

انا (متهكماً) :

ـ وهل تتساقط الأغصان يوم الجمعة بالتحديد ؟

الرجل (دون ان يلتفت) :

ـ غير المقطوعين من شجرة يقضون ايام الجمعة مع عائلاتهم .

انا :

ـ الزهرة ستسقط .

الرجل :

ـ زهرة شجرة اللوز هذه ؟

أنا :

ـ زهرة السيجارة . .

الرجل :

ـ لا احب ان اطفىء زهرة السيجارة المتوهجة . ستخبو وحدها . هل انت سادي ؟

انا :

ـ سادي ؟

الرجل :

ـ مغرم بسحق الازهار !

أنا (مستنكراً) :

ـ ومن قال لك ذلك ؟

الرجل :

ـ أنت ، ألم تنصحني بسحق زهرة سيجارتي ؟

أنا :

ـ كي لا تسقط على قميصك .

الرجل :

ـ ما اجمل ان تتفتح زهرة في قميص . هل يزعجك تفتح الأزهار في القمصان ؟

انا :

ـ اسأت فهمي انني اقصد . .

(وقف الرجل بغتة) قال :

ـ انا مشغول .

أنا :

ـ اليوم عطلة .

الرجل :

ـ هل تستمتع بعطلتك ؟

أنا :

ـ أنا عاطل عن العمل .

الرجل :

ـ اذن . . فأنت تأتي كل يوم الى هذا المتنزه .

أنا :

ـ لا . . كيف استنتجت ذلك ؟

الرجل :

ـ انت قلت ان كل يوم من ايام الاسبوع . . يوم عطلة .

انا :

ـ لم اقل هذا

الرجل (بعناد والحاح) :

ـ بل قلت . قلت انك عاطل عن العمل .

انا :

ـ صحيح . ولكن هذا لا يعني انني الم بالمتنزه كل يوم .

الرجل :

ـ لماذا ؟

أنا :

ـ يوم العطلة هو يوم الجمعة فقط .

الرجل :

ـ ولكنك عاطل عن العمل .

أنا :

ـ نعم . ولكني اقضي يوم السبت في المقهى . و« مقهاي » يوصد ابوابه يوم الجمعة .

الرجل :

ـ والأحد ؟

انا :

ـ اقضيه في مكتب . . شركة . . يملكها صديق . نجلس نثرثر طوال النهار . نطق حنك . نكش الذباب . نستغيب الناس . نحتسي القهوة . الشركة مفلسة ، والكساد نظفها من الزبائن .

الرجل :

ـ والاثنين ؟

أنا :

ـ اقضي جل نهاري في عيادة . الطبيب ، صديقي . الزبائن اقل من القليل . حين يأتي زبون ، اخرج من غرفة الطبيب الى غرفة الانتظار . اتصفح المجلات المتناثرة على الطاولة . صحيح انها مجلات خفيفة مسلية . . ولكنها . . .

الرجل (يقاطعني بعصبية) :

ـ والثلاثاء ؟

ـ أقضيه بحثاً عن عمل . عمل يليق بي .

الرجل (بلهجة تنم عن نفاد صبر) :

ـ وما العمل الذي يليق بك ؟

أنا ·

ـ انني منتج كلمات

الرجل (بدهشة) :

ـ منتج كلمات ؟

أنا (باعتداد) :

ـ نعم . امارس شيئاً من النقد والشعر و . .

الرجل :

ـ يقال ان الناقد مبدع فاشل . حاول الشعر او . .

أنا :

ـ هذا افتراء . خطأ شائع .

الرجل (يتفحص المتنزه بعيني من يبحث عن شيء مفقود) :

ـ حسن . . حسن . . والاربعاء ؟

أنا :

ـ اقف منذ الصباح تحت مظلة باص .

الرجل :

ـ تفعل ماذا ؟

أنا :

ـ اقتل الوقت . . اراقب المارة .

الرجل :

ـ والباص ؟

أنا :

ـ الباص ما عاد يمر من ذلك الشارع منذ اعوام نائية . . ولكن من يعلم . قد يمر في يوم ما .

الرجل (يتفحص بعينيه المتنزه المستدير بنظرات قلقة) :

ـ والخميس ؟

أنا :

ـ الخميس . . اقضيه في حالة بهجة وتوقع ولهفة ونشوة .

الرجل (بدهشة) :

ـ أف . . أف . . لماذا ؟

أنا :

كيف لماذا ؟ لأنني اتهيأ لاستقبال يوم الجمعة طبعاً . يوم العطلة . اليوم المنشود . حيث توصد ابواب شركة صاحبي المفلسة . ولا يمر احد بمظلة الباص . وحيث يقفل الطبيب عيادته ويمضي مع اسرته في مشوار الى متنزه كبير خارج المدينة . . ويعرض عني . باختصار يوم الجمعة ينبذني الجميع . المحال والشوارع والناس . تنساني المدينة . انه يوم عطلة . فتستقبلني هذه الجزيرة الصغيرة . تؤنس اشجارها وحشتي ، ويدور حوار ممتع بيني وبين العناصر ، بيني وبيني . . انا ايضاً ارتاح من رواد المقهى وثرثراتهم المعهودة . واتخلص من مدير الشركة المفلسة وحكاياته التي حفظتها عن ظهر قلب. هنا . . في هذه الجزيرة الخضراء الصغيرة اعيد شحن بطارية طاقتي . اجلس مع نفسي دون ان اكش الذباب . ودون امل بانتظار باص لا يمر . الأمل يبث القلق في النفس .

يوم الجمعة يوم عطلة . اشلح فيه القلق . أيأس من مرور الباص . وفي اليأس راحة احياناً . لكنني متفائل ما دامت هذه الجزيرة تؤمن لي ملاذاً يوم الجمعة

الرجل (بلهجة تنم عن ارتباك) :

- اعذرني . . فأنا مشغول اليوم .

انا (بدهشة) :

- مشغول ؟ ولكن اليوم جمعة . . عطلة . .

الرجل (يمد يده مصافحاً ومعرفاً بنفسه) :

- نحن نعمل في الأشغال العامة . . ولمصلحة المجتمع . . لا نعرف ايام عطل .

بعد قليل سوف يأتي العمال والجرافات . أنا مهندس . هذه الحديقة تعيق السير . قررنا اقتلاعها . ان هذه الجزر تنتمي الى الماضي في علم تخطيط المدن . . . اعني ان الاشارات الضوئية تنتمي الى العصر الحديث وهي بديل . . او بالأحرى . .

انا : (اقاطعه متوسلاً) :

ـ ولكن لا ازدحام ولا مشاكل سير في يوم الجمعة اتركوها لي . . يوماً واحداً في اسبوع . يوم الجمعة .

(الـرجل يـطرق ، ثم يستل يـديـه من جيبيـه . يشعـل ، سيجـارة . ويلتفت نحو قافلة من الجرافات والشاحنات التي تحمل عمالاً يرفعون الفؤوس كالرايات) .

جمعة يكشف سراً من أسراره !

ثمة ما لا تعرفون عن جمعة ، لقد كان مزدحماً بالمعضلات مثلما تزدحم شوارع وسط البلد ايام الخميس بالمارة والسيارات ، ومقفراً من الصداقات مثل شوارع الاحياء الراقية ايام الجمعة . حتى انه قال مرة عن ماضيه :

- كنت مثل « بائع خضرة » في سوق الخضار : عندي اكتئاب وادمان وارق ونقص مروع في القدرة على التأقلم والتكيف وصعوبة في « انتاج » الاصدقاء ، وعسر في التعبير عن الذات ، وزكام متصل ، وشعور غامض بالخطر ، واحساس بأن شبح الموت يحوم حولي . . . والقائمة طويلة مثل « ورق التواليت » عدم المؤاخذة .

ثم ادخل جمعة الى مصح للامراض النفسية والعصبية ، في بلاد بعيدة طبعاً ، فهو ابن اسرة محافظة لا ترغب في الفضائح ، ولا تعتبر نشر غسيلها الداخلي من هواياتها المفضلة !

في المصح بدأ الدكتور الأجنبي يبحث بكثير من الفضول العلمي عن العلة والمعلول . كان يتساءل وهو يذرع غرفة جمعة ويدخن غليونه ويعبث بعثنونه :

- هل يرجع سبب الاكتئاب الحاد المتصل الى عدم التأقلم ؟ أم ان عدم القدرة على التأقلم يعود اصلاً الى الاكتئاب ؟ وهل يكمن سبب ادمانه في حساسيته المفرطة ؟ أم ان حساسيته المفرطة ما هي سوى نتيجة للادمان ؟ وهل

الادمـان هو الـذي قاده الى الاكتئـاب ام ان الاكتئاب هـو الذي جـره الى الادمـان ؟ وكان الـدكتور يكف فجـأة عن الدوران في الغـرفة ، ثم يـرفع رأسه ، ويمرر اصابعه في شعـر رأسه ، ويـردد كالحـالم « الأزمة تعيـد انتاج نفسها » . حاصله ، شفي تماماً . وقيل : انها معجزة العلم . وعـاد جمعة الى البلد .

كان يسميها عمّان : « الرحم والملاذ » وبدأ يكتب اوراقه ويتهيأ لمرحلة التأقلم والانسجام والتعـامل مـع الحياة بـواقعية العلماء البـاردة ، وموضـوعية الحكماء المحايدة !

وفي عمان بدأ جمعة القفاري يفكر بدفـع أحد الكتّـاب الى كتابـة قصة حياته . ولما أخفق في مسعاه هذا . سيطر عليه هاجس كتـابة روايـة عن بطل يتمنى ان يكونه . بطل خاض المعـارك ، وضرب في ارجـاء الارض ، وعرف ملمس نساء الموانىء الشقر والزنجيات والخلاسيـات . نعم . وسيسميه عـون كيشوط ، أو عون الكياشطة ، نسبة الى دون كيشوت الاندلسي ! نعم ، بطل ذو حياة تزدحم بالمغامرات . بطل يقدم نظريـة فلسفية جـديدة فيهـا خلاص للبشـرية من عـذاباتها . ثم استقر رأيـه المتقلب على أن يسمي بـطله نعمان العموني ، وروايته : « مغامرات النعمان في شوارع عمان » !

* * *

جمعة يعثر على عمل بعد شهور من البطالة

باشر جمعة القفاري عمله في المجلة المحلية ، وكـان يقوم بعـدة وظائف دفعة واحدة . ومن بين هذه « الوظائف » عمله مندوباً في قسم التحقيقات . علماً بأنه المحرر الوحيد في هذا القسم !

ذات مساء انتفض الهاتف على طاولته واطلق رنيناً مبـاغتاً . رفـع جمعة سماعة الهاتف وقال : هالو . فجاءه من الطرف الآخر صوت انثوي مخملي :

- هالو . . الاستاذ جمعة القفاري ؟

- نعم .

- انا معجبة جداً بالتحقيق الذي اجريته حول اوقات فراغ طـلاب وطالبـات الجامعة . ومعجبة جداً بمقالك الذي كتبته عن السندباد . .

قال جمعة بلهجة لا تخلو من الاعتداد والصراحة :

- الحقيقة اني ترجمت هذا المقال ترجمة . . ولكنني . .

قاطعه الصوت المخملي قائلاً :

- حاصلة . . كل ما تكتبه يثـير فضولي . وأنـا ارغب في ان التقيك واتعـرف اليك .

باغتتني رغبتها هذه (كتب جمعة في اوراقه) ولعب الفأر في عبي . وثار احساسي الأمني وغريزة الخطر البدائية التي طورتها ايام زمان . تساءلت : لماذا

تريد فتاة غامضة ان تلتقي نكرة مثلي ؟

ارتبكت ، وبدأت الوساوس التي تنتمي الى الماضي تراودني ، وتثير ريبتي . جمعت امري وحزمته . . فتنحنحت وسألتها :

ـ ما اسمك ؟

قالت :

ـ فاتنة !

قلت وقد بدأ شيطان الشك المزمن يتلعب بأعصابي :

ـ فاتنة ماذا ؟

قالت ان اسمها فاتنة « حاف » حتى الآن . وحين تقابلني سوف تطلعني على اسمها الكامل . ارتعشت سماعة الهاتف في يدي ، وثار في أعماقي فضول حب المغامرة والاكتشاف ، وقلت في نفسي : لعل الحياة ستيسر لي مسألة تكيفي مع نفسي ، وتأقلمي مع المجتمع . لكن احساسي المزمن الغامض الخفي بالخطر ثار مرة اخرى .

قلت متردداً :

ـ لا اقابل من لا اعرف اسماءهم كاملة .

قالت بعد ان ارسلت زفرة استنكار :

ـ فاتنة عبد الكريم . .

سبق لساني غريزتي وعقلي فقلت بلهفة من يتطلع الى التكيف :

ـ موافق .

حددت موعد اللقاء وزمانه (احد مقاهي الشميساني) فوافقت . وما ان اعدت سماعة الهاتف الى مكانها حتى عاد الاحساسان المتضاربان المتنافران يشتجران في نفسي . ساورني احساس شك مظلم ، وفزع طارىء . وثار حسي الأمني واستنفر اجهزة الانذار الصدئة في اعماقي . من جهة اخرى كان نداء الحياة الجديدة المستقرة يناديني ، فأستجيب متردداً . يهتف بي ان انس الماضي بكل مخلفاته من حذر وشك وحيطة وحاسة الخطر السادسة . ها قد وجدت

عملاً . . هذي هي الخطوة الأولى في طريق الاستقرار . وها انت على وشك ان « تكسب » صديقة بل ومعجبة . وما يدريك ؟ قد تفتتن بها وتفتتن بك .

لم يطرق النوم عيني تلك الليلة . لم تنطل علي حكاية الاعجاب بما كتبت . حدثتني نفسي انها قد تكون فتاة من وكالة المخابرات المركزية الامريكية . ثم شطبت هذا الاحتمال . لماذا تلتفت « الوكالة » الى نكرة مثلي ؟ لعلها تنتمي الى « الموساد » . . ألست صديق « احمد ابوسيف » ؟ ألم يكن « لأحمد ابو سيف » نشاط سري ايام بيروت ؟ لكن احمد ابو سيف نفسه في البلد الآن . فلماذا لا تحاول ايقاعه شخصياً اذا كانت من الموساد ؟ استبعدت هذا الاحتمال . لكن بذرة « الحس الأمني » التي زرعها « احمد ابو سيف » في اعماقي لا تزال تتضخم .

واتصلت هواجسي فلم يغمض لي جفن وقضيت ليلي مؤرقاً مسهداً . خطر لي خاطر مظلم : ماذا لو كانت ثمة جهة ترغب في الاساءة الى سمعتي ؟ . . سمعتي ! أي هراء . لم يسمع بي احد كي يرغب في الاساءة لسمعتي . آه . . لعلها صديقة لعفاف . عفاف زوجتي التي انفصلت عنها بعد ان اختلينا في « غرفة العرسان » في الفندق . عفاف التي اتفقت معها حول الموقف من القضايا الجوهرية ، ثم انفصلنا بسبب من اختلافنا حول قضية التدخين في غرفة النوم . ومسألة النوم على الطرف الأيسر من السرير ام الطرف الأيمن . وهذه مسائل جوهرية اهم من المسائل الميتافيزيقية . اذ لا يمكنك العيش مع زوجة لا تطيق عاداتك الصغيرة . وحياة الانسان ليست سوى مجموعة من العادات الصغيرة .

غير اني سرعان ما طردت هذه الهواجس السوداء ، ورحت افكر في الجوانب الايجابية والمشرقة للقضية . لا يمكن ان تكون مكيدة . الحياة لا يمكن ان توصد ابوابها في وجهي طوال الوقت . لا بد ان القدر قد تدخل ، وعزم على ان يفتح لي باباً ثانياً بعد ان فتح لي باب العمل والرزق . وغمضت وانا اجلل وجهي بغطاء السرير وارسم ابتسامة فهلوية تنم عن فطنة .

الخميس :

الساعة الخامسة موعد اللقاء جئت قبل الموعد بربع ساعة . ودفعني احساسي الأمني الاستثنائي الذي اكتسبته في بيروت الى مراقبة مدخل المقهى من بعيد . لقد قالت انها سترتدي قميصاً احمر فوقه سترة رمادية .

الساعة الخامسة وعشر دقائق : لم تأت بعد . ماذا لو أتت قبل الموعد بنصف ساعة . ستكون بانتظاري في الداخل ! ماذا لو دخلت امام عيني ولم انتبه . المرء يسرح احياناً . لعلها لن تأتي ابداً . . هذا وارد .

الساعة الخامسة والربع : قر قراري على دخول المقهى . اجتزت الشارع ودلفت الى المقهى . اتخذت مجلسي الى طاولة اخترتها اختياراً . بحيث يمكنني موقعي من مراقبة الباب وكل من يجتازه ، ويكون الجدار ورائي مباشرة ، كي لا يتمكن احد من مفاجأتي من الخلف .

دارت عيناي في المكان . ثمة شاب نحيل الظل معروق العظام يجلس الى جانب فتاة اشبه ما تكون بعروس مجلوة . إنه لا يستحقها . انهما لا يتبادلان الحديث . هي تحتسي الشاي بأناقة ، وهو يدخن بعصبية وشراهة . لقد قالا كل ما يمكن ان يقال في الشهر الأول من حبهما . . ثم استسلما للصمت . اعتقد جازماً انك لست بحاجة الى ان تكون وحدك حتى تشعر بالوحشة .

على طاولة اخرى تجلس مجموعة من الفتيات . انهن يوحين الى الناظر انهن فتيات مشاغبات مشاكسات . انهن لا يستطعن ان يتوقفن عن الضحك ، وكأن الحياة نكتة لا نهاية لها . يتضاحكن ، ويتلفتن . . اختلس اليهن النظر . اقبل نادل انيق فطلبت منه كوبا من الشاي وقطعة من الحلوى . فسألني بتهذيب مربك عن نوع الحلوى الذي أفضل . قلت والقلق يركل قلبي بحافره من الداخل :

- أي نوع . أي كلام .

الفتيات يغطين وجوههن كي تخفي كل واحدة قهقهتها . اختفت

الابتسامات وراء الأيـدي ، لكن الضحك جلجـل جلجلة مكتومـة في فضاء المقهى ، وتدحرج نحوي فبلغني منهكاً يكاد يشبه صوت فحيح .

انني انقر الطاولة بأصابعي . اصابعي ترتعش ، وأنا انقر الطاولة بعصبية نقـرات متداركـة متلاحقـة . احدى الفتيـات هبطت تحت الـطاولـة . انثنت بجذعها كله لتواري ضحكها هناك . عيناي على ساعتي . العقربان يلسعـان الخامسة والنصف . بدأت اقضم اظافري بقلق بعد ان اتيت على قطعة الحلوى بسرعة قياسية . بصري يتعلق بالبـاب وسمعي يتعلق بضحكهن . ضحكهن ينقر على طبلة اذني ، فيرتد الصدى صاخباً في وجيب القلب .

عقارب ساعتي تقرص صبري . حانت مني التفاتة نحو الفتيات اللواتي لا يعرفن كيف يقاومن الضحـك . فإذا بـاحداهن ، وكـانت ترتـدي قميصاً احمر . . ولكن بلا سترة رمادية ، تنهض من مكانها ، ثم تستخرج سترة رمادية من حقيبة متوسطة الحجم ، وتعود الى مكانها .

ضـج المقهى بضحكات مجلجلة . تفصـد العرق من جبيني ولم أمسحه بباطن كفي ، اذ كانت ملعقة الشاي ترتعش في يدي ، مثل اوراق الشجر اثناء عاصفة ريح صرصر اطلقتها طبيعة يائسة مغضبة محبطة .

* * *

بعد ان مرت هذه التجربة المرة قال جمعة من غير صوت ، كأنما ليواسي نفسه :

انهن لا ينتمين الى جيل الحجارة .

انهن مجرد فتيات باذخات لا يشعرن بالانتماء الى أي شيء جدي . انهن نكرات . ينبغي ان اضبط نفسي ، على الرغم من المكيدة السخيفة ، وأواصل مسيرة التأقلم .

لغة الواع ـ ويع

صباح الجمعة :

اعرف رجلاً يستيقظ كل صباح على صوت فيروز المخملي وهي تغني : « طلعت يا ما حلا نورها . . . » . إذ انه يمتلك ساعة خاصة يضبطها بطريقة محددة ، فما ان يدوس عقرباها لغم الساعة السابعة صباحاً حتى ينطلق صوت فيروز ليغني « شمس الشموسة » .

صدقوني ان هذا الرجل يستيقظ كل يوم في تمام السابعة بهذه الطريقة الخبيثة . اقول خبيثة لأنها تتضمن تحايلاً على الطقس ، فقد لا تكون الشمس قد طلعت ، اذ قد تكون السماء ملبدة بغيوم كثيفة مثل شعر اختي عائشة وهي تتضمن تحايلاً على الصيف كله ، فالشمس تشرق في وقت مبكر جداً في هذا الفصل الطويل مثل شعر اختي عائشة . ثم ان الرجل يتحايل على نفسه وعلى يومه . فهو يستيقظ رائق المزاج مشرق الوجه حين يستمع الى صوت فيروز ، بدلاً من ان يستيقظ ليستمع الى نشرة اخبار اذاعة الكيان الصهيوني مثلاً . هذه الاذاعة التي تسمم البدن وتقلب المزاج قبل ان يقول المستيقظ يا صباح يا عليم !

واعرف رجلاً يستيقظ على انغام موزارت . ولكن ما لنا ولكل هؤلاء ، فليذهبوا الى الجحيم . المهم انني استيقظ كل فجر على صوت « واع ـ ويع » . و« واع ـ ويع » ليست اغنية لمحمد عدوية ، وانما هي الأصوات الصاخبة التي

يطلقها ابن اختي عائشة الرضيع .

وما ان تنطلق صفارة « واع ـ ويع » ذات النغمة الرفيعة الجارحة ، حتى يتقلب ابن اختي الرابع الذي ينام الى يساري فيركلني بقدمه اليسرى في خاصرتي ، بحسن نية طبعاً ، فإذا يمت نحو الجهة الأخرى لطمتني ابنتها الثالثة على خدي الأيمن .

ولكني لا ادير خدي الأيسر بعد هذه اللطمة العشوائية ، وانما انزلق من السرير انزلاق الملسوع . او الهارب من زلزال .

وعلى ذكر الزلزال ، فقد استيقظت اليوم بعد « الواع ـ ويع » المتصلة المنطلقة من حجرة اختي عائشة ذات الأبناء السبعة ، بعد ان تلقيت الركلة اليومية واللطمة المعتادة ، فإذا بي اشعر بأن البيت القديم يتأرجح ، كأنه رجل كهل رصين فقد توازنه بغتة . وحسبت ان زلزالاً قد اجتاح المدينة خرجت من غرفتي انتفض كالملسوع ، وقد وقف شعر رأسي رعباً . فإذا برجل عملاق يقف هو ايضاً منتصباً انتصاب شعر الرأس . انه رجل مفتول العضلات يسد الممر بمنكبيه العريضين وصدره الممتد في الأفق ـ صح النوم .

قالها بلهجة تنم عن حقد غامض . ولاحظت ان شارب هذا العملاق يذكرني بشارب ما . ولم ادر على وجه الدقة ان كان يذكرني بشارب شارلي شابلن ام هتلر ام شامير .

رمقته بنظرة اختلط فيها الذهول بالفتور . فقال : إنني اصلح انابيب الحمام .

وفهمت انني لن استطيع دخول الحمام . أطللت برأسي المصاب بالدوار اليومي العادي نحو غرفة اختي عائشة . انها ترضع طفلها السابع . فتحت فمي لأقول « صباح الخير » . لكنها قاطعتني قائلة :

ـ احضر « البامبرز » الله يخليك .

مضيت الى المطبخ كالسائر في منامه . حين مررت بالصالة كانت الحرب

قد اندلعت بين بقية اولاد اختي عائشة . وسائد تتطاير في فضاء الصالة ، أحذية تحلق ذات اليمين وذات اليسار .

ارتطمت بحذائين وثلاث وسائد ، غير اني بلغت المطبخ سليماً معافى ، مثل ثور طعن بعدة رماح . . فترنح غير انه لم يتساقط .

الفيت ابنة اختي الكبرى تعد طعام الفطور كالعادة . واهم طقوس اعداد الفتاة للفطور هو طقس الضجة والصخب . تحب وهي تعد الفطور ان تشعر انها تعد امة كاملة للخلاص من عبوديتها ، إنها تعد الفطور وكأنها تعد العدة لحرب حاسمة .

التفتت نحوي بوجهها الذي يتخذ هيئة قائد تاريخي على وشك ان يطلق اشارة الهجوم الحاسم . قلت بصوت واهن :

ـ عائشة تريد « بامبرز » . . اين « البامبرز » ؟

رمقتني ابنة اختي الكبرى بنظرة ثابتة ، لم تكن باردة ولا غاضبة . فقط فاترة . غمغمت وهي تشيح معرضة :

ـ انت كالغريب في هذا البيت . كالضيف . كالشبح . ألا تعرف اين « البامبرز » ؟ نترت رأسي سلباً . قالت وهي تسكب الشاي :

ـ رحم الله جدي . . كان يعرف كل شيء . الجغرافيا . . القانون . . الموسيقى . . وانت لا تعرف اين « البامبرز » !

« ابنة اختي الكبرى هذه تكاد تكون من جيلي » .

دهمتني رغبة ملحة في ان اخلو الى نفسي . . واجهش في البكاء . ولكن صوت عائشة انطلق من حجرتها على صهوة انغام ذلك الرجل الذي يعزف بمفتاحه الانجليزي على انابيب الحمام ، ومر عبر ميدان الصالة المزدحم بالقذائف الخطرة ، ثم انضم الى جوقة المطبخ من قعقعة الشوك والملاعق والصحون الى قرقعة اكواب الشاي . ثم انسكب في اذني كما ينسكب الشاي الحار في كوب :

ـ أين البامبرز ؟ ألم اناشدك احضار بامبرز ؟ ألا تصلح لشيء ؟

وكنت اصلح للخروج من هذا الجحيم . من البيت المزدحم بالجنون والصخب والفوضى . . الى شارع مقفر ، كي التقط انفاسي ، وأقول لنفسي : يا صباح يا عليم . . واقابل تلك المرأة الغامضة ! .

الغلباوي يحكي عن جمعة :
جمعة . . يبحث عن مغامرة

جمعة القفاري شخص يصعب العيش معه . قد ترى في رفقته متعة ، وقد تجد في الجلوس اليه مرة كل اسبوع راحة . . اما ان تعيش معه في نفس البيت ، فإنها الكارثة عينها . ذلك انه غريب الأطوار . تصوروا انه قال لي انه لم يستقل باصاً منذ عشرين سنة وانه قرر ان يفعل ذلك بسبب من الفضول البحث والرغبة في المغامرة (بالمناسبة انه يشكو دائماً من انه انحدر من الشريحة العليا للطبقة البورجوازية الصغيرة الى الشريحة الدنيا من الطبقة ذاتها . . وانا لا افهم !) .

حاصله . . . ركب صاحبنا دماغه . . فركب الباص . كان قد « هبط » الى شارع بسمان ليستقل الباص المتجه الى ضاحية الاسكان او ضاحية الحسين . كان يتلفت بحرج وعصبية وهو يقف في الطابور الطويل . (إنه يخشى ان تقع عينا احد معارفه عليه) . . واخيراً اقبل الباص ، فلم يعد قلبه يخفق بشدة (قلبه يخفق بشدة لأن ركوب الباص مغامرة بالنسبة لصاحبنا !) وتنفس الصعداء حين ارتقى الى الباص . لكنه سرعان ما ارتبك واستعاد رعشة اعصابه واطرافه عندما اكتشف تلك « الالة » الغامضة التي يدس الركاب قروشهم فيها . فقد اعتاد صاحبنا (قبل عشرين سنة) على الباصات التي تستخدم « كمساري » . واعتاد (قبل عشرين سنة) على ان يتخذ مجلسه في الباص ، فيأتي (الكمساري) فيقطع تذكرة ويدفع .

تصبب العرق من جبينه واضطرب . لكن السائق بادر وانقذه من

الـورطة حـين ارشـده الى مـا ينبغي ان يفعله . شعـر صـاحبنـا انـه متخلف تكنولوجياً لكن الطامة الكبرى لم تكمن في هذا الاضطراب الجلل الـذي حل بصاحبنا حين واجه مشكلة طريقة « الدفع » فقد كان الباص مزدحماً مما اضطره الى الوقوف . وبما انه طويل عريض فقد اكتشفه أجير الفران الذي يعمـل في فرن مجاور لبيت صاحبنا . وكان هذا يجلسُ عـلى مقعد . ومن بـاب العلاقـة الطبقية المحترمة بين الاثنين . راح أجير الفران يهتف بصوت مرتفع لفت انتباه جميع الركاب الواقفين والجالسين :

ـ يا استاذ . . تفضل هنا . . تعال . . اجلس مكاني .

اجتاحت جمعة نوبة من الحرج والارتباك ، وتضرجت وجنتاه خجـلاً ، وتمنى لو تنشق « ارض » الباص ويبتلعه الشارع . انثنى صاحبنا واشاح بوجهه متجاهلاً النداء ، متمنياً ان يتحول الى شبح غـير مرئي . قـال احد الـركاب (وجهه يوحي بأنه فضولي رومانسي مصاب بالسل وداء الصعلكة) :

ـ ذلك الشاب يدعوك الى الجلوس على مقعده .

ابتسم جمعة ابتسامة شاحبة محاولاً مداراة اضطرابه وقال بصوت مختنق :

ـ لا . انه لا يقصدني .

لكن اجير الفران اللعين الح الحاحاً دفع جميع الركاب الى التدخل :

ـ تفضل يا استاذ .

ـ الزلمة يتبرع بمقعده لك يا استاذ .

وحين استجمع جمعة كل شجاعته (لم يدر من اين واتته هـذه القوة !) واندفع يشق طريقه بصعوبة نحو المقعد ، وعيون « الجماهير » تنهشه من يمـين ومن شمال ، والمناكب تدفعه الى شمال والى يمين . . قام اجير الفران في وقت غير مناسب ، أي قبل ان يصل صاحبنا الى المقعد . . فإذا برجل هرم يحل محل اجير الفران ويشكره بامتنان على هذه النخوة . .

طبعاً . . أجير الفران لم يسكت عن حيلة العجوز الخبيث ، واقام الدنيا ولم يقعـدها . بينـما جعل جمعـة يوزع ابتسـامـات تنم عن الخجـل والارتبـاك والعصبية ، على الركاب . واتخذ وجهه هيئة اللامبالي غير المتورط في المسألة .

جمعة القفاري في شهر العسل !

ملاحظة : بناء على نصيحة الطبيب قر قراري على ان اتزوج . ألم يقل أن الزواج يعني الاستقرار ، والاستقرار يعني عقد معاهدة صلح مع الحياة واتفاق سلمي بينك وبين نفسك ؟

(بعد حفل الزفاف المرهق ، انطلقنا الى فندق في العقبة ، كنت انا وعروسي قد قررنا ان نقضي فيه شهر العسل .

المشهد : ندخل غرفة الفندق ، عامل الفندق يتقدمنا ويضع الحقائب على الارض ، يتمنى لنا زواجاً سعيداً . ادس في يده بعض النقود ، ويخرج . في الغرفة سرير مزدوج ونافذة عريضة وحمام وطاولة صغيرة وباب يفضي الى ممر خارجي شرقي ، وباب آخر يفضي الى ممر خارجي غربي) .

انا : ما اسعدنا .

العروس : لو استشرنا « الكمبيوتر » في اختيار زوجين مثاليين نموذجيين لاختارنا نحن بالتأكيد .

أنا : لأول مرة تضمنا غرفة واحدة دون وجود ثالث معنا .

العروس : ليس من اليسير وجود زوجين متفقين في كل شيء ، موقفنا من الحياة واحد .

أنا : لأول مرة ننتقل من حيز الحلم الى حيز الواقع .

العروس : نحن متفقان فكرياً .

انا : لاول مرة ننتقل من العام الى الخاص . . الى تفاصيل الحياة اليومية .

العروس : وفلسفياً .

انا : لاول مرة ننتقل من المجرد الى المحسوس ، الى الحياة العادية .

العروس : وموقفنا من الحل السلمي . . وبيكاسو وابن خلدون والمتنبي وفهد بلان . . و . . .

انا (ادنو من النافذة وافتحها) : اه كم احب ان املأ رئتي بالهواء النقي .

العروس : لا ارجوك . لا استطيع ان انام والنافذة مفتوحة .

انا (متضاحكاً) : اخيراً وجدنا ما نختلف فيه . فأنا لا استطيع النوم إلا والنافذة مفتوحة .

العروس (باقتضاب) : المهم ان مواقفنا واحدة من القضايا الكبرى ، الجوهرية .

انا : طبعاً طبعاً ، مسألة النافذة مسألة هامشية وتافهة ، إذا ما قورنت بالموقف من الفلسفة الوجودية . .

(اضطجع على الجانب الأيمن من السرير مسترخياً ، هي تغلق النافذة) .

انا : ارجوك . . اطفئي المصباح .

العروس (باستنكار) : لا استطيع ان انام في غرفة معتمة . . اخاف الظلام .

انا (مغالباً توتري) : لا بأس لا بأس ، المهم اننا متفقان على ان عصر الظلام بدأ ، في تاريخنا ، بعد هزيمة التيار العقلاني الذي مثل ابن رشد ذروته .

العروس : طبعاً . . طبعاً . .

(استل سيجارة من علبة سجائري واشعلها) .

العروس (بهلع) : ماذا ؟ تدخن في غرفة النوم . إطفىء السيجارة ارجوك .

انا (بحنق) لكنك تعرفين انني ادخن .

العروس (بنزق) : نعم . ولكن ليس في غرفة النوم .. والنافذة مغلقة .

انا : انت اغلقت النافذة .

العروس (بالحاح) : اطفىء السيجارة ارجوك .

انا : اطفئي المصباح .. ارجوك .

العروس : انا متعبة . ارجو ان تطفىء السيجارة .

انا : افتحي النافذة .

العروس : انتقل الى الجانب الأيسر .

انا : موقفنا من اليسار واحد .

العروس : أقصد انني اعتدت النوم على الجانب الأيمن من اي سرير .

انا : وموقفنا من اليمين واحد .

العروس (بغضب هستيري) : انت لست معي .

انا (وقد اكفهر وجهي) : لست معك ! كيف ؟ انا هنا على الجانب الأيمن من ..

العروس (تقاطعني) : اطفىء السيجارة وانتقل الى ..

انا (اقاطعها) : اشعلي الضوء وافتحي الـ ..

العروس (تقاطعني) : ابغض الدخان و ...

انا (اقاطعها مرة اخرى) : ارغب في قليل من الهواء .. افتحي الـ ...

العروس (تضرب قدمها بالارض مغضبة) : انت لا تسمعني .. انتقل الى الجانب الأيسر من السرير .. ارجوك ..

انا (محنقاً) : انت طلبت اغلاق النافذة .

العروس (بعصبية) : لا استطيع النوم على الجانب الأيسر من السرير .

انا : ولا تستطيعين النوم في غرفة فيها رجل يدخن ؟
العروس (وهي ترتعش غضباً) : بالضبط .

انا (بنفاد صبر) : حسن اذن ينبغي ان ينام كل منا في غرفة منفصلة .

العروس (متحدية) : بل في فندقين مختلفين .
انا (مزايداً) : او في بلدين مختلفين .
العروس : بل في قارتين متعاديتين .

(انتفض واقفاً ، احمل حقيبتي واخرج من الباب الشرقي ، بينما تحمل هي حقيبتها وتغادر الغرفة من الباب الغربي . . الى الأبد) .

جمعة القفاري زواج آخر

انني بحاجة الى الزواج ومضاد للضجر وزجاجة بيرة كي احافظ على توازني النفسي . عند جارنا البقال حصلت على البيرة . قال البقال وهو يمسح على كرشه ويطرد ذبابة حامت حول عينيه الناعستين انه لا يعرف مسحوقاً مضاداً للضجر ، لكن بوسعه ان يبيعني مسحوقاً مضاداً للحشرات . ورمقني بنظرة ذات مغزى واضح . . فلم افهمها .

وتدخل زبون لا يخلو من فضول واعتقاد جازم بأنه يتمتع بروح دعابة اكثر مما يتمتع باجازة فقال :

- اذا كنت تسعى لقتل الضجر فما عليك إلا أن تخوض في خضم السياسة .

غادرت البقالة مغضباً اغمغم :

- السياسة ليست ترفاً في بلادنا .

مشيت في الشارع، سيجارتي في فمي ويداي في جيبي . كنت اتلفت بضجر فتحاصرني سطوة الشمس اللاهبة حيثما يممت وجهي . لحق بي البقال وهتف :

- نسيت زجاجة البيرة .

ان هذا البقال يمشي مشية عسكرية ، ويتصرف وكأنه مختار الحي . كما ان جسده المدور القصير وشعره القصير الذي يمد لساناً على جبهته يذكرانني بنابليون بونابارت . ارهن ان عينيه لم تقعا مرة على امرأة كاملة مثل جوزفين .

حملت زجاجة البيرة المتوارية في كيس من الورق ، ومشيت في الشارع المقفر ، دلفت الى مكتبة ، سألت صاحبها عن مجلة (الايكونومست) فعرض آخر عدد علي . تصفحتها ثم قلبت شفتي السفلى وقلت انني اشتريت هذا العدد منذ اسبوع . سألته عن العدد الجديد .

قال بالحاح :

ـ هذا هو العدد الجديد .

وكنت ادرك ذلك ، غير انني ارغب في المناكفة وقتل الوقت . خرجت من المكتبة ، فإذا بصاحب محل الفيديو يناديني . التفت نحوه فحرك يده حركة تنم عن دعوة . مضيت الى دكانه .

صافحني بحرارة ثم جرني الى المحل وقال بحماسة :

ـ تعال تفرج معي على فيلم « هواجس اعزب » . ثارت اشجاني لدى سماعي عنوان الفيلم . انحط جسدي على مقعد ، كنت محدودب الظهر كما لو انني اوغلت في الكبر . قلت وانا اجفف عرقي :

ـ حل عني يا شيخ . . هات فتاحة . . معي زجاجة بيرة .
ـ ألا ترغب في رؤية هذا الفيلم ؟
ـ لا .
ـ ماذا تريد ؟
ـ زوجة . أكاد افقد اعصابي . . لا بل فقدتها .
ـ من ؟ زوجتك ؟
ـ لا يا اهبل . . اعصابي .
ـ أبحث عنها . . أنا اقودك اليها .

لا بد ان هذا الرجل خرف . سألته وانا اداري غيظي :

ـ تريد ان تقودني إلى اعصابي التي فقدتها .
ـ لا . . الى زوجة .
ـ اصمت .

ـ انها هنا . في هذا الفيلم . . سنراها على الفيديو .
ـ تريد ان تزوجني من ممثلة ؟ اغرب عن وجهي .

اقسم صاحب محل الفيديو انه لا يهزأ مني ، ووصف « العروس » التي سيرشحها لي ، والتي سأشاهدها بعد قليل على شاشة التلفزيون قائلاً انها : « وردة » . ضيقت ما بين عيني ، رمقته بريبة وحذر ، قلت وكلي رعب من ان اكون موضع دعابة سمجة :

ـ وردة الجزائرية ؟

ضحك ضحكة بلهاء ، ولكنها مقتضبة وصحح قائلاً :
ـ أقصد مثل وردة . . زهرة .

بدأ يبحث عن الفيلم المقصود بين الرفوف . تفكرت ملياً . قلت في نفسي :

هذا ولد احمق . ان امثلته لا تمت الى العصر بصلة . « امرأة مثل وردة ! » عبارة مبتذلة لا يقولها مثقف على مشارف القرن الحادي والعشرين . لكن من يحمل وجها مثل وجه صاحب محل الفيديو هذا لا بد ان يستخدم مفردات غبية سوقية كهذه . إنه يشبه ذلك الشاعر الذي كان ينظم معظم اغاني فريد الاطرش . . ما اسمه ؟

لا يزال يبحث . ينحني ، يقرفص ثم يحضر مقعداً ويصعد عليه ويفتش بين الافلام المتراصة في الرفوف العليا . وبدأت انا ابحث عن فتاحة لزجاجة البيرة . قلت :

ـ أنا شخصياً لا اعرف كيف ادير هذه الآلة . . اقصد الفيديو .

هبط صوته من فوق الرفوف :

ـ ولكنكم تملكون جهاز فيديو . .

ـ ابن اختي الصغير يديره نيابة عني .

ـ هيء . . هيء . . هيء . أنا عارف كيف تريد ان تتـزوج وانت لا تعرف تشغيل الجهاز ؟

(قلت لكم : هذا الرجل أبله . . تصوروا انه من المعجبين بالهمبرغـر وتوفيق الدقن !)

ـ ألم تكن متزوجاً ؟ أين هذا الشريط اللعين ؟ لماذا انفصلت عنها ؟

كدت أيأس من العثور على فتـاحة ، وكـان العرق يتصبب عـلى جبيني وعنقي . قلت مغالباً نفاد صبري :

ـ أين الفتاحة ؟

رد الأحمق على سؤالي بسؤال ، فسألني لماذا اريد الفتاحة . كم ابغض ان يرد المرء على سؤال بسؤال . تجاهلت سؤاله وكتمت غيظي . افهمته انها كانت ترغب في ان تنام على الجانب الأيسر من السرير . (اتخذت ملامح وجهه هيئة البلاهة الكاملة والدهشة الصرفة) قلت بنبرة لم تخل من حنق :

ـ انفصلنـا ليلة الدخلة . . تـركتها عـذراء . . تصـور (لم احـدثـه عن بقيـة المشاكل ، مثل قضية التدخين في غرفة النوم ، فمثل هذه القضايا ينبغي ان تبقى طي الكتمان) .

قال بفظاظة :

ـ أما هذه . . التي ستراها في شريط الفيديو فإنها تنام حيث تريد أنت . على الارض ، عـلى مقعد . . تنـام واقفة ان شئت . . إنها من الصنف الـذي تربيه على يدك .

لم اقل له انني بحاجة الى زوجة لا ابنة ، فالعرق ينهمر على جبيني .

سألته وانا اصر على اسناني :

ـ أين الفتـاحة ؟

قال وهو يهبط لاهثاً عن المقعد حاملاً شريط فيديو :

وجدت الشريط . هل قلت ان زوجتك الأولى ظلت عذراء ! لماذا تريد الفتاحة ؟

بغتة . . انتابت الأفندي نوبة من الضحك الهستيري . قبضت على ذراعه بقوة وصرخت في وجهه ودمي يغلي في عروقي غليان الماء في مرجله .

ـ اسمع . لا اسمح لك . انك تتحدث الى فارس شهم ذي خلق رفيع . حظي الاسود انني ولدت في عصر لا علاقة له بالفروسية العربية الأصيلة .

ربت على كتفي ، ثم طوقني بذراعيه وقبلني على جبيني ، قال :

ـ لا تزعل . انا آسف . تعال نتفرج على الوردة .

دس الفيلم في جهاز الفيديو ، ثم رفع زجاجة البيرة الى فمه وشد على الغطاء بأسنانه . . فإذا به يقتلعه . بصق غطاء الزجاجة ، ثم وضع فوهتها على فمه واتى بجرعة واحدة على نصفها . نحى الزجاجة عن فمه وتجشأ . . فشعرت بالغثيان . ناولني الزجاجة فأشحت بوجهي واومأت بيدي ايماءة تنم عن زهدي بالزجاجة . ومضت عيناه بسعادة غامرة . واعاد فوهة الزجاجة الى فمه وقال وهو يجلس على المقعد :

ـ بدأ الفيلم . . انظر بعناية .

* * *

جلسنا انا وهذا الأحمق صاحب محل الفيديو نشاهد شريط فيديو يصور حفلة زفاف في احد فنادق عمان الضخمة . قلت وانا العنه في سري :

ـ هل تريد ان تقنعني بأنني سأعثر على شريكة حياتي المقبلة في هذا الشريط ؟

ابتسم صاحب محل الفيديو ابتسامة فيها كثير من البله وان كانت تنم عن اعتداد بالنفس واستخفاف بي . ثم قال بلهجة غامضة :

ـ ستراها بعد قليل . . فتاة استراتيجية .

تواثبت احشائي وكدت اتقيأ . هذا الرجل ذو الوجه الحزين يستخدم

مفردات سوقية عجيبة « امرأة استراتيجية ؟ » . . ولكن ماذا تتوقع من رجل يحمل وجها مثل هذا الوجه الشبيه بأغاني فريد الاطرش البكائية .

اشحت عنه بوجهي ، وغالبت ضيقي ورحت اشاهد الشريط ، ثمة حشد كبير من رجال يرتدون بدلات إنيقة ونساء تشي ثيابهن اللامعة المتوهجة بأنهن متزوجات من رجال اعمال واغنياء حروب . كان الجميع يجلسون حول طاولات عليها اصناف الطعام والوانه . وثمة مجموعة من الفتيات والشباب يرقصون رقصاً يجمع بين التقاليد الشرقية حسب قواعد مدرسة تحية كاريوكا ، والرقص الغربي حسب قواعد مدرسة الفس بريسلي. بغتة تسلطت الاضواء على امرأة بادنة ممتلئة الاعلى والاسفل تتدلى حول عنقها سلسلة من الذهب الخالص . . ولاحظت انها قد صففت شعرها على طريقة نساء الغرب في القرن السابع عشر .

قال صاحبي :
- هذه . غالبت غيظي وقلت :
- تريد ان تزوجني من هذه المرأة .
اطلق ضحكة مجلجلة وقال :
- يا رجل . . انني امازحك . لا . . ستظهر المرأة التي اقصدها بعد قليل .

لعنته مرة اخرى في سري ، ورحت اتابع المشهد. ظهر رجل ذو عنق شبيه بعنق هتشكوك او ديك الحبش، كان ينكش اسنانه بأظفره ويمسح بيده على شاربه ويوزع ابتسامات مدروسة على الناس. لاحت منه التفاتة فلاحظ ان مصور الفيديو الخفي يصوره . . فكف من فوره عن نكش اسنانه ، واتخذ وجهه هيئة الوقار والجد. انه يختلس النظر الى الكاميرا بنظرة جانبية سعيدة .

بغتة تركز المشهد على وجه امرأة فابتسمت بوجهها وعينيها معاً للكاميرا . التفت الى صاحبي مستطلعاً فهز رأسه سلباً . انها امرأة ذات جلال بهي على كل حال . . . خسارة .

ثم ظهرت على الشاشة امرأة اخرى منظرها يعجب ومحضرها يخلب.

التفت الى صاحبي فقال دون ان يلتفت :

ـ ولا هذه . . اصبر .

رحت اتقلقل في مجلسي واتنحنح بعصبية . كانت الفرقة الموسيقية تعزف اغنية « يا ام الشال العنابي » بغتة جعل صديقي يهز منكبيه ويفرقع اصابعه طرباً . (ماذا تتوقع من رجل يحب الهمبرغر وتوفيق الدقن ؟)

دارت الكاميرا على وجوه الراقصين والراقصات ثم تسلطت الأضواء على العريس . انه نحيل الظل متضمر الوجه ممتقع اللون منخسف الخدين ، لكنه انيق اناقة لا غبار عليها ، كما ان شعره مسرح تسريحة تشبه تسريحة غالب علامة . . ثم ظهرت العروس على الشاشة . شدت انتباهي ، اذ كانت زهراء الجبين ظاهرة الوضاءة ، شعرها مرسل على كتفيها ، ونظراتها اشبه ما تكون بالبرق الساطع . نعم ثمة وميض غامض يشع من عينيها .

قفز صاحبي وصفق بحماسة وقال وهو يضع اصبعه على الشاشة :

ـ هذه .

اضطربت . اصطكت ركبتاي وسرت في بدني قشعريرة الدهشة . قلت بصوت مختنق :

ـ العروس ؟

ابتسم صاحبي الاحمق فيما يشبه الزهو والاعتداد بالنفس وهتف :

ـ هي بعينها .

لم اتمالك ان اطلق ضحكة عصبية مدارياً ذهولي :

ـ العروس ؟

ارتفع صوته وهو يقول بجدية وصرامة :

ـ نعم . العروس . العروس . العروس . والله العظيم يا اخي .

رمقته بنظرة مستريبة ، وساءلت نفسي : هل يسخر مني ؟ لكن هذا الرجل لا يملك روح دعابة . انه ثور على شكل انسان .

قلت وقد مسني الذهول بجناحه الخفي :

- العروس ؟ هتف الرجل :

- مالك يا رجل ؟ اقول لك العروس . . فتسألني : العروس ؟ نعم . العروس .

ثم باض اخونا الجوهرة فأضاف :

- طلقها العريس بعد حفلة الزفاف بأسبوع .

كدت افقد رشدي . صرخت :

- اسبوع ؟

ثم تساءلت بلهجة تنم عن الريب والشك :

- لماذا طلقها ؟

اطلق صاحبي زفرة طويلة مديدة وقال :

- هي طلبت الطلاق . . فطلقها .

نفد صبري . غالبت فضولي ولهفتي فغلباني . هتفت :

- لمذا ؟

قال :

- لا ادري . المهم انها هي التي طلبت الطلاق .

ضغط على زر فتوقف المشهد وبدا وجه العروس اوضح . خفق قلبي . يا لها من فتاة . نظرت اليها ملياً : واسعة الجبين ، صافية الخد . . وهذا البريق العجيب في العينين .

قال صاحبي :

- انها فتاة جميلة . . ومن عائلة محافظة . ابوها كان يشتغل سمساراً ايام الطفرة ، لكنه تقاعد . . انت تعرف السوق ميتة . هل ترغب في رؤيتها ؟

شرد ذهني فعجزت عن اللحاق به والسيطرة عليه . غمغمت :

- ها هي على الشاشة . اراها بوضوح .

قال بلهجة تنم عن ضيق صدر :

ـ يا اخي يعني ان تراها وجهاً لوجه . فغرت فمي ورددت كالابله :
ـ وجهاً لوجه !

قفز صاحبي وجعل ينشد :
الآن الآن وليس غداً

جعلت اظن بعقله الظنون . قال :
ابوها صاحبي . سأتصل به الآن سنزورهم اليوم .

نظرت الى الشاشة ورحت اتأمل وجهها حالما ثم غبت عما حولي فما عدت ابصر سوى هذا الوجه الوضيء ، ووميض هاتين العينين العجيبتين .

* * *

مضيت وصاحبي الى بيت السمسار المتقاعد . بدا السمسار المتقاعد (والد العروس) وكأنه جبل ضخم يرقى اليه الطرف لكنه لا يبلغ قمته . فكّرت :
ـ هذا رجل غليظ العماد . . متقادم الميلاد .

احتسينا القهوة واكتشفت ان الرجل مغرم بالدعابة ويحفظ عشرات النكات عن ظهر قلب . ولاحظت انه يتمتع بموهبة متميزة في أداء النكتة . فقد أضحكتني نكات سمجة كنت قد سمعتها عشرات المرات . صحيح انني كنت أجاريه في الضحك أحياناً بدافع المجاملة . . لكن الرجل صاحب نكتة موهوب .

ويبدو ان راداري اشتغل على ذات الموجة التي يعمل عليها راداره ، فتبادلنا الاعجاب والألفة منذ النظرة الأولى . غير ان عيني تعلقت بباب الصالة الفخمة بحثاً عن العروس .

قام الأب ليطلب لنا قهوة . فهمس صاحبي (صاحب محل الفيديو) :

ـ يبدو أنكما انسجمتما تماماً .

قلت هامساً دون ان التفت :

ـ المهم انسجامي مع العروس يا أحمق . . لا مع والدها . أين هي ؟

وعاد السيد عاكف المرزوق وراح يحدثني عن أيام الطفرة وبيع الاراضي والشقق والازدهار . . أيام المشمشية ، وأطلق زفيراً لاهباً ثم تحسر على تلك الأيام الذهبية . قال انه الآن لا شغلة ولا عملة . . فالسوق ميتة . وضرب كفاً بكف . . فكادت الدمعة تطفر من عيني تعاطفاً معه ، وشعرت ان حبي لسهام تضاعف ، واكتشفت انني مغرم بالعائلة كلها . إذ تعرفت في ذلك اللقاء الأول الى حرمه المصون (أم سهام) والى مجموعة من اخوانها ، غير أن سهام ظلت خفية لا تتجلى .

وقال صاحبي « أبو الفيديو » انها عائلة محافظة ، وان سهام لا تظهر أمام الغرباء . لا بأس بعد زيارة أو زيارتين لن تبقى غريباً ، وسيبزغ أمامك فجأة وجه سهام !

وتكررت الزيارات وتكررت النكات ، وبات من العسير عليَّ أن أطلق ضحكة من القلب . وأهمس في أذن « ابو الفيديو » :

ـ هل أخبرتهم اني مهتم بسهام ؟

فيهز رأسه ويقول :

ـ طبعاً طبعاً . . الصبر مفتاح الفرج .

وتأتي أم سهام تحمل القهوة . . لكن سهام لا تأتي . ويدخل أخوها الصغير فينط أمامي ثم يمتطي كتفي (وأنا اتصنع ابتسامة مزورة . . واكبح رغبة ملحة في قذفه الى الارض) .

بغتة ظهرت سهام عند الباب . كانت تحمل كؤوس الشاي ونظرات ساطعة . اعترت جسدي رعدة الغرام . قال أبوها :

ـ ادخلي يا بنتي . لا أحد غريباً !

تقدمت كأنها تمشي على هواء . انحنت ، ثم وضعت صينية الشاي على

الطاولة ، والتفتت الى والدها ، رمقته بنظرة غامضة . هز رأسه وقال :

ـ اجلسي .

ثم التفت الينا وأطلق ضحكة عصبية وقال :

ـ إنها مشغولة دائماً بتدريس اخوانها الصغار . . هيء . . هيء . . هيء .

لاحظت انها تحدق الى وجهي ولا تطرف . نظرات مشعة ووجه ظاهر الوضاءة . قلت في نفسي :

ـ لا شك ان صمتها ينم عن صد أو إباء او ترفع .

أوجست في نفسي خيفة . خطر لي انها لم تقع في غرامي من أول نظرة . مع انني شاب وسيم ، إذ ان طولي ينسجم بدقة مع وزني . في تلك اللحظة إنسل عاكف المرزوق وزوجته والولد الشقي وصاحبي ابو الفيديو فبقيت وحيداً في الغرفة معها . . وجهاً لوجه .

باغتني الموقف فارتبكت . كانت تحدق الى وجهي لا تطرف ولا تنبس . نظرات ساطعة غامضة تختزن ملايين المعاني الخفية . تقلقلت في مجلسي مضطرباً . تصبب عرق غزير من جبيني وعنقي . . دسست يدي في جيبي بحثاً عن منديل . . بلا جدوى . تركت يدي في جيبي حين اكتشفت انها ترتعش اضطراباً . كان علي ان اجمع عزمي بسرعة وحسم لزحزحة هذا الصمت المحرج . لكن الكلام لم يسعفني . فكرت في أن أسألها عن رأيها بتيسير سبول . غير أني عدلت . وفكرت في ان أسألها عن زواجها السابق ، غير اني أدركت في آخر لحظة انها قد تفسر اسئلتي الشخصية على انها ضرب من المعاكسة والولدنة . فقر قراري على ان اسألها اسئلة موضوعية . تنحنحت ثم قلت :

- كيف الحال ؟ أقصد كيف . . كيف الطقس ؟

فما نبست . واجهض مشروع ابتسامة عصبية كنت احاول تكلفها . اشتد علي الحر وضاقت انفاسي . قلت :

ـ الوالد صاحب نكتة . . الجلسة معه لا تمل .

لم تنبس بكلمة ولا ند عنها أي صوت . مسحت شفتي المرتعشتين المتيبستين بباطن كفي ، ولا أدري كيف واتتني قواي على الحديث مرة اخرى :

ـ ينبغي ان اعترف لك . . .

ثم صمت لحظة وهمست :

ـ أرجو ان تحضري لي منديلاً من الورق .

قامت واشاحت بوجهها الباهر الذي تألق بومض عينيها الخارق .

قلت لنفسي انني احب هذه المرأة . ولأنني أتمتع بأخلاق الفرسان وشهامتهم فعلي أن لا أضللها . علي ان اعترف لها بكل عيوبي دفعة واحدة . هذه عائلة محترمة تستحق ان اكاشفها بحقيقة أمري . وهذه الفتاة . . .

عادت سهام تحمل علبة كلينكس ، يا الهي ما أروع هذا التناسق العجيب في الجسد الباذخ . تسللت نظراتي الى عنقها وأسفل ساقيها : إنها الكمال نفسه .

جففت عرقي بمنديل من الورق ثم اعترفت لها بعد أن اشحت بوجهي وسقطت ذقني على صدري ، انني كنت أعاني من اضطرابات عصبية . واني أدخلت الى مصح للامراض العصبية والنفسية . وانني احاول ابرام معاهدة صلح بيني وبين نفسي من جهة ، ثم بيني وبين محيطي من جهة اخرى .

مدت يدها الرقيقة فأخذت يدي بين يديها . حسبت انني خولطت في عقلي واني أتوهم حركة لم تقم بها . غير انني أحسست بدفء يديها وهما تحضنان يدي .

تساءلت :

ـ ترى هل تبسم لي الزمن القطوب ؟

ومضت دمعة في عيني . ها هي امرأة يانعة تتفهمني ، ولا تجد في تجربتي المرة القاسية التي أدت بي الى مصح أي غضاضة . كدت انسى نفسي ، فتركت

يدي تنام نوم مقاتل مرهق عاد من الجبهة الى بيته وسريره الدافىء . . وتمنيت لو نسمع موسيقى كلاسيكية هادئة . . وننسى الزمن والعالم الخارجي ، وتظل يدي في يدها الى الابد .

بغتة حانت مني التفاتة فإذا كل اخوتها يطلون بوجوههم اطلالة التلصص من طرف الباب . انتفضت كالملسوع وسحبت يدي من بين يديها . غير أنها لم تضطرب ولم ترتبك . بل قالت بصوت حالم :

ـ أعرف طبيباً ممتازاً .

قلت مدارياً ارتباكي :

ـ طبيب أعصاب ؟

قالت وومض عينيها العجيب الآسر يشع ويسطع :

ـ نعم . بوسعه ان يصالحك مع نفسك ومع العالم .

قلت بلهفة :

ـ هل تعرفين عنوانه ؟

قالت كأنما تخاطب شبحاً :

ـ نعم . مقبرة سحاب . مات منذ سنتين .

في تلك اللحظة دخل السيد عاكف المرزوق وهو يفرك يديه كأنما يداري حرجاً لم أتبين له سبباً . قال لابنته وهو يبتسم :

ـ أخوك الصغير يريد ان تساعديه في درس الحساب .

انتفضت سهام واقفة كأنما لسعتها أفعى . ثم مشت بهدوء نحو الباب ، تلكأت قليلاً قبل ان تختفي ، لكنها لم تلتفت ولم تودعني .

* * *

قضيت تلك الليلة مؤرقاً مسهداً ووجه سهام الوضيء لا يغيب عن عيني . الليل هو الملاذ الوحيد من صخب أولاد اختي عائشة ، وأحسست بأن

مضجعي قد نبا بي وسلمني لمخالب الارق .

* * *

في اليوم التالي أولم السيد عاكف المرزوق لي ولصاحبي « أبو الفيديو » ، ولاحظت اختفاء نساء البيت . تناولنا الخمر فطابت لنا الجلسة وأقمنا نتحدث حتى ولى النهار وانصرم . كان الرجل صريحاً ومتواضعاً . قال بنتنا ليست سلعة للبيع والشراء ، سنكتفي بليرة ذهب معجل ، وعشرة آلاف دينار مؤجل . أما حفل الخطوبة وعقد القران والزفاف فإني اصر على ان يجري في يوم واحد اختصاراً للمصاريف . ولا بد ان لا يتجاوز هذا اليوم المبارك نهاية هذا الاسبوع . فأنت تعرف ان مجتمعنا لا يرحم . ولفت انتباهي انه لا يرغب في اقامة حفل زفاف في فندق ، كما جرت عادة الطبقة المقتدرة .. وانه يكتفي باقامة حفلة متواضعة للأهل والمقربين . واكد انه على عجلة من أمر زواجنا حتى لا تجر زياراتي المتكررة للبيت القيل والقال . وأنبأني أن الخروج مع سهام مستحيل ، فالعائلة ذات تراث محافظ عتيد . واستنتج ان اطالة فترة الخطوبة بلا جدوى .

كنت مأخوذاً بسحر سهام ، فوافقت من فوري على كل شروطه ، على الرغم من استنكار اختي عائشة التي ألحت على مهلة كي تسأل عن البنت وعن دقائق حياتها .

وهكذا تزوجت من سهام ممهداً الطريق لحياة مستقرة تتيح لي أن أبرم صلحاً مع نفسي ومع محيطي

* * *

في احد فنادق عمان قضينا الليلة الأولى لزواجنا . جلست على طرف السرير وهي توليني ظهرها . كانت تحني جذعها وتأخذ رأسها بين يديها .

حدثتني نفسي بأنها مرهقة . قلت بلهجة تنم عن تعاطف وتفهم :

ـ أعرف أنك مرهقة . ولكن هذا لا يمنعك من الاقتراب مني . تعالي . . . استريحي على السرير .

انتفضت واقفة ثم تراجعت الى الوراء وهي ترتعد وتضطرب .

قالت أنها تشعر برعدة في جسمها ودوار في رأسها . تقدمت منها بخطوات وئيدة . ثم ضممت رأسها الى صدري . تحدر من عينيها دمع غزير . حدثتني نفسي بأن الوضع غير طبيعي . غير انني طردت شكوكي وقلت في نفسي :

ـ لعلها استرجعت ذكرى زواجها الأول ، لعلها مرت بتجربة بشعة .

ولقد هممت غير مرة ان أسألها ما بالها ، غير انني لم أسأل . انتزعت نفسها من بين يدي ومضت الى الحمام . فعدت الى السرير وقد أدركني الاعياء وهدني التعب . اضطجعت على السرير ، وما هي إلا لحظة حتى أخذتني عيني . . فنمت .

استيقظت عند منتصف الليل ، تحسست طرف السرير فإذا به خاوٍ . انتفضت كالملسوع وهرعت الى الحمام ، دفعت الباب فإذا ببصري يقع على سهام . كانت متكومة على الارض تتحدث في نومها حديثاً غير بين . أصوات أشبه ما تكون بعواء خافت .

ربت على كتفها برفق فاعترت جسدها رعدة جعلته ينتفض كأنما مسها تيار كهربائي . وأنا لا أفهم . أحاول ان أفهم . . فلا أفهم . هبت واقفة فإذا بها تكاد تفقد توازنها وتسقط . مددت يدي اليها ، غير انها آثرت ان تستند الى الجدار . كانت مستطارة اللب . دنوت منها ففتحت فمها كأنما تهم بالصياح ، لكن الصيحة احتبست في حلقها .

ومض في خاطري تساؤل : هل هذا العالم عصي على فهم كل الناس أم أنه عصي على فهمي أنا فقط ؟

عيناها تومضان وجسدها يرتعش . بغتة بـدت وكأنها فنيت عن نفسهـا وعما حولها وأوشكت ان تتداعى . فزعت اليها وأخذتها بين ذراعي ، وسحبتها الى السرير .

جفاني النوم بينما راحت هي تطلق تلك الأصوات العجيبة . حين اطل الفجر استيقظت فجـأة مروعـة ، وراحت تتلفت حولهـا كأنمـا لتتحقق انها في يقظة . . ثم عادت اليها السكينة دفعة واحدة .

ابتسمت ابتسامة غامضة ثم طوقتني بذراعيها ودفنت رأسها في صدري . أحسست بأنها طفلة صغيرة ، وغمرني شعور أقرب الى الحنان .

قلت لها وانا امسد شعرها :

ـ دعينا نتناول طعام الافطار في بيتنا .

* * *

ما إن دلفنا الى البيت حتى اطمأن قلبي . بدت ملامح الدهشة على وجه عائشة . غير أنها اكتفت بأن رحبت بنا ثم لملمت اولادها . وخـرجت . كان الاعياء والأرق قد هداني ، فدلفت الى غرفة نومي واضطجعت على السرير . قالت سهام :

ـ سأعد لك طعام الافطار .

وغـابت . . فتسلل سلطان النـوم الى عيني واختـطفني من احضـان اليقظة . لحست أشعة الشمس الكاوية وجهي فاستيقظت ذاهلاً واجماً لا أسمع صوتاً ولا حركة ولا نفساً . صحت :

ـ سهام . . سهام .

غير أن البيت مهجور .

انزلقت من السرير ، طفت بأرجـاء البيت الاخرس . ثم خـرجت الى

الحديقة حافي القدمين . فإذا بسهام تقتعد الارض شعثاء الشعر معفرة بالتراب ، ممزقة الثياب ، لا تكف عن العويل .. ونظراتها تزوغ وتومض ومضاً عجيباً خرافياً .

* * *

أدركت ان في الأمر خدعة ، وان السمسار أوقعني في شرك محكم . وانني وسهام ضحيتان بريئتان . ولأزيل كل ابهام في شأن سهام ، أخذت يدها في يدي ، ثم اخذنا بعضنا بعضاً الى الطبيب النفسي .

أمرني الطبيب ان انتظر في الخارج . رحت أذرع صالة الانتظار بخطى متلاحقة عصبية . والزبائن يرمقونني بعيون مستريبة ، وأنا أبادلهم نظراتهم بمثلها . فتح الطبيب الباب وأطل برأسه . ثم استدعاني بحركة من اصبعه .

دلفت الى غرفته . فإذا سهام واجمة مطرقة اطراقة مذنب . دار الطبيب واستوى في جلسته على مقعده ، ثم وضع مرفقيه على طرف طاولته . رفع رأسه ، حدق إلي بنظرة من يحدق الى مجرم آثم . قال بلهجة من يعترف بأمر واقع :

- إنها مصابة بالفصام .. والصرع .. والوسواس !

فتحت فمي فتحة لا تفسح للكلام ولا ترد الصمت . صمت صمتاً أشبه بالغمغمة . وغمغمت غمغمة أشبه بالصمت .

انكمشت على نفسي لا تطرف لي عين ، ولا تبعث لي جارحة . ووجدتني معقول اللسان ، لا أملك أن أنبس . خفت وطأة الصمت فسألت الطبيب بقلق :

- هل أصيبت بهذه الأمراض بعد الزواج بي ؟

تلقى الطبيب سؤالي ببسمة ساخرة تواري خلفها اشارات مقلقة . قال :

- هل فقدت عقلك يا رجل ؟

أكدت له انني لم أفقد عقلي قط . غير أنني فقدت أعصابي وذاكرتي وجواز سفري مرات . بدا الطبيب جهماً عبوساً معروق الوجه على نحو مباغت . وقف وراء طاولته وقال :

- خدعك أبوها يا هبيلة . أنت تزوجتها قبل ثلاثة ايام . . وهي مصابة بهذه الأمراض منذ طفولتها . أبوها باعك بضاعة فاسدة . أقولها لك من موقع الصديق .

التفت الى سهام بعينين مبراقتين . فلاحت على وجهها المتغضن المكدود بسمة شاحبة مهزولة .

في تلك اللحظة ثارت فيَّ النخوة ، وتضخمت في اعماقي بذرة الشهامة . فقلت للطبيب انني السبب في بلائها . فلا شك انني نقلت اليها عدوى قلقي وعدم اتزاني . وسألته ان يعيد الفحص بعناية اكبر . . لكنه ابتسم وقال :

- ينبغي مواجهة التحديات يا جمعة . والد زوجتك باعك بضاعة مغشوشة .

صرخت في وجهه ، وقد شعرت بالغثيان من هذا التعبير السوقي . « سهام بضاعة ومغشوشة ! » . قلت له انني سأطرق كل الأبواب لعلاجها . وسأضحي بالغالي والنفيس من اجل شفائها .

هز الطبيب رأسه بأسف . وقال :

- لا جدوى .

التفت اليها ، فراعني ان أرى جسدها الشامخ متداعياً متهالكاً قد قصم المرض ظهره . بغتة خرج من بين شفتيها صوت . نعم . . مجرد صوت . ثم تحول الى كلمة قالتها على استحياء :

- ما يقوله الطبيب صحيح .

ضرب الطبيب على طاولته بقبضة يده وقال بلهجة فيها زهو وفيها اعتداد :

ـ سمعت : ما يقوله الطبيب صحيح .

اهتز كياني كله ، ولكني تمالكت . تناولت سيجارة من علبة الطبيب دون استئذان ، وأشعلتها دون أن أناوله واحدة ، ثم جذبت منها نفساً عميقاً ، ملأت به صدري الضيق ، وتساءلت كما يتساءل مفكر تشغله قضايا فلسفية غير ملحة :

ـ والآن . . ما العمل ؟

كنت اوجه كلامي للطبيب ، فإذا بسهام تسترد بغتة حيويتها وتقول بحماسة :

ـ تطلقني . . وتدفع المؤخر لأبي .

في تلك اللحظة فطنت الى المكيدة التي دبرها هذا السمسار الخبيث . كان يعرف مسبقاً ان ابنته مريضة . وانني لن أطيق الحياة معها . وانني سوف أطلقها . قال ماذا ؟ قال : لا يا ابني نحن لا نتاجر ببناتنا . المقدم ليرة ذهب فقط . . والمؤخر عشرة آلاف دينار . السمسار ابن الـ . . . .

أخذ صدري يعلو ويهبط بسرعة وتتابع ، وأنا أراقب غضبي يتراكم ويتراكم . رحت أخور كالثور . استبد بي القلق رحت احدث نفسي كالعادة : اذا طلقتها أكون أذعنت الى مكيدة والدها . إذن لن أطلقها أبداً . وإذا لم أطلقها أبداً ، أكون قد حولت حياتي الى جحيم . إذن سوف أطلقها . ولكن أليس ثمة حل وسط ؟ أضربها كل يوم بعد الغداء وقبله مرتين ، فتطلب هي الطلاق . ولكنها ضحية . مجرد ضحية . إذن ينبغي أن لا أتركها سلعة في يد أبيها . فسوف يزوجها من فوره ، بعد الطلاق ، الى أحمق مثلي . بناء على هذا التسلسل المنطقي صار لزاماً علي أن أبحث لها عن مصح اوروبي من الدرجة الأولى . . لعلها تتعافى على يد الاخصائيين الاجانب فأنقذها كفارس شهم من بين يدي والدها الشرير . ولكن . .

قطع الطبيب دفق خواطر جمعة المنطقية القلقة وقال :

- نعم . . استاذ جمعة !

كان دم جمعة يغلي وفي رأسه حمى . قال بغضب :

- الله ينعم عليك . . ماذا تريد ؟

اتسعت حدقتا الطبيب وهو يقول :

- توكل على الله . لا علاج لزوجتك . انها مجنونة . وانت هبيلة وقد انطلت عليك حيلة والدها . والآن . . تفضل مع السلامة . ولا تنسَ ان تدفع للممرضة وانت خارج .

قدحت زناد عقلي بسرعة وقلق :

- هل يستوجب الموقف ان أثب على الطبيب وآخذ بخناقه . . باعتباره مسؤولاً عن هذه المصيبة بشكل او بآخر (باستفزازي مثلاً) أو بعدم اقتراحه اجراء فحص لها قبل الزواج . . رغم انه صاحبي ؟ أم أخرج من هنا راكضاً هارباً ، واتركها في العيادة ، وانجو بنفسي ؟ (اسافر الى منطقة تتأجج فيها حرب أهلية مثل لبنان . . على سبيل المثال) .

وعثرت على نفسي أدنو من سهام . انتفضت منتصبة متوثبة وكانت عيناها تلمعان بشعاع خطر .

أسندت رأسها الى صدري . . وخرجنا بهدوء .

بعت ثلاث قطع من أراضينا الى أبي سهام كي ادفع المتأخر ذلك بأنني لم أجد مشترياً في هذه المرحلة التي ماتت فيها السوق بعد الطلاق . قال ابو سهام متبرماً :

- وتكاليف العلاج ؟ ألم أمنحك اياها سليمة معافاة ؟

أما عائشة فلم تخف تشفيها . وقالت :

- اضطررت لبيع قطعة أرض كي تتزوجها . وثلاث قطع كي تطلقها بعد يومين من الزواج . زواج ثالث ونقف على باب المساجد نتسول .

فرحت اقضم أظافري وآكلها . . مع انني كنت بلا نفس ! كان النوم حرياً بأن يسارع الى جفني بعد كل هذا ، بلا جدوى .

* * *

مشهد من مراهقة جمعة القفاري

أخيراً انتبهت الفتاة ذات القامة الناهضة الصاعدة والشعر المنحدر الهابط الى وجود جمعة القفاري على وجه هذه البسيطة . ليس هذا الاكتشاف البسيط والانتباه الخطير اعظم انجاز حققه جمعة في مراهقته . وانما تمثل الانجاز الأعظم في موافقتها على ان تتمشى معه بعد الدوام الى موقف السرفيس . قالت له :

ـ لماذا لا ترافقني غداً بعد الدوام الى موقف السرفيس ؟

اذن هي التي بادرت . وهل يعقل ان يبادر مخلوق مثل جمعة الى أي شيء ؟

لكن جمعة لم يسمع او يستوعب ، للوهلة الأولى ، هذا الاقتراح الذي يفوق اختراع الآلة البخارية خطورة وأهمية ، لأنه كان يصغي الى صوت عينيها الأخضر السري ، الذي يشبه بحراً يداري صفاته الواضحة .

كررت الفتاة الاقتراح . فإذا بصدر جمعة يعلو وينخفض مثل شعرها وجسدها . اقشعر بدنه وظن انه يحلم . قرص خده بيده اليمنى . . . . فصرخ وجعاً . في تلك اللحظة فقط ادرك انه لا يرى مناماً عذباً ، وانما هو يسمع ما يسمع ويبصر ما يبصر في دنيا الواقع والحقيقة . واكتشف بغتة انه يقف بين يدي فتاة لذيذة كالمجدرة (من الجدير بالذكر هنا ان جمعة يشبه كل الطيبات بالمجدرة ، لأنه ببساطة يجد في تناولها متعة لا تجاري !) .

هرع جمعة الى البيت كالسائر في منامه . واستولى عليه شعور خارق بأن

حبه للفتاة الطالعة القامة النازلة الشعر قادر على اجتراح المعجزات الى حد تحريره من قوانين الجاذبية . لم يكذب جمعة خبراً ، فقد تسلق شجرة سرو ، وفرد ذراعيه وطار . . ليسقط على رأسه وليدرك ان جاذبية الارض تغالب جاذبية الهوى وتغلبها ، مما رد اليه رشده .

في البيت قرر ان يكتب ما سيقوله للفتاة في اللحظة التاريخية . اذ لا يعقل ان يترك اي تفصيل رهناً للصدفة . التخطيط المحسوب مطلوب . فهذا لقاء الحب الأول الحقيقي . اما علاقاته الغرامية السابقة مع نادية لطفي وكلوديا كاردينالي وسعاد حسني ، فقد كانت علاقات حب من طرف واحد . . للإسف ! وكن يثرن غيظه وحسرته ، فهو مخلص لهن في وله باهر ، وهن ينتقلن من علاقة حب الى اخرى ، حسب الفيلم والممثل ، امام عينيه الحزينتين اللتين تتابعان الممثلات المحبوبات بحسرة وعجز . امسك جمعة بالورقة فارتعشت على الطاولة وارتجف القلم بين اصابعه وسرت قشعريرة في يده كلها . ارتج عليه فلم يهتد الى كلمة واحدة يكتبها ويحفظها ليقولها في اليوم التالي لرندة . بغتة اجتاحه احساس بالجبن والاحجام . قال لنفسه :

ـ سألتخم . . سأرتبك . . سترتعش اصابعي . . سأتضرج عرقاً . . سيرتجف صوتي . . ليتني لم اوافق على اللقاء ! .

وراح جمعة يتخيل اللقاء التاريخي الموعود ، فيزداد اضطرابه ويتضاعف خفقان قلبه . وقال لنفسه موبخاً :

ـ كان علي ان اظل احبها من بعيد لبعيد . كان ينبغي ان يبقى حبي لها سراً من الاسرار الدفينة . ثم ماذا لو تحرش بها تلميذ او شاب من شباب الحارة المجاورة للمدرسة وانا اتمشى معها ؟ لم احسب حساب هذا الخطر ! وماذا لو . . .

لم يعرف جمعة انه يفكر بهواجسه بصوت مرتفع إلا حين قالت له اخته عائشة :

ـ انت تعشق القلق . لا تعرف ان تعيش بلا مشكلة مقلقة . فإذا لم توجد في

الموقف مشكلة .. اخترعتها . هيه .. ما هي المشكلة التي تبحث عنها الآن ؟ .

أظلم وجه جمعة . واتهم اخته بأنها تتجسس على افكاره وتتدخل في حياته الخاصة . وضرب المنضدة بقبضته فتناثرت الأوراق وحلق القلم في الفضاء ثم حط على الارض بهدوء واناة . صرخ جمعة :

- صحيح انك بمثابة امي . لكنك لست امي . اني لا افهم جنسكن .

غادر جمعة المنزل مغضباً حانقاً شاعراً بعجزه وارتباكه . وتمنى في تلك اللحظة لو كان جريئاً مثل عمر الشريف او فريد شوقي او انطوني كوين .

في الحارة التقى جمعة بالجزار ، استوقفه هذا وسأله عن اسباب انعقاد سحب داكنة من الغم والهم على وجهه . شعر جمعة بحاجة ملحة لبث شكواه الى شخص ما . وبما ان عائشة امرأة ، ولا يجوز في عرف جمعة ان يعترف الرجل بهواجسه لامرأة ، وبما انه يتيم بلا أب يستشيره في الظرف العسير ، فقد تلفت حوله بحذر ، ولما ادرك ان الشارع مقفر ومحل الجزار مقفر ملأ رئتيه بالهواء واراح رأسه على صدر الجزار الذي يفوح برائحة دماء كائنات كانت حية ، وجعل ينتحب وينوح . وبين الشهقة والشهقة اخذ جمعة يحكي حكايته للجزار .

كان الجزار حاسماً . فقال وهو يدفع جمعة برفق بعيداً عن قميصه المبلل بدموع جمعة ودماء الخراف :

- بسيطة . قبل اللقاء احتس قليلاً من حليب السباع ، وسترى كيف ستتحول بقدرة قادر الى ريتشارد قلب الاسد . وستكون سيد الموقف . تخاف من امرأة ؟

اطلق الجزار ضحكة مجلجلة اثارت غيظ جمعة وجرحت كرامته فهتف :

- اواجه الجيش الصهيوني وحيداً ولا أخاف .. لكن رندة ؟!؟ ثم ما هو حليب السباع هذا ؟

انحنى الجزار وتناول ربع زجاجة من الشراب . ثم نـاولها لجمعـة وقال بصوت خشن :

ـ قبل اللقاء بساعة . . تناول كأساً او كأسين من هذا .

* * *

في اليوم التالي كانت الفتاة التي تضم حقيبتها المدرسية الى صدرها تقف وحيدة عند باب المدرسة . نظرتها تنتظر جمعة . اصابعها تنقر على جلد الحقيبة بعصبية . تروح وتجيء ، تهم بالانصراف نهائياً ، لكنها تعدل وتحاول البحث عن مبرر . . انظار المارة تحرجها . . لكنها تنتظر بشجاعـة وصبر طـويل مثـل شعرها .

وجمعة القفاري مضطجع على سريـره ، زجاجـة الشراب عـلى المنضدة المجاورة فارغة . اخته عائشة تقول له بعتاب :

ـ يـا ويلي . . تحتسي الخمـرة في عز الـظهيرة يـا جمعة . قم . . اعـددت لك فنجان قهوة مرة .

فيجيبها جمعة بشخير ثمل متقطع . . . ويهز رأسه المثقل بالخمرة وبطيف رندة التي تنتظر الآتي الذي لن يأتي ! .

مشهد من حكايات جمعة القفاري !

خرج جمعة القفاري من البحر مثل كائن اسطوري . . .

جالت عيناه في ارجاء الشاطىء . اطمأن الى هذه السكينة الاستثنائية وهذا الهدوء الفريد، فاضطجع على الرمال وراح يستحم بشعشة الشمس ، دون ان يحفل بتجفيف جسده . اغمض عينيه وتنهد . كان بحاجة الى هذه الاجازة ليرتاح من تعب الراحة ـ نصحه طبيبه قال : سافر .

شرح له جمعة الاسباب المادية التي تحول بينه وبين السفر . امتلأ فم الطبيب بالضحك . قال :

ـ اذهب الى العقبة . . شمّ هواء يا أخي .

سأله جمعة بدهشة :

ـ وماذا يوجد في العقبة غير البحر والشاطىء ؟

هتف الطبيب مستنكراً ساخراً :

ـ فنادق من الطراز الأول .

كان شعور جمعة بأنه يحس قصوراً عن تفسير ما يقع حوله من خطوب واحداث قد بلغ ذروته . ما امس حاجته فعلا الى التغيير والابتعاد عن عمان المنهمكة برتابتها الصاخبة .

الشاطىء مقفر ، فشمس الظهيرة الحارقة قطعت الحركة ودفعت نزلاء الفندق الى غرفهم ، يفزعون الى قيلولة تجيرهم من سطوة الظهيرة . بغتة ،

ترامت الى مسامعه اصوات اشبه ما تكون بعواء انسان . رفع رأسه واطلق بصره نحو البحر ثم استرجعه من فوره واراح رأسه على ذراعيه مرة اخرى . . اغمض عينيه فضرب الصوت مسامعه ضرباً موجعاً للمرة الثانية . انتفض جمعة وأرسل بصره مرة اخرى الى البحر . . ولم يسترده بسرعة هذه المرة . ارتطم بصره بأذرع تلوح ورؤوس تظهر ثم تختفي .

حانت منه التفاتة فرأى حسكة خشبية الى جانب الاجساد التي تصارع الغرق . . . وقد انقلبت على ظهرها. خفق قلب جمعة خفقاً عنيفاً ، وراح يصرخ طلباً للنجدة . جعل يركض نحو البحر فما ان يجمع قواه ويتخذ هيئة القفز حتى تمتد ذراع المنطق فتشكمه وتشده نحو الشاطىء . فهو لا يتقن السباحة ، والاجساد التي تصارع الغرق ليست قريبة من الشاطىء . تقدم وأحجم ، تردد ثم حسم ثم تردد ، شق الفضاء بصيحاته ودار حول نفسه ، غطى اذنيه بكفيه حتى لا يسمع الصراخ ، غير ان مزاجه « الدون كيشوتي » ونخوته التي لا تعرف روية ، وشهامته البريئة من الحسابات الدقيقة ، تحولت كلها الى عناصر تؤلف قوة خفية مبهمة جبارة تدفعه دفع يد عملاقة الى البحر ، وبالتحديد حين ادرك ان ضحايا البحر نساء ! . .

جاز الموج كالومض الخاطف . ذراعاه تمتدان امامه وتفتحان في البحر منفذاً لجسد الفارس الذي يتأجج نخوة وشهامة !

حين مد يده الى المرأة الأولى صرخت :

- كسر الله يدك يا بارد . اقلب وجهك ! نحن نلعب .

وهتفت الأخرى :

- انه يتحرش بنا . . واحد وقح !

وقال ثالثة باستنكار :

- ما عندك اخوات ؟! ما عندك شرف ؟! (أما المرأة الرابعة فكان وجهها يحتج دون لسانها) كانت هذه الكلمات التي صفعت كبرياء جمعة وجرحته في نفسه كافية لقطع الاكسجين عن رئتيه ، عاوده احساسه الموجع بالقصور عن تفسير ما يقع حوله من وقائع . في تلك اللحظة خارت قواه دفعة

واحدة ، وكان آخر ما يراه قبل ان يهبط الى الاعماق المظلمة للبحر ، وجه تلك المرأة التي احتج وجهها دون لسانها . ولولا ذلك « الحوت » العقباوي الذي سارع لانقاذ جمعة لتوفي غرقاً . فقد حـالت كرامتـه بينه وبـين طلب النجدة ! (كيف تطلب النجدة باللغة العربية ؟) .

بعد ان استعاد جمعة وعيه وقوته غمغم قائلاً :

ـ تصــور . . كن يلعبن ! اراهن انهن كن في حـاجــة الى مســاعــدتي لكن كبرياءهن دفعهن الى اختراع فيلم اللعب !

كيف تعرف جمعة الى وداد

ما إن قرر جمعة أن يستقل ويرحل عن بيت عائشة فيستأجر شقة قريبة ، حتى صدر قرار حل رابطة الكتّاب الأردنيين بأمر من الحاكم العسكري ، وبعد ان جاء رجال الشرطة فصادروا محتوياتها وشمعوا بابها بالشمع الأحمر ، أصيب جمعة بنوبة اكتئاب حادة . فاعتزل العالم واعتكف في شقته شهراً بكامله لا يفتح نافذة ولا باباً . ولولا شقيقته عائشة التي كانت تلم به بين الحين والحين وتظل تطرق بابه بلا كلل حاملة طبقاً من الطعام ، ولولا الحاج « كثير الغلبة » على زيارته والاعتناء به . لأودى حرده من الدنيا بحياته .

كان جمعة يقعتد الأرض ، يقرأ كتب المتصوفة اناء الليل واطراف النهار . ثم ينهض بتثاقل ، ويمضي الى المطبخ ، فيجلس الى الطاولة ، ويكتب . وذات يوم كتب خاطرة بعنوان « أنا والعالم الخارجي » وتحكي الخاطرة التي كتبها جمعة بصيغة الأنا عن انه رجل زاهد أشبه ما يكون بحصن عصي على الضعف أمام اغراءات الحياة ، وقلعة راسخة لا تستطيع خطوب العالم الخارجي ان تهزها أو تهدمها ، وان السكينة الداخلية التي ظفر بها بعد مجاهدة روحية مضنية هي صمام أمانه ، والصخرة التي تتحطم عليها كوارث العالم الخارجي .

حين قرأت وداد هذه الخاطرة ، اتصلت بالصحيفة وسألت عن رقم هاتف جمعة القفاري . ثم اتصلت به في البيت . ولما كان جمعة مضرباً عن

الكلام ، مقتصداً في اللفظ ، ممسكاً في كلماته واشاراته ، فقد رد كثير الغلبة على المكاملة .

وحين لمس « كثير الغلبة » نبرة اهتمام وفضول في صوت القارئة المعجبة ، خطر له ان وجود علاقة ما بين جمعة وامرأة سوف يحرره من حالة الكآبة التي تكاد تودي بحياته . وقر قراره على ان يجازف مجازفة غير محسوبة .

قال كثير الغلبة لوداد ان جمعة لا يقابل هذه الأيام أحداً . وأنه ذو ميول صوفية ، وانه يعتكف في البيت ، لا يفتح باباً ولا يصغي الى رنين هاتف . أثار كلام « كثير الغلبة » وثرثرته فضول وداد التي تعاني من السأم ، وتبحث عن مغامرة . سألته بصوت فيه تردد وفيه جرأة :

ـ هل تستطيع ان تدبر لي لقاء معه . . ولو لدقائق ؟

دلفت وداد الى شقة جمعة ، بعد ان فتح لها كثير الغلبة الباب . كانت تخطو خطوتين الى الامام ، ثم تتراجع خطوة . مر في خاطرها ان ترجع أدراجها . وعنَّ لها أنها تقوم بما لا تقوم به سيدة في هذا البلد : زيارة رجل غريب في شقته . لكن حديث كثير الغلبة عن زهد جمعة وتصوفه قذف نور السكينة والاطمئنان الى قلبها . وشوقها الممض الى مغامرة غنية دفعها بقوة غامضة لا تستطيع تبينها ولا السيطرة عليها الى هذه الزيارة الغريبة .

كان جمعة يقتعد الأرض ويقرأ « الرسالة القشيرية » . وقفت بين يده مرتبكة تعبث اصابعها بحزام حقيبتها الصغيرة بعصبية . قالت :

ـ قرأت مقالتك . . وأعجبتني .

رفع جمعة عينيه دون رأسه ، فارتطم بصره بامرأة حسنها مترف ، وخصرها مرهف ، زهراء الجبين ، ظاهرة الوضاءة . وكان شعرها الليلي منسدلاً على ظهرها الشامخ .

حدق جمعة اليها ذاهلاً واجماً مشرد اللب . وما أسرع ما أحس في نفسه

نشاطاً يملأ كل امره ، ويكاد يخرجه عن طوره .

انتفض منتصباً مرتبكاً وأشار الى الصالة . قال :

- تفضلي هناك .

فتفضلت . همس في أذن كثير الغلبة :

- هل سمعت بأذنيك ؟ أنا لست نكرة . ثمة من يهتم بي ويبحث عني ، ويلتمس معرفتي .

جلست وداد على كنبة ، وشدت حقيبتها الى صدرها كأنما تحمي نفسها بدرع حديدي .

بدأت وداد الحديث عن متابعتها لكل كتابات جمعة . كانت تغالب اضطرابها فتغلبه ، وتقاوم رعشة صوتها فتهزمها. قالت انها شعرت حين قرأت هذه المقالة ان جمعة كاتب وقور يحترم نفسه . اتخذ جمعة مجلسه في صمت ، واستقر فيه لا يأتي بحركة ولا يدير لسانه في فمه . قالت انها سألت عنه صديقة تعرف اخته عائشة ، فأكدت لها الصديقة انه رجل أشبه ما يكون بدون كيشوت . هكذا كانت عائشة تقول عنه . يجير المظلوم ، ويفزع الى نجدة الضعيف ، لكنه يهمل نفسه ولا يلتفت اليها .

سرعان ما دفع هذا الكلام جمعة القفاري الى تقمص شخصية قديس شهير دون قصد أو تكلف . قال :

- تقاصرت الآمال ، وعكف اليأس ، وكظمت الانفاس . . . غير أني ذو مناعة داخلية ، وحصانة جوانية عصية على الخطوب ، حصن تتكسر على اسواره الخارجية الفجائع ، فلا تنالني من الداخل .

ومضت بروق متألقة في عيني وداد . قالت انها تخيلته هكذا : رجلاً قوياً منيعاً زاهداً في تفاصيل هذه الدنيا الحقيرة ، متطلعاً الى الاحلام العظيمة والأهداف النبيلة .

بغتة تداعى رأس وداد على صدرها وانخرطت في نحيب ، خفق له قلب

جمعة . وهيأ نفسه من فوره لانقاذ هذه السيدة من محنتها المبهمة . قالت :

- سُدت مسالكي . طرقت ابواب الخلاص كلها . . بلا جدوى . . انني اعاني . .

رفت على شفتيها ابتسامة حزينة هائمة لا تستقر . قال جمعة بحماسة :

- يبدو لي أنك تعانين . . أليس كذلك ؟

انجاب عن صبح وجهها ذلك الحزن الغضوب وقالت وقد انقلبت لهجتها من حال الحزن الى حال الفضول :

- كيف عرفت ؟ كأنك مفتاح الغوامض .

ما إن فرح جمعة بهذا الاطراء ، حتى انشرح صدره ومد بصره الى الجدار فأحس بأنه يخترقه ويبصر آفاقاً بعيدة . قال :

- لا يستعصي علي الملفر والمنطوي والممسك والقابض والمحجوب والباطني .

دلف كثير الغلبة يحمل الشاي . علق دون ان ينتظر جواباً :

- « أنتما تتكلمان بلغة غريبة » . ثم وضع الشاي على المنضدة واختفى .

قالت وداد ان كثير الغلبة قد يظن بها الظنون ، لأنها جاءت الى هذه الشقة دون ان تعرف أي مفاجأة تنتظرها . قالت على استحياء :

- سوف يظن انني امرأة خفيفة يسيرة المنال .

تجهم وجه جمعة . وعقد يديه على صدره وسأل :

- وهل انت كذلك ؟ رأي ابن عمي ليس مهماً . المهم كيف ترين أنت الى نفسك . هل تبصرين امرأة لعوباً حين تحدقين الى المرآة .

ارتعدت لوقع سؤاله ا لمباغت . مدت يداً مرتعشة الى كوب الشاي وقالت :

- لا . أرى امرأة مجنونة يائسة متهورة . . قتلها الضجر .

عنَّ لجمعة ان يختلس منها نظرات طويلة ، لكنه انكمش على نفسه

باحتشام وقال بصوت ينم عن وقار :

ـ في كل الأحوال . . لا أنصحك بزيارة كل من أعجبت بمقالة لـه في بيته . فالرجال في الغالب الأعم ذئاب . . والعالم غابة . حسن حظك دفعك الى كاتب زاهد في الغرائز ، متطلع الى غايات نبيلة . أما خلاصك فلن تجديه هنا . وانما التمسيه عند « الحق » . ناديه . قولي له : يـا أول يا آخـر ، يا ظاهر يا باطن ، عـاملني بما يليق بـك ، لا بما يليق بي . وسـوف يسمع . ذلك انه أقرب اليك من حبل الوريد .

وخرجت وداد من الباب ، منتعشة مبتهجة ، فدخلت الكآبة من النافذة مرة أخرى ، واستقرت في أعماق جمعة .

أطل كثير الغلبة برأسه وراح يتلفت بحذر . سأله عن البنت . قال جمعة بامتعاض :

ـ أي بنت ؟

كاد كثير الغلبة يشق قميصه ويلطم خده . قال :

ـ البنت التي كانت هنا . هل تركتها تذهب بهذه السهولة ؟

احتقن وجه جمعة وقال :

ـ هذه سيدة . سيدة في محنة . إنها بحاجة الى فارس يخلصها من كآبتها .

أطلق كثـير الغلبة ضحكـة اقرب الى البكـاء . وقال ان القـدر يعـطي العجوة للذي لا يملك أسناناً . ثم علق :

ـ فـارس كئيب بحصان خشبي ، يـرغب في حمايـة سيدة كئيبـة لا ترغب في حمايته . . وانما في . .

قاطعه جمعة زاجراً :

ـ الزم حدك . هذا عيب . عقلك وسخ .

ضحك كثير الغلبة في عبه ، وهو يتناول كوبي الشاي اللذين لم يلمسهما الفارس الكئيب ولا الضحية الكئيبة . فاحتساهما برشفتين !

* * *

مشهد يصور العلاقة بين
جمعة ووداد : غرام وانتقام

يـا ستي ، يا اختي ، أنـا لست كامـل الاوصاف . قـال جمعة لـوداد . وأضاف وهو يملأ رئتيه بالهواء كي تمتلىء أعصابه بالصبر أنه ليس ملاكاً ولا بطلاً ولا حصناً منيعاً ولا استثناء . أنا مجرد بشر ، قال وهو يتصنع ابتسامة رائقة ، لي عيوبي وسلبياتي الخفية ، مثل كل الناس .

لكن وداد تصر عـلى أنـه عمــلاق في زمن الأقـزام ، ونبيــل في عصر النـذالة ، وفـارس جليل في وقت تـرجل فيـه جميع الـرجال (الـذكـور) عن صهواتهم ، ومشوا على أقدامهم !

وجمعة يجلس وراء مكتبه يقضم أظافره تارة ، ويقضم قلم الرصاص تارة اخرى ، وقد لاذ بالصمت مستيئساً . بغتة فزت وداد عن مقعدها ، وراحت تضرب في ارجاء غرفة المكتب جيئة وذهاباً بخطوات عصبية متلاحقـة . شعر جمعة برعدة شديدة تتمشى في أعضائه ، وخالجه حدس غامض بأن هذه المرأة ذات العينين الوامضتين التي تشبه لبؤة . . على وشك ان تتحـول الى عاصفـة هوجاء ، لا يعرف مدى عنفها وقتها . إلا الله سبحانه وتعالى .

بغتـة توقفت في مكـانها ، وكان دمهـا يغلي في شـرايينها غليـان المـاء في مرجله . كورت يدها ، ثم لوحت قبضتها في الفضاء وانهالت بها بقـوة جبارة على طاولة جمعة ، فانتثرت بقايا غبار منسي وجللت وجهه . زأرت باحتجاج :

ـ وتقول لي يا أختي ؟ كيف تقول لي يا أختي ؟ أنا لست أختك . أنت تخدع

نفسك . أنت كامل التواضع . لا تريد ان تعترف بطبيعة العلاقة بيننا . . لأنك . . لأنك . . لأنك خجول . لماذا تفرط في التدخين . . هيه ؟ ثم اتخذ صوتها إيقاعاً حنوناً أمومياً فهمست :

- وهذا الخجل والصمت على الرغم من المعاناة الداخلية . . صفة من صفات الفرسان النبلاء . . انت تفرط في التدخين والتواضع !

وقالت وهي تستخرج منديلاً من جيب سترتها وتمسح دموعها ، ان جمعة ولد في الزمان الغلط والمكان الغلط . ووصفته بأنه صعلوك نبيل . ولم يكن جمعة على يقين من أنها تمدحه او تشتمه ، لكنه كان على يقين من أنه يمقت مشهد المرأة وهي تبكي .

قالت وهي تدس المنديل في جيبها أن دموعها دموع فرح إنسان ضائع وجد مخلصه . أنت المخلص قالت . ولاحظ جمعة في غمرة ذهوله الذي جعله يقبع في مكانه جامداً لا يقول ولا يومىء ، ان دموع وداد حولت كحل عينيها الى سائل لزج . وان هذا السائل سال ثم توقف عند ذقنها مشكلاً شامة سوداء باهتة .

إنها تعيش مأساة . قال في نفسه . لكنه لا يعرف طبيعة مأساتها . أي ورطة هذه ؟ سأل جمعة نفسه سراً دون ان ينطق . فسألته علانية بنطق سليم بليغ واضح بين :

- ألا تقوم مناعتك إلا بالصمت ؟ أنت حصن منيع ، وجدران قلعتك الداخلية العصية وأسوارها التي تتأبى على الاقتحام مجبولة بصمتك . لكنه صمت يواري خلفه حزناً عميقاً . أسى ومرارة تعيشهما وحيداً ولا تبوح بهما لأحد . لأنك عصي الدمع شيمتك الصبر !

أخرجت وداد منديلها مرة أخرى وتمخطت ثم مسحت دمعة انسكبت من جديد . قالت وهي تعود الى مجلسها أن جمعة يخاف الحب وممارسته لأنه زاهد . وهي تحترم زهده . وأكدت له انها لا تتطلع الى تواصل جسدي ، وانما الى علاقة روحية . قالت وهي تبدد دخان سيجارة جمعة بيدها :

ـ أريدك ملاذي . . فقط . هل هذا طلب تعجيزي من إمرأة تعاني من القلق والأرق ، وتناشد جبلاً من الصخر والصوان ، لا تهز ريح العالم الخارجي سكينته السحيقة الداخلية ؟

صمتت بعد ان اطلقت بكلماتها هذه اطلاق الرشاش السريع . . لرصاصاته . قامت واتجهت الى النافذة بخطى نائم يسير في منامه . فتحت النافذة . والتفتت الى جمعة الذي اختطف الذهول ملامحه وصوته وقالت انه يفرط في التدخين . قالت باستياء :

ـ أنت مدخنة متحركة . لا تقل لي « اختي » بعد اليوم . . أرجوك . ينبغي ان تتوقف عن التدخين . ثم تناولت حقيبتها وغادرت الغرفة دون كلمة وداع .

أخذ جمعة رأسه بين يديه . وقال بصوت مرتفع كأنه يخاطب الكتب او واضعيها من طاليس الى تيسير سبول مروراً بجيمس جويس :

ـ هذه المرأة تخلط بيني وبين أبطال قصصي العمالقة الثائرين الذين لا تلين لهم قناة ، بسبب من مناعتهم الروحية ، وحصانتهم الجوانية . إنها تعتقد انني ولي متصوف من أولياء الله الصالحين .

في تلك اللحظة أطل « كثير الغلبة » بوجهه البريء من النافذة وسأل جمعة :

ـ لماذا تكلم نفسك ؟

اقشعر بدن جمعة ، وفقد أعصابه بعد أن فقد قلمه الخاص الذي لا يتقن الكتابة إلا به ، فصاح :

ـ أنا لست متصوفاً ، لست منيعاً من الداخل . . يا حمار (!) إغرب عن وجهي .

وأغرب كثير الغلبة عن النافذة ، وكانت الشمس تتهيأ للميل نحو الغروب والخروج بشعشعتها من النافذة ، لكن كثير الغلبة دخل من الباب مضرجاً بالفضول . فإذا جمعة مظلم الوجه .

* * *

كيف تصدعت العلاقة بين وداد وجمعة ؟

نشر جمعة خاطرة أشار فيها الى انه يكتب رواية بعنوان : « مغامرات النعمان في شوارع عمان » . وتحدث عن شخصية النعمان بلهجة ساخرة ، فقال انه بعد كل تجواله وترحاله عاد الى اليابسة ، ليستقر ويتقاعد . فإذا بطباع المجازفة والمخاطرة وحب المغامرة والميل الى الاستطلاع تتبدد ، لتحل محلها خصال الكسل والخوف . نعم الخوف . الخوف من الموت ، من العتمة ، من الخروج الى الشارع ، من الاختلاط بالناس . . . من الحياة كلها . وانه بدأ يحس غموضاً في بعض الأشياء ، واختلاطاً لبعض الأمر ، وقصوراً عن تفسير ما يقع حوله من خطوب .

ما إن قرأت وداد الخاطرة حتى فقدت صوابها وضلَّ عقلها ، فاستقلت سيارتها وطارت الى شقة جمعة . ضغطت على البوق مرتين ونصف المرة . فأطل من الشباك . أشارت له ان ينزل .

دخل جمعة في ملابسه بسرعة ، ويد وداد تضغط على بوق السيارة بعصبية ، خفق قلبه خفقاً عنيفاً ، فلم يسرح شعره ، ولم يغسل أسنانه ولم يحدق الى وجهه في المرآة . غادر العمارة كالومض ، ثم دخل الى السيارة بهدوء . فطارت السيارة بعصبية . وبدأت وداد :

« إذن أنت تخاف من الحياة . من الليل . من الناس . وتقول انك تملك حصانة داخلية . لماذا كذبت عليَّ ؟ ألا تكفيني خيبات حياتي . وأنا التي

حسبتك صخرة عصية على الرعشة . وملاذاً يتأبّى على التداعي . وفارساً يخافه العالم ولا يخيفه شيء !

غمغم جمعة :

ـ لكن النعمان شخصية روائية لم تكتمل . انه ليس أنا . أنا . . .

داست وداد على الكابح بقوة مفاجئة ، فـاذا بالسيـارة المنطلقـة بجنون زوبعة تطلق أنيناً موجعـاً شق الفضاء بحـدته . انـزلقت السيارة الى أمـام ثم توقفت ، فانزلق جمعة وقد اخذته المفاجأة ، وارتطم رأسه بالزجاج الامامي . صرخت وداد صرخة ، وقف لها قلب جمعة فما يخفق ،. ووجمت لها نفسه فـما تستطيع روية أو تفكيراً :

ـ كاذب . مزور .

كانت مروعة مأخوذة ، مثل فتاة رومانسية اغتصبها حبيبها الرقيق عنوة بطريقة وحشية ، فذهبت بها الصدمة كل مذهب . ترجلت وداد من سيارتها ، واندفعت تركض في الشارع كهاربـة من خطر قـاتل . أوقفت سيـارة أجرة ، واختفت ، تاركة جمعة منكمشاً في سيارتها ، تـاركة سيـارتها في وسط الشـارع العام . تاركة توازنها العام في حضن اللحظة التي سبقت قراءة الخاطرة .

ترك جمعة السيارة . وحمل ذهوله ونزل منها . ثم وقف ووضع يديه على خاصرته لا يتبين ماذا يفعل . رفع رأسه نحو السماء وصرخ صرخة خرجت من اعماقه المضطربة :

ـ لمـاذا تخصني دون كل النـاس بهذه الأحـداث التي لا أستطيـع ان أتبين لهـا تفسيراً ؟

شخصت عيون المارة اليه . وتوقف بعضهم يتفرج بدافع من فضول . فعاد جمعة الى سيارة وداد ، وانطلق الى بيته ، تقوده السيارة ولا يقودها . وكان يردد طوال الطريق :

ـ انها مجنونة . مجنونة .

دلف الى شقته منفوش الشعر جاحظ العينين ، يرتعش مثل كلب سممه موظف من موظفي أمانة العاصمة . تقدم من غرفة نومه ، تداعى على فراشه . ثم أخذته سنة فنام ، دون أن يقفل الباب الخارجي للشقة . لكن احداً لم يدخل من الباب سوى الهواء . . . ثم « كثير الغلبة » .

المشهد : أخيراً . . وبعد جهد جهيد عثر جمعة على عمل جديد جمعة مدقق حسابات ويفزع لوداد !

وداد تنتحب وتبكي . جورب جمعة القفاري ممزق من الامام . اصبع قدمه تطل من الجورب لكن الحذاء يخفي الاصبع العاري . قال جمعة انه متحرر من عقد المجاملة والنفاق ، لأنه زاهد في كل شيء . فهو لا يتطلع الى منصب ولا جاه . والناس لا يتوقعون منه مجاملة أو لياقة . . لأنه نكرة .

ووداد تنتحب وتبكي ولا تمسح عينيها أعربت عن يقينها بأنه ليس نكرة ، وانه فارس ولو بعد ان ولى عهد الفرسان ، وقال لها جمعة أن بوسعها ان تبكي وتفضفض وتنفس عن كل المرارة التي تنهش اعماقها ، على الرغم من انها موجودة في مكتبه الصغير في مبنى المؤسسة . فتحت وداد حقيبتها واستخرجت منديلاً وتمخطت ثم مسحت عينيها . وفتح عامل « البوفيه » الباب وهو يحمل صينية القهوة . وكانت عينا وداد في المنديل ، وعينا جمعة بالارض ، وعينا النادل على المرأة التي تبكي في الشركة . قال جمعة انه ينصحها بالعويل والصراخ والنشيج بصوت مرتفع ، لأن النحيب بهذه الطريقة يساعد النفس على الفضفضة ، ويحررها من الاكتئاب . لكن وداد لم تصرخ . ظلت تنتحب بصوت خافت خفيض . والنادل ينقل نظراته المستريبة الذاهلة بين جمعة ووداد . وقال النادل ان الموظفين سيظنون الظنون بجمعة اذا انفجرت وداد بالبكاء . التفت جمعة ورفع نظراته دون رأسه نحو النادل ، ثم قال :

- طظ . لتذهب بهم ظنونهم الى جهنم الحمراء . اقلب وجهك . ألا تعرف ما هو شعاري في هذه الحياة ؟

هز النادل رأسه بالايجاب ، وردد شعار جمعة المعروف : « إنسـوني » . اعتبروني مجرد طيف مر في منامكم . لكن النادل يعرف ان جمعة يكذب ، وان شعاره قد يكون مزيفاً ، وما رفعه إلا لأنه يدرك ان لا فرصة له في هذه الحياة . تماماً مثل قصة الثعلب الذي حكم على العنب بأنه حصرم ، لمجرد أنه عجز عن الوصول اليه .

اختفى النادل فظهر صوت وداد ، قالت أنها كانت تعتقد ان جمعة يتخذ من « طظ » او « يصطفلوا » او « انسوني » فلسفة ، لأنه خاض في بحار العالم ، وضرب في أرض الله الواسعة ، مثل السندباد ، ثم عاد زاهداً في كل شيء . لكنها اكتشفت انه يكذب . قالت لنفسهـا تصوري انـه نصحني باللجـوء الى التصوف حين قابلته وحكيت له عن اعجابي بقصصه ، وقصصت عليه أبشع القصص عن علاقتي بزوجي .

ولم يقل جمعة :

- نعم . نعم . بوسعي ان أتصور .

وكان النهار يبدو من النافذة مشرقاً . فقال لها :

- انظري من النافذة .

وأكد لها أن النهار مشرق والحياة حلوة ، ونَصَحَها بأن لا تيأس . شبكت وداد ساقاً على ساق وأشارت بيدها الى النافذة قائلة بصوت متهدج :

- إذا رنوت من النافذة . . فإنك سترى سيارتي ال « بي . ام . دبليو » . لقد اشتراها لي زوجي ليسدد فاتورة حساب معه .

سألها باهتمام شديد ان كانت تتعامل مع زوجها بالفواتير . وقال إنّه لا يفهم . فشرحت له المسألة ، برغم أنها كانت قـد حكت له قصـة حياتهـا من قبل :

- يضربني ضرباً مبرحاً ثم يضع في رقم حسابي البنكي مبلغاً وقدره .

قطب جمعة تقطيباً يشي بأنه يقلّب المسألة على وجوهها باهتمـام بالـغ .

أخذ رأسه بين يديه . ثم حرره وهتف :

- تعنين انه يضع في رصيدك مبلغاً مقابل رشوتك ؟ أي كي تواصلي الحياة معه ؟ وتتجملين بالصبر والصمت حين يضربك ؟

قالت : نعم . بالضبط .

وغمرت مشاعر الاعتزاز نفس جمعة وقال في نفسه انه « يلقط أعقد المسائل على الطاير » . وقال بصوت مسموع انه سيضع حداً لتصرفات زوجها . وسألها :

- هل يظن انه اشتراك بفلوسه ؟

فتحت وداد حقيبتها ، ففتح جمعة فاه وقال :

- سأوقفه عند حده . صدقيني . أنت مثل أختي عائشة . ألم يعد هناك رجال في البلد ؟

وتناولت وداد منديلها مرة اخرى . ودفنت رأسها فيه ، ثم راحت تنشج وتقول بين الزفير الصعب والشهيق العسير ، أن المشكلة لا تكمن في زوجها ، وانما في اعتقاد جمعة أنها اخته . فز جمعة عن مقعده ، وفتح النافذة ، وأغلق فمه ، فأغلقت وداد حقيبتها اليدوية ، وقال جمعة ان الهواء المنعش سوف يفيدها . ملأت رئتيها بالهواء ، وقالت بصوت خفيض أن الهواء منعش ، وان الهواء المنعش منعش .

وفكر جمعة أن هذه الملاحظة تتضمن حكمة ذكية . وأن هذه السيدة ضحية تخلف الرجل الشرقي . التفت نحوها ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بخطى عصبية متلاحقة . وكان يدس يديه في جيبي بنطاله ويخفي اصبع قدمه الهارب من الجورب في حذائه. تقدم من وداد ورمقها بنظرة ثابتة وسأل :

- هل أساء زوجك معك الأدب ؟ هل أسأت أنا اليك لا سمح الله ؟

حررت وجهها من المنديل ، وحرر جمعة يديه من جيبيه ، وقالت ان

جمعة الصخرة الثابتة ، القلعة الحصينة ، الحصن المنيع من الداخل . . كذاب . بدليل انها تكأت عليه بكل ثقلها ، فانكسر ، وهرب . صرت تتجنبني قالت . ثم انفجرت بالبكاء والعويل ، فهرع الموظفون وفتحوا الباب ورمقوا جمعة بنظرات كاوية . ففتح جمعة فمه دهشة ورمقهم بنظرة باردة . وسرت همهمات بين الموظفين .

وما هي إلا لحظات حتى أطل المدير برأسه وقال :

ـ سيد جمعة . . ماذا فعلت بهذه السيدة ؟ ألا تعلم أنها وزوجها من أفضل زبائننا ؟

ثم صرف المدير الموظفين ، وقال لجمعة ما معناه أنه يرغب في رؤية عرض أكتافه .

وظن جمعة أن مدير مركز الخياطة يرمي الى انه يرغب في أن يفصل له بذلة . فقال وقد تضرجت وجنتاه ارتباكاً وامتناناً :

ـ شكراً أستاذ . أنا مجرد مدقق حسابات ، ولست سفيراً ، ولا احتاج لبذلة .

في تلك اللحظة طار صواب صاحب محل الخياطة ، وطارت وداد الى الخارج وهي تخفي وجهها بمنديلها الممزق ، وطارت الوظيفة .

عاد جمعة الى بيت أخته عائشة فوجدها بانتظاره . تحلق حوله الأولاد وصرخ أصغرهم ملاحظاً ان اصبعاً من أصابع قدم خاله قد فر من سجن الجورب . فادلهم وجه جمعة ، ولم يكمل خلع حذائه .

* * *

المشهد الذي يدرك جمعة فيه ان هذا العالم ليس لنا !

بالمناسبة ، كان نائب المدير العام زير نساء . مرة قال لجمعة :

- تعال يا شاب .

وأدرك جمعة ان نائب المدير العام لا يعرف اسمه ، ولا ينتبه الى وجوده . سأله ، إذا ما كان يسكن وحيداً ، فأومأ جمعة برأسه بالايجاب . نـائب المديـر العام قال ان الشركة بصدد شراء بعض الشقق ، وانه يرغب في رؤية شقته . انفتح الباب فدخل دخان سيجار فاخر الى الشقة ، ثم تبع الدخان عطر حبس أنفاس جمعة ، ثم دلف نائب المدير العام ترافقه المرأة الباذخة صاحبة العطر ، قدمها الى جمعة على أنها زوجتـه . ولكن لماذا تأتي زوجته لتتفقد شقة صعلوك مثلي ، ثم تتخـذ قـراراً بشـراء الشقــة أو لا ، علماً بـأن الشـركـة هي التي ستشتري . هكذا تساءل جمعة .

هنا ، لعب الفأر في عب جمعة . وبدأ الفـأر يحفر أنفـاقاً من الشـك في نفسه ، ويقرض ثقته بنفسه وبالناس والعالم ، حين قال نائب المدير العام بعد ان تجول في الشقة :

- لا بأس ، لا بأس .

ثم سأله ان كان يوجد سوبر ماركت في هذا الشارع . فـرك جمعة يـديه بارتباك وقال :

- نعم .

ثم اضاف وهو يواري يديه وراء ظهره ان السوبر ماركت قريب . أظلم وجه نائب المدير ، ورمقته امرأة الباذخة بنظرة مسترية . قال نائب المدير بلهجة آمرة ذات مغزى :

ـ اذهب الى أبعد سوبر ماركت في عمان . واشتر زجاجة ويسكي .

في تلك اللحظة فطن جمعة الى ما يدور بخلد نائب المدير . اذ لماذا يرسله الى أبعد سوبر ماركت في عمان ، وجمعة يؤكد له وجود سوبر ماركت قريب ؟ وقرر جمعة ان هذا الرجل يرغب في التغرير بهذه المرأة المسكينة والايقاع بها في حبائله وشراكه . وخمن أن غيابه عن الشقة سوف يعني ان جمعة صاحب النخوة والشهامة متورط في جريمة الايقاع بامرأة لا يعرف كيف ارتضت لنفسها ان تأتي مع رجل كهذا الى الشقة . لعله كذب عليها كذبة تنطلي على الثعلب نفسه . كيف استدرجها هذا الملعون ؟

وقف جمعة القفاري وقفة عز وقال بمكر ودهاء مدروسين :

ـ عفواً ، لا يمكن ان أترك ضيوفي وحدهم في الشقة . أنا رجل مضياف . وعندي زجاجة ويسكي . . وهي على حسابك .

انتفض نائب المدير العام وسأله بوجه مربد :

ـ ما اسمك يا شاب ؟

هتف جمعة بكل ثقة واعتزاز :

ـ جمعة القفاري . .

أظلم وجه نائب المدير وغمغم :

ـ الشقة لم تعجبنا يا جمعة .

وأشار عليه ان يبقي مسألة هذه الزيارة سراً بينهما . وبما ان جمعة أشبه ما يكون بوكالة « رويتر » ، فقد طار من فوره الى بيت كثير الغلبة وأذاع الخبر . وقال ان نائب المدير العام زير نساء ، وأنه انقذ شرف السيدة الرفيع من الأذى .

أطلق كثير الغلبة ضحكة مجلجلة حتى انه انقلب على ظهره وقال :

ـ هو زير نساء ، وأنا زير خمر ، وأنت الزير سالم . . . قال انقذ شرفها الرفيع من الأذى ، قال ، رح يا شيخ طمّ حالك .

وأنبأه وهو يصب كأساً من العرق انه كان من المفروض ان يساوم نائب المدير على هذه المسألة . ان يعقد صفقة أن يقبض ثمن الفرصة الضائعة . ثم تنهد وقال :

ـ السماء تعطي العجوة لمن ليس له اسنان !

انتفض القفاري ، وغادر بيت كثير الغلبة مغضباً ، وراح يتسكع في الشوارع المقفرة ذات البرد المظلم . وكان يخبط أقدامه بالارض خبطاً ، كأنه يرغب في زلزلة الكرة الأرضية .

حين وصل الى متنزّه جبل اللويبدة صرخ :

ـ لا أفهم هذا العالم !

* * *

مشادة بين وداد وجمعة

حدث جمعة كثير الغلبة عن مشروعه الروائي الذي لم يكتبه فقال وهو يشرح بيديه ولسانه :

«نانسي تقرأ بنهم عن تاريخ الاردن المعاصر، وتشكو من ان المصادر عزيزة نادرة . ونعمان العموني يقرأ « محمد عابد الجابري » ويقول ان محمد عابد الجابري يؤسس للنظرية التي سيبلورها هو . ونانسي تأخذ وجهها بين يديها مستيئسة ترجم النعمان بالتهم ، وهو يسترق النظر الى شاشة التلفزيون ويشاهد شباب الارض المحتلة يرجمون الجنود الاسرائيليين بالحجارة، فيشبك ساقاً بساق . والسماء ترجم الارض بمطر غزير . لأن النعمان عاجز . هل تفهمني ؟

تقول نانسي ان نعمان يعرف عن الحرب الأهلية الامريكية أكثر مما يعرف عن « هيّة الكرك » . ويعرف عن تروتسكي أضعاف ما يعرفه عن حسين الطراونة أو عودة أبو تاية . ويعرف عن عائلة«البوربون» أكثر مما يعرف عن بني صخر . وانها قرأت عن تاريخ الاردن والعشائر ، أما النعمان فإنه لا يقرأ سوى دليل الهاتف . وعدها النعمان متأففاً انه سيهبط الى السوق ليشتري بعض الكتب من مكتبة الشروق « وكشك أبو علي » . تلحق به نانسي . « إنها تريد ان تحرجني أمام الجماهير » ، يفكّر النعمان ، « شقراء ذات عينين زرقاوين وبنطال جينز ضيق وسط البلد والزحام ! » ثم هتف باعتزاز قائلاً انه رجل فعل لا رجل علم .

حين يصلان الى شارع الشريعة يعنُّ للنعمان ان ينجو بجلده من الحرج المنتظر . يمسح العرق الذي امتزج مع قطرات المطر . يقول انه عرق القلق من مواجهة الجمهور برفقة امرأة مشعة ذهبية مشتهاة . ينقلب على عقبيه يقول انه غير رأيه ، وانه سيمضي الى مكتبة شومان في الشميساني .

بوسعي ان اتصور نانسي وهي تضرب قدمها بالارض غضباً فيتناثر وحل ورذاذ ويلطخ بنطال النعمان ، تقول انها ستهبط الى السوق وحدها . وتكاد دموعها تندلع ، والمطر يتساقط خفيفاً ، وقلب النعمان يهوي قلقاً . فيما يمرّ مراهق بسيارته كالومض ويطلق صفيراً ارتفع عالياً في الفضاء اجلالاً لجمال نانسي » . كثير الغلبة ضرب بكفه على جبينه وسأل جمعة متى سيبدأ الحياة الحقيقية ويتوقف عن لعب دور أبطال وشخصيات وهميّة .

في مكتبة شومان التقى جمعة وداد . قالت وداد ان جمعة مزور . وانه ليس الصخرة الصلبة التي كانت تتخيّلها . لقد انهار تحت وطأة معاناتها . « لم تعد تحتمل تقلب أمزجتي » ، قالت . واتهمته بأنه في حقيقة الأمر تَنْبل استقال من الحياة ، وهو يزعم أنه زاهد فيها . كانت تقرأ « الفتوحات المكية » لابن عربي ولا تفهم . رفعت رأسها فبدا وجهها مرهقاً . دعته الى تناول فنجان من القهوة في « الهورس شو » . تردد جمعة وقال لها انه بريء وانها مجنونة وظالمة . قال انه قرأ عن « هيّة الكرك » وليس صحيحاً انه يعرف عن الحرب الأهلية الامريكية ، اكثر مما يعرف عن « هية الكرك » ضد العثمانيين . وشكا من ندرة المصادر . سألته وداد : إن كان زار قلعة الكرك . نترجمعة رأسه نافياً بحركة توحي بالاحساس بالذنب . لكنه استدرك قائلاً أنها تخلط بينه وبين نعمان العموني . والفرق شاسع بينهما .

وسألته وداد عن هذا الفرق الشاسع . فسألها ان كانت تفضل القهوة التركية أم القهوة الامريكية .

هبطا الى الشارع ، ودلفا الى « الهورس شو » وطلب فنجان قهوة امريكية ، وطلبت وداد فنجان قهوة تركية .

جلست وداد صامتة متجهمة لا تنبس. وجمعة قال ان نعمان العموني «الشخصية الروائية» دار حول العالم، ثم عاد وقد هدّه التعب والرهق. طرق باب التصوف بحثاً عن السكينة الداخلية التي لم يجدها في واشنطن ولا نيويورك ولا باريس ولا لندن ولا بيروت ولا في دول الخليج. لكن نعمان العموني كان مبرمجاً حين سلك طريق التصوف. كان على الشيخ أن يفكفكه قطعة قطعة، ثم يعيد تركيبه من جديد حتى يكمل المشوار. لكن نعمان العموني المبرمج استعصى على التحليل ثم التركيب من جديد. وخرج من التجربة، وهو يغبط من انسجم معها، وسلك في دربها.

هتفت وداد كأنما انفجرت دفعة واحدة:

- وانت؟

نقر جمعة بأصابعه على الطاولة نقرات عصبية سريعة ثم قال بعد تردد:

- أنا أسمع عن الصوفية والتصوف.

اهتز فنجان القهوة في يد وداد، ثم ارتعشت يدها وذراعها المتكئة على المنضدة، فارتجفت المنضدة وما عليها. هتفت باستنكار:

- نعمان العموني حاول.. على الأقل. خاض التجربة. أنت تكتفي بالتفرج والمشاهدة والمراقبة والتأمل.

وقالت وداد بانفعال:

- النعمان ليس مدعياً.. على الأقل.

ولم تكن وداد مغرمة بالدفاع عن النعمان، لكنها تستهدف النيل من جمعة ورميه بأنه مزور. مطت شفتيها بامتعاض، وقالت وهي تتكلف ضحكة رنت مرارتها في الفضاء فوق القهوة المرة:

- جمعة، أنت المدعي. أنت تعيش الوهم لا الحياة. تسمع عن الحياة وتقرأ أحياناً، ولكنك لا تعيشها ولا تبصرها. أما النعمان فقد حاول على الأقل.

طرق جمعة الارض بقدمه طرقات متلاحقة سريعة عصبية ، وقال :

ـ هل تستبدلين ذاك بهذا ؟

أشار بيده الى جهة غامضة يُفترض أنها تمثل نعمان العموني ، ثمّ أشار الى صدره .

رفعت وداد يديها الى شعرها، فخطر لجمعة أنها ستشده غيظاً، لكنها رفعت خصلات شعرها عن جبينها ونفخت كالمستسلمة وقالت :

ـ يبدو أن كليكما مزور . أنت تخلط بين شخصك الكريم وبطل روايتك التي لم تكتبها بعد . ثم تضاحكت وقالت :

« شهاب الدين أسوأ من أخيه » .

قال جمعة باحتجاج :

ـ لا تزوري المثل . إذا كنت لا تملكين شجاعة ترداده كما هو فلا ترددیه .

فزت وداد واقفة وقالت ساخرة :

ـ انظر من يحكي عن الشجاعة !

لحق بها الهواء تاركاً جمعة يختنق ، وجمعة يراقبها تهرب والهواء يتبعها ويعبث بشعرها وقال في نفسه وهو يلعنها في سره :

ـ إنهما يُقيمان حلفاً موحداً ضدي وضد نعمان . كأن تواطؤ الحياة ليس كافياً .

غادر المقهى ، فصفعه مطر تساقط بغتة . واختفت وداد وهي تقول لنفسها : « بوسع النعمان أن يقوم بمغامرات بالنيابة عنك لكنه لا يستطيع ان يعيش بالنيابة عنك . . أيها الأحمق » .

وداد تشكو جمعة لعائشة

قالت وداد ان الرجل مزيف وخدعها . وان نفسه خضراء . اقتربت منه لتساعده في أن يتربع على سرير المرض ، فإذا بها تكتشف ان عينه بيضاء . وأن يده طويلة . لا . . لم يمد يده الى محفظتها ، لكنه مدها الى فخذها . وحانت منها التفاتة فإذا وجهه بارد . لا بسبب من مرض ، وإنما لأن نفسه خضراء . وجمعة يزعم انه لا يعرف سوى العشق الالهي ، وانه بريء . وهو طقيق حنك . حنكه يطق طوال الوقت والحمى تنهك جسده وترفع حرارته . يخلط حسين الطراونة بعودة أبو تايه وهزاع المجالي . قالت وداد ان جمعة ابن حرام ولعيب ثلاث ورقات . ونفسه خضراء . والورقات ليست خضراء .

كان يزعم أنه فارس شهم نبيل مثل دون كيشوت أو عون الكياشطة كما يسميه .

وعائشة لا تصدق وداد . عائشة تعرف أنها تكذب . ووداد تردد ان الحياة وهم . الحياة سراب ، والحقيقة الوحيدة في الحياة هي الموت ! و« يد جمعة طويلة » ، تقول ، وهي تقصد ذراعه .

وعائشة تواسيها تقول ان كل الرجال « ملعّبون » يحترفون الكذب . فتقول وداد تصوري يا عائشة انني رأيته يسكر . وفي ذلك اليوم الماطر الحزين قال لي :

ـ التصوف مفتاح الخلاص .

وداد تكذب والناس يصدقونها . وجمعة يكذب ولا أحد يصدقه . لأن وداد تبكي وتذرف الدموع حين تكذب ، وتصدق كذبتها . أما جمعة فهو يكذب بلا دموع ، فلا يصدقه احد .

* * *

وفكر جمعة بالمشهد الختامي لروايته ، مع انه لم يكتب المشهد الأول بعد :

« نانسي تأمر نعمان أن يحجز لها مقعداً على أول طائرة مغادرة الى نيويورك . تقول انه لا يعرف الصحراء ، ولا يشبه انطوني كوين ولا لورنس العرب ، مع انها كانت تظن أنه يشبهها . ونعمان يقول وهو يقف الى جانبها في الشارع العام بانتظار السرفيس ان الحياة نكتة .

* * *

جمعة موظفاً

ما ان اتخذ المدير العام قراراً بفصل « كثير الغلبـة » من المؤسسة ، حتى هاج ساكن جمعة القفاري ، وثارت ثائرته ، فقدم استقالته من العمل تضـامناً مع الغلباوي وأكد لزملائه الذين توسلوا اليه ان يعدل عن قراره ، ويصلي على النبي ، ان قراره نهائي ، حاسم ، غير قابل للنقاش والمداولة .

وداد انفجرت في وجهه وقد صدمها الخبر . قالت ان جمعة القفاري ليس سوى نسخة اخرى عن دون كيشوت . قال جمعة القفاري وقد اتسعت عينـاه دهشة :

- هل تعلمين ان اختي عائشة تقول دائماً انني عون كيشوط . وانني انتمي الى سلالة عون كيشوط الـذي حولـه الاستعمار من فـارس عربي اسمـه عون كيشوط او عون كيأشطة ، الى دون كيشوت .

وضربت وداد كفاً بكف . وقالت ان الغلباوي سوف يعود الى عمله ، بينما يظل جمعة بلا عمل . وعائشـة قالت نفس الكـلام ، واضافت ان جمعـة القفاري لم يعثر على هذه الوظيفة الجديدة إلا بعد جهد جهيد ، وتدخـل الف وساطة ووساطة . وان الغلباوي سيتدبر امره ، ويعود الى موقعه في المؤسسة ، بينـما سيبقى جمعة متسكعـاً ، وسيعود الى الشـوارع والبـطالـة مـرة اخـرى . وانحـدرت دمعة وامضـة من عينيها القـاسيتين . هـز جمعـة منكبيـه ، وقلب شفتيه . وقال ينبغي ان يعرف المدير العام ان الناس ما زالوا يتحلون بالنخوة

والشهامة . وان الغلباوي صديقه ، وهو الذي دبر له هذه الوظيفة الجديدة . وانه لن يتخلى عنه في اوقات المحن والشدة .

ثم قال وهو يغادر بيت عائشة متجهاً الى الشارع :

- حتى لا يقول قائل . . . اذا دق المدير العام بي مستقبلاً : أكلت يوم اكل الثور الأبيض .

كان جمعة على ثقة مطلقة بأن بقية الموظفين سوف يحذون حذوه ، وكان متيقناً يقيناً لا يداخله شك بأنهم سيتقدمون باستقالاتهم الجماعية احتجاجاً ، وان هذا الموقف طبيعي لا بطولة فيه وانما هو مجرد واجب ينبغي على أصحاب النخوة ان يتخذوه ضد فصل الغلباوي بهذه الطريقة . (وصفها بأنها تعسفية) . حتى يعرف المدير العام واشكاله ان الدنيا ما زالت بخير . وان الناس للناس . كل الناس خير وبركة . وان هذا البلد يزدحم بالرجال الرجال الذين لا يرتضون الضيم . ورأى ان ميزة الأردني تكمن في انه « اخو صاحبه » .

في اليوم التالي ، عاد الغلباوي الى عمله ، بعد ان عاد المدير العام عن قراره ، وعاد جمعة الى الشوارع والبطالة ، بعد ان قبل المدير العام استقالته .

* * *

ما الذي حصل بالضبط ؟
لماذا فصلوا الغلباوي من المؤسسة

لفتت كتابات الغلباوي في الصحف المحلية انتباه السيد محسن المحسن المدير العام لشركة الاستثمارات المالية والعقارية . فطرب لها طرباً هم معه ان ينطح برأسه الجدار . والسيد محسن المحسن يستسيغ الأدب ، وكانت امه تقول أنه ظل يقرقع رأسها وهو مراهق ، ويقول لها أنه سيصبح شاعراً مثل « عرار » . لكنه ، تضيف الأم ، ولحسن الحظ ، لم ينل حظه من العلم . فترك المدرسة بعد أن حصل على الشهادة الاعدادية ، ومضى ليعمل في احدى الدول العربية النفطية . وهناك ابتسم له الحظ . المسألة مسألة حظ تقول أمه بثقة .

أما اخته فتثني على قول أمها وتقول انه لو واصل دراسته الثانوية ، لتولع بالعروض ، وأتقن نظم الشعر . وتضيف اخته وهي تتحدث الى فاضل الغلباوي الذي كلفه محسن المحسن بكتابة كتاب عن سيرة حياته بعنوان : « كفاحي » ، ان محسن المحسن لا يعرف العروض . . فكيف يكتب الشعر ؛ ولو تعرف الى العروض ، وصار شاعراً ، لمتنا جميعاً من الجوع . وهاجمت اخته العروض قائلة ان بحور الشعر تغرق الانسان في الخيال ، وتأخذه بعيداً عن شواطىء الواقع . وان الشعر لا يصلح ، برأيها إلا للبنات ، ولهذا السبب درست الأدب العربي في الجامعة .

ثم لوحت يدها في الهواء لتشدد على كلمة الجامعة ، فأطلقت الاساور الذهبية التي تحيط بمعصمها رنيناً يبعث على الطرب .

السيد محسن المحسن استقبل الغلباوي في مكتبه الفخم ذات ليلة .

كانت المصابيح الجانبية الباذخة تضيء مكتبه ، وعيناه ترسلان نظرة قاتمة . شبك محسن المحسن ساقاً بساق وقال بعينين نصف مغمضتين ان الأدب والثقافة والفكر مثل المرأة . المرأة ينبغي ان تتحلى بأثمن حُليّها ، وتتزيّا بأفخر ثيابها ، وتخضب شعرها بأطيب العطور . ثم نهض ودار حول مكتبه . لم يكن سميناً وأصلع ويدخن السيجار ، كما يحلو لبعض هواة الكتابة تصوير الأغنياء ، انطلاقاً من موقع الحقد الطبقي . لا . أبداً . كان يشبه الانسان العادي . ليس قصيراً بحيث انه لا يكاد يرتفع عن الارض ، ولا طويلاً بحيث يشمخ رأسه ليطاول سقف الغرفة . لكنه كان بلا كرش . وهذا ما أثار قلق الغلباوي الذي كان يعتقد ان كل اصحاب الملايين أصحاب كروش ايضاً . أبداً ، كان أقرب الى الوسامة ، فهو يرتاد نادي فندق الماريوت الصحي يومياً . حيث يلعب الرياضة ، ويلم بحجرة « السونا » ، ثم يغطس في الماء البارد مبللاً بالعرق . ثم يسعى الى « الجاكوزي » .

الغلباوي يروي الاحاديث التي تبادلها مع السيد محسن المحسن وجمعة القفاري يفتح فاه دهشة وذهولاً وقد انعقد لسانه في مكانه لا يتحرك . وأخيراً هتف متسائلاً :

ـ جاكوزي ؟

اتخذت ملامح فاضل الغلباوي هيئة الخبير الحكيم وابتسم ابتسامة الداهية الفهلوي الذي خبر الدنيا . وقال ان الجاكوزي أشبه ما تكون ببركة صغيرة فيها مياه ساخنة ، وتدفق من حوافها شبه شلالات حارة ، من شأنها ان تدلك عضلات المرء المتوترة المتقلصة . . . فتبسطها .

قطب جمعة ما بين حاجبيه وعلق وهو يتنهد :

ـ قلت لي « جاكوزي » هيه ؟

ثم صفن ، وسرح ذهنه في عوالم غامضة . بغتة أشرق وجه جمعة وقال والفضول يلمع في عينيه ، أن السيد محسن المحسن ينفق الكثير على الجاكوزي ، وبوسعه ان يذهب الى حمامات « ماعين » ذات المياه المعدنية . ثم

لماذا يركض السيد محسن على حزام يتحرك في مكانه ؟ وكتم جمعة ضحكة صبيانية وقال انه يركض احياناً وراء باص دون ان يدفع قرشاً واحداً ثمناً للركض . وان الركض على حزام يركض في مكانه اشبه ما يكون بامتطاء حصان خشبي . وقال انه لا يفهم تصرفات هذا السيد المليونير . وراهن على أن السيد محسن المحسن ، ولد وفي فمه ملعقة من الذهب . وانه ورث عن المرحوم الوالد مبلغاً محترماً . قال وهو يهز كتفيه ويهم بالابتعاد عن الغلباوي .

- أنا لم أرث مبلغاً محترماً . ورثت مبلغاً صعلوكاً غير محترم .

وفكر أن مبالغ المال اما ان تكون محترمة أو لا تكون . والمبلغ الذي ورثه جمعة عن والده يفتقر الى الاحترام !

قال الغلباوي وهو يقبض على ذراع جمعة :

- الى أين ستذهب ؟ الحكاية لم تنته بعد. تعال نتسكع في « الشميساني » ونطقّ حنك .

وراح الغلباوي يطق حنكه ، بينما ظل حنك جمعة جامداً لا يطق ولا يتحرك . استأنف الغلباوي حديثه فأخبر جمعة أن محسن المحسن يريد الحصول على رخصة مجلة من عمان ، من قبرص ، من لندن . . بأي ثمن . لأنه مولع بالشعر . وانه كلفه برئاسة تحرير المجلة . وان الغلباوي اقنعه بأن يساعده جمعة في اخراج المجلة .

قالت وداد ان اصحاب الملايين لا يكتفون بملايينهم . انهم ظماء الى النفوذ . وتنبأت بأن يحصل محسن المحسن على ترخيص مجلة . وقالت انه سوف ينشيء فريق كرة قدم بعد ذلك . وانه سيرشح نفسه لمجلس النواب ، أو يضغط عبر علاقاته من اجل ان يستوزر .

و« كثير الغلبة » لا يكترث بدوافع هذا الرجل المليونير الوسيم . لقد كدح في الخليج ، وأفنى قسطاً هائلاً من عمره وهو يجمع القرش على القرش . تحت لهيب شمس تفوق حراراتها حرارة « السونا » او حمام البخار . ثم دافع

عنه بحماسة وهو يتناول كوباً من البيرة في مقهى « الهورس شو » في الشميساني . وقال انه يمثل البورجوازية الوطنية . وقالت وداد وهي تحدق الى كأس البيرة بحقد شخصي ان محسن المحسن يريد ان يستغل اسم وموهبة الغلباوي وانها لا تفهم معنى البورجوازية الوطنية .

واشتغل الغلباوي مديراً لتحرير المجلة . وسرعان ما انضم جمعة الى أسرة تحريرها . علق والفرح يغمره :

ـ أخيراً وجدت عملاً . أخيراً سيصير لي اسرة .

سأله الغلباوي عن هذه الاسرة الجديدة ، قائلاً :

ـ يعني ستتزوج وتنجب . . وتكون أسرة ؟

هز جمعة رأسه ، وقال ان الغلباوي يستخف به . وانه يعرف ما يرمي جمعة اليه . قال وهو يأتي على صحن الجزر :

ـ أقصد أسرة التحرير . هات كاس حليب يا معلم .

أطلق الغلباوي ضحكة مبهمة وقال ان جمعة مقطوع من شجرة ، ولن ينسجم يوماً مع اسرة . . لا أسرة تحرير ، ولا أسرة احتلال !

لكن الغلباوي الذي احتل غرفة فخمة في مبنى المجلة ارتكب جريمتين لا يمكن للسيد محسن المحسن ، مهما بلغ به كرم الاخلاق ان يغض الطرف عنهما . فقد كتب مقالة ضد مجموعة من الشركات التي تنشر اعلانات في المجلة بشكل منتظم . وركز على أن بعض هذه الشركات تحاول التدخل في سياسة المجلة . أما الخطيئة الثانية التي اجترحها فيتحمل جمعة وزرها . المدير العام كان قد عين الغلباوي (بالاضافة الى كونه مدير تحرير المجلة) مديراً للشؤون الادارية والمالية لشركته ، فقام من فوره بتعيين جمعة مساعداً له .

قبل يوم واحد من انفجار الخلاف بين المحسن والغلباوي ، دلف المحسن الى مكتب الغلباوي وطلب منه ان يوقع على اوراق مختلفة . مائة دينار ثمناً لباقات زهور بعث بها المدير العام الى اشخاص من ذوي المواقع في مناسبات مختلفة . وثيقة تفيد ان الملابس الموحدة لعمال الشركة ينبغي ان تتم

عبر صفقة مع مؤسسة الخياط للخياطة . ولاحظ النعمان ان اسعار مؤسسة الخياط تفوق كل اسعار الشركات الأخرى التي اشتركت في مناقصة توفير ملابس خاصة للشركة . بالاضافة الى كل ذلك ، طلب المدير العام وهو ينفث دخان سيجاره في فضاء غرفة الغلباوي ذات الباب الواحد والجدران الخالية من النوافذ ، بأن تتعامل سيارات المؤسسة بالنسبة للبنزين وسولار التدفئة مع محطة محددة .

كان جمعة يستمع الى هذا الحديث الغريب وهو يلعب دور الهبيلة الذي لا يسمع ولا يرى ولا يشم . وحين اعترض الغلباوي قائلاً :

- ولكن هذه شركة عامة مساهمة يا أستاذ محسن . وأنا لا أستطيع ان اوقع على هذه الوثائق . . فالمسؤولية سوف تقع على . . .

تزعزعت أركان محسن المحسن وأظلم وجهه ثم صرخ :

- هل تتهمني بالتلاعب بأموال المساهمين . واهمال مصالحهم ؟

ما إن تضرج وجه الغلباوي حرجاً ، حتى اندفع نشاط محموم في جسم القفاري ولم يستطع كبحه ، فقفز عن مقعده وصاح :

- أنت تسرق أموال المساهمين يا أستاذ . الطابق مكشوف .

سال عرق بارد على جبهة محسن المحسن . وأبى الغلباوي على أسنانه ان تصر ، وعلى فرائصه ان ترتعد . لوح السيد محسن قبضته في الهواء ثم هوى بها على طاولة الغلباوي ، وقال من بين اسنانه موجهاً كلامه للغلباوي :

- ستدفع ثمن مقالتك ضد الشركات التي تعلن في مجلتنا . هل تعلم يا سيد انها امتنعت عن نشر اعلاناتها في المجلة ؟

رماهما بنظرة كاوية وقال :

- من الذي يهمل مصالح المساهمين إذن يا استاذ فاضل ؟ المجلة سوف تفلس نتيجة مقالة حضرتك .

ثم اضاف بلهجة آمرة ، أنه سيلقي بالغلباوي الى الخارج . وفي غمرة انفعاله وانفلات اعصابه انفلاتاً ما عاد التحكم بها أمراً يسيراً ، نسي وجود جمعة ، وركز جام غضبه على الغلباوي . عاد الى مكتبه وامر سكرتيرته بأن تكتب كتاباً يفصل الغلباوي من عمله بموجبه .

وهنا ثارت نخوة جمعة .

الغلباوي علق بعد أيام من الحادثة ، وبعد ان أجرى اتصالات افضت الى تراجع المدير عن قراره .

- يخرب بيتك يا جمعة . . خربت بيتي . لماذا استقلت ؟

وقال ان المدير العام سيعتقد انه وراء استقالة جمعة ، وانه يحرض الموظفين على العصيان غير المدني او غير المتمدن !

* * *

جمعة و« كثير الغلبة » يتسكعان

شبك فاضل القفاري المعروف « بكثير الغلبة » أو « الغلباوي » ذراعه بذراع جمعة القفاري وانطلقا من جبل اللويبدة سيراً على الاقدام وقد يمما صوب جبل عمان . جمعة القفاري لا يميل الى ان يشبك ذراعه بذراع أي كان . لكن جمعة كان يغض الطرف عن بعض تصرفات كثير الغلبة ويقبلها على مضض ، لمعرفته انه بحاجة دائمة اليه . العلاقة بين جمعة القفاري وابن عمه فاضل القفاري كانت تمر بحالات مد وجزر ، من جانب جمعة . فكثيراً ما نفد صبره من فضول ابن عمه ، وكثيراً ما ضاق صدره بدور الفهلوي الحكيم الذي يلعبه كثير الغلبة . لكن ، لا كثير الغلبة كان يسمح لجمعة ان يقطع شعرة معاوية ، ولا استطاع جمعة ان يستغني عن هذه العلاقة التي أدمنها .

قال كثير الغلبة ان المشي خير رياضة لشخصين كسولين من امثالهما . وقال ان المشي مفيد في حالة جمعة بالتحديد ، لأن الجزء الوحيد الذي ينشط من بين كل اجزاء جسده ، هو خياله . ثم انتقل كثير الغلبة الى موضوعه المفضل :

ـ ولكنك لن تستطيع كتابة روايتك « مغامرات النعمان في شوارع عمان » إذا لم تتعرف على عمان الشرقية . أنت لا تعرف من الأردن سوى عمان ، ولا تعرف من عمان سوى عمان الغربية . وهذه جريمة بحق شخص يطمح في أن يكتب رواية بعنوان « مغامرات النعمان في شوارع عمان » .

هبطا نزلة اللويبدة التي أفضت بهما الى شارع « وادي السير » أو « الامير محمد » كما اصبح اسمه . وكان جمعة يفكر بالطلعة المحدودبة التي تكاد تنتصب

مثل ظهر رياضي الى الدوار الأول . وتخيل العرق الذي سيتصبب من جبهته ووجنتيه ، وتخيل صوت اللهاث المرتفع . وتنبأ محدثاً نفسه :

- وسيقول لي كثير الغلبة بلهجة شامتة متشفية : شفت ماذا يفعل الافراط في التدخين ؟

وسيحاول ان يقنعه للمرة الألف بالاقلاع عن التدخين . وسيقول جملته المشهورة :

- أنت مثل باص قديم عجوز يرتقي المرتفعات .

وسيتبجح قائلاً انه يعرف الاردن مثلما يعرف راحة يده ، لأن والده كان ضابطاً في الأمن . وكانت الجهات المعنية تنقله من بلدة الى اخرى فكانت اسرتهم تعيش مثل البدو الرحل الذين يتنقلون بحثاً عن الكلأ . وسيروي له احداثاً طريفة مل جمعة ترادادها ، أحداثاً وقعت لكثير الغلبة حين كان أبوه قائد مخفر للشرطة في الشوبك ، أو حين نقل الى الرمثا .. الخ . وكلها وقائع واحداث يحفظها جمعة عن ظهر قلب .

لكن كثير الغلبة الذي كان يثرثر بينما جمعة يعرض بأذنيه عنه ، فلا يسمع ولا يجيب ، إلا بهزة مجاملة من رأسه بين الحين والآخر - خيب ظن جمعة . فحين فتح جمعة اذنيه مرة اخرى سمع كثير الغلبة يقول :

- وهكذا فإنك تمشي في الشارع ، فلا تلاحظ السيارات ، ولا ترى عيناك المارة . . ولا حتى الفتيات . انك لا ترى التفاصيل ، ولولاي لانتهيت تحت عجلات سيارة ذات يوم . أنت تمشي وتفكر في احداث روايتك « مغامرات النعمان في شوارع عمان » ولا تلاحظ ما يجري من حولك .

وختم كثير الغلبة جملته بأن قال حكمته المعروفة : إذا فتح التفكير عقلك ، أغلق حواسك .

قال جمعة أنه لم يكتب من روايته الخطيرة « مغامرات النعمان . . . » سوى العنوان . لم يكن جمعة يوجه كلامه الى كثير الغلبة ، كان يفكر بصوت مرتفع .

أكد كثير الغلبة ان جمعة لم يقذف نفسه في أتون تجربة الواقع . أخذ جمعة نفساً طويلاً ، ملأ رئتيه بالهواء استعداداً لارتقاء طلعة الدوار الأول وقال ان شخصية النعمان في الرواية التي لم يكتب سوى عنوانها بعد ، صاحبة تجارب ومغامرات ، أين منها مغامرات السندباد أو دون كيشوت . واشار الى ان نعمان العموني عاش في نيويورك ولندن وباريس وماناغوا والقاهرة وبيروت . . . ثم سيعيده الكاتب الى عمان لالتقاط الانفاس . مثلما كان يعود السندباد الى البصرة ، بعد رحلاته العجيبة في البحر والبر .

حين مر كلاهما بأمانة العاصمة بدأ جمعة يلهث ويبحث عن الهواء . قال كثير الغلبة :

- هل تذكر ؟ طول عمرك تحلم . هل تذكر أول فتاة أحببتها ؟ أنا سأنعش ذاكرتك . سعاد حسني . نعم . أحببت ممثلة لم ترها إلا على شاشة سينما زهران . أليس كذلك ؟

قطب جمعة والتقط أنفاسه وقال بصوت واهن :

- لا . انا كارنينا كانت حبي الأول . ثم نادية لطفي .

قال كثير الغلبة وهو يرفض ان يعترف بهزيمة ذاكرته :

- بل أحببت سعاد حسني . ثم آنا كارنينا . ثم نادية لطفي .

وأكد انه على عكس جمعة أحب ابنة الجيران حين كانت اسرته تقيم في الزرقاء . ومرة كتب لها رسالة حب وغرام وأعطاها لاختها الطفلة كي تسلمها لها ، وروى كيف انه دس في يد الطفلة قطعة بسكوت . فمضت الطفلة وسلمت الرسالة الى أبيها ، الذي هاله الأمر ، فهرع الى الشرطة وشكا كثير الغلبة الى والده . قال كثير الغلبة ان والده أجرى معه تحقيقاً شبيهاً بالتحقيق الذي يجريه مع اللصوص والنصابين ، وحبسه في غرفته ثلاثة أيام . واصدر أوامره الى أم فاضل القفاري ان تلعب دور الحارس أثناء غياب الزوج . وأعاد على مسامع جمعة للمرة الألف ، أن امه كانت مولعة به ، وانها كانت تسهل له عملية الهرب على ان يعدها بالعودة الى الغرفة المغلقة قبل عودة والده من المخفر . قال كثير الغلبة كالعادة :

ـ كنت أعدها . . والتزم بوعدي . أنا رجل بحب الالتزام !

فكـر جمعة بصـوت مرتفـع دون أن يجفف العـرق المتصبب بغـزارة من جبينه :

ـ سوف تلجأ نانسي الى نعمان العموني ، لأنها اعتقدت انه المخلص المنتظر ، بعد ان قرأت قصتـه : « الشيخ » . ومـا إن يقع بصـرها عليـه حتى تقطع الشك باليقين . لأنه ذو وجه سمح ولحية كثة . انها تخلط بين الكاتب وبطل قصته القصيرة التي كتبها بالانكليزية ونشرها في مجلة تصدر في واشنطن .

قال كثير الغلبة :

ـ مثلما تخلط أنت بين نعمان العموني وبينك ، ثم بين نانسي ووداد .

توقف جمعة جامداً في مكانه لا يتحرك ولا يزول . سأله كثـير الغلبة ان كانت ملاحظته الأخيرة قد أزعجته . فقال جمعة أنه لا يستطيع حراكاً . ينبغي ان يلتقط أنفاسه . اجتاحت كثير الغلبة نوبة فرح غامر . ها هو جمعة يعترف بأنه لا يملك طاقة فاضل القفـاري ، ويعجز عن منـافسته . فقـال وقد غلبـه احساسه بالزهو :

ـ بوسعي ان أتابع الى مقهى « الديبلومات » . . جرياً .

وبدأ يتحدث عن مضار التدخين !

* * *

مشهد حول صراع على السلطة بين جمعة وصبي الجزار

حين ناشده جاره الجزار ان يحل محله في الحفاظ على أمن واستقرار المحل ، لأنه مضطر الى زيارة ابنه في المستشفى ، شعر جمعة بسعادة غامرة . لا داعي طبعاً للدخول في التفاصيل والحديث عن ان الجزار لم يطلب منه ادارة « الملحمة » فهو بطبيعة الحال لا يفهم في مسائل اللحم وقضايا العظم . ولكن الصديق الجزار لا يحب ان يغلق ملحمته لأسباب معنوية ودعائية .

المهم أن جمعة القفاري شعر باعتزاز وزهو وقوة لم تداخله من قبل ، فها هو يحس بأنه يملك سلطة ونفوذاً لا سابق لهما . أتى في الصباح الباكر الى الملحمة بسيارته المتداعية ، واوقفها عند الباب . أطل صبي جديد يعمل في الملحمة وقال لجمعة بلهجة آمرة :

- ممنوع الوقوف هنا .

قال جمعة بلهجة آمرة :

- حلّ عني . أنا الزعيم هنا اليوم !

امتقع صوت الصبي ولم ينبس . وانما امتثل لأمر جمعة .

جاء الزبائن زرافات زرافات . فأطل جمعة القفاري من الباب وامرهم وهو يمسك مقبض الساطور مسكة دون كيشوت لرمحه وهتف :

- بالدور يا اخوان . تعلموا النظام يا اخوان . بالنظام فقط نصبح شعباً متحضراً .

امتثل الزبائن لأوامر جمعة الذي حرك الساطور حركة مبهمة قد يفهمها المرء على أنها تتضمن تهديداً ووعيداً ، وقد يفهمها آخر على أنها مجرد اشارة الى المكان المفضل لوقوف الطابور .

تقدم رجل قصير ذو تقاطيع غليظة لا يكاد يرتفع عن الأرض وقال بصوت عال ارتفع في الفضاء بحدّة غير مألوفة :

- أريد نصف خروف ، قطعه لي ، دع الفخذ وحده دون تقطيع ، ثم أجرم لي اليد ، واخلط نصف كيلو من لحم العجل مع ما تبقى من الخروف لأحصل على مفرومة للمحشي .

فغر جمعة فاه ، ودهمه شعور ممض بأنه بدأ يفقد سيطرته على الموقف . وأن هالة السلطة التي عززها الساطور والمريلة الملطخة بالدم بدأت تخبو .

التفت جمعة بهلع الى الصبي الذي انتحى ركناً قصياً وراح يتفرج . سأله جمعة بلهجة مستجير يلتمس المحافظة على سلطته :

- هل فهمت ما قاله الرجل ؟

وقبل ان يفتح الصبي فمه ليجيب . هتف جمعة بصوت عاصف :

- نفذ . . ثم ناقش . هيا .

قال الصبي فيما يشبه الذهول وهو يستعين على هيبة جمعة برهبته ودموعه انه جديد هنا ، ولا يفهم . وان وظيفته تقتصر على غسل ارض الملحمة ، ولملمة الزبالة . هتف وهو يجفف دموعه :

- انا مجرد مرمطون هنا . مرمطون .

وانتبه جمعة لأول مرة في حياته الى انه لا يفهم معنى هذه الكلمة مع انه يستخدمها كثيراً حين يحرد من أخته عائشة فيقول لها :

- يعني أنا مجرد مرمطون في بيتك ؟

شعر جمعة بالذنب حين رأى دموع الصبي ، ودهمه شعور بالندم والحسرة

والميل الى نقد الذات . مال على الصبي وسأله بصوت خفيض :

ـ ما معنى مرمطون ؟

فجفف الصبي دموعه بمنديل ملطخ بدماء كائنات كانت حية . ولم ينبس . التفت جمعة الى الطابور . وحاول ان يركز نظرته الزائغة على الرجل القصير. وقال في نفسه كأنما يرغب في ان يسترد آخر خيوط سلطته التي كاد عقدها ينحل :

ـ هذا الرجل ضعيف الشخصية . انه يهابني لأنه غليظ الملامح قصير القامة .

هتف الزبون بعصبية :

ـ ألم تسمعني يا رجل ؟ أين « المعلم » أحمد الجزار ؟

في محاولة يائسة لفرض هيبته هتف جمعة في الناس أنه لن يبيع اللحم اليوم . . حداداً على روح أحمد الجزار ، « الذي أعطاكم عمره » . تعالى الهمس ثم تحول الى ضجيج ، وانفض الناس وهم يرددون :

ـ رحمة الله عليه .

ـ سبحان الله . رأيته أمس قوياً مثل ثور .

ـ لا حول ولا . . .

ـ ونحن . . ما خصنا ؟ مات أم عاش . . نريد شراء اللحم .

التفت جمعة الى الصبي الذي كان منكمشاً على نفسه الكسيرة . فرآه يضحك في عبه ساخراً . خلع جمعة المريلة ، ووضع الساطور جانباً ، وقال لنفسه ان هذا الولد اللعين كشف طبته . سقط القناع ، وها هوذا الولد الابله يراه عارياً على حقيقته لا يفرق بين الخروف والماعز .

سقطت ذقن جمعة على صدره . غادر الملحمة بخطى جنائزية . وقال للصبي :

ـ اغلق الملحمة الى ان يعود أحمد الجزار .

اجتاز الشارع مثل جنرال انقلب عليه الناس ما ان جلس على مقعد

الرئاسة ، قال وهو يمضي الى بيت عائشة :

ـ لم تدب الحرارة في مقعد سلطة الملحمة تحت مؤخرتي بعد . وها أنا «أبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال» .

ثم فكر بردة فعل أحمد الجزار وتذكر ضحكة الصبي الصفراء المستهينة ، فتمنى لو تنشق الأرض وتزدرده .

مشهد : جمعة يحلم بروايته

حدث جمعة القفاري ابن عمه كثير الغلبة عن مشروع روايته . قال :

« نانسي هذه خالصة . النعمان يسحب عليها الافلام وهي تصدق وتهز رأسها دهشة واعجاباً وتقول :

ـ أوه . . نومان » !

ونانسي ضجرت من الحضارة الغربية المادية ، وراحت تحلم بالشرق الغامض المكتنز بالأسرار والحيوية الفائضة والروحانيات التي تبعث السكينة في النفس ، وتغسل الروح . والنعمان اكتشف كلمة السر القادرة على غزو قلب نانسي ونهب عقلها . وراح يحدثها عن حياته في الصحراء . وهي تقول : أوه . . نومان . . هذه العوالم هي التي أتطلع اليها . ويضيق النعمان ما بين عينيه ويميل الى أذنها كأنه لا يرغب في أن يقف النادل الامريكي على هذه الاسرار (لاحظ انني أتخيل أن هذا المشهد يقع في مقهى في احدى المدن الامريكية) والنعمان مصاب بمرض الثرثرة ، ويقول أنه شيخ قبيلة من البدو . وتصفق نانسي بيديها وتطلق ضحكة يهتز لها صدرها . والنعمان يتحدث عن طهارة الانسان البدوي وشجاعته ونخوته . ويسرف في الحديث عن الفطرة الخارقة التي يتميز بها ، ويؤكد ان الحضارة لم تقض على فراسته ، ولم تفسد قدراته العجيبة على التواصل مع الطبيعة والناس . وشع بريق ساطع من عيني نانسي ، وراح قلبها يخفق بعنف وسألت بلهجة تنم عن اثارة غلابة :

ـ وماذا عن الروحانيات . .

ويبتسم النعمان صاحب الخبرات والتجارب والمغامرات ابتسامة الواثق ويقول انهم قوم زاهدون في زهرة الدنيا وزخرفها . وانه شخصياً ينقطع في كهف بعيد بين الحين والآخر . ويكرس وقته للتأمل والذكر . وأوحى اليها وهو يحتسي البيبسي بنهم ثم يمسح بيده على شفتيه انه صوفي وفارس نبيل في آن واحد . ويتقن النعمان دوره الى حد يجعله يصدقه . وحين تسأله إن كان يمتلك بيتاً في العاصمة عمان . يقول كالمعتذر :

ـ نعم . غير أنني لا ألم به إلا لماما .

ثم يحصل ما لم يكن في حسبان النعمان . بعد عودته الى عمان . وصلته البرقية الكارثة . واذا نانسي في مطار عمان بعد أيام . هكذا . . بغتة مثل السكتة القلبية . فيسكت النعمان ويرتج عليه ، ويستقبلها دون أن يهتدي الى كلمة يقولها . وينطلق بها الى شقته الحديثة في عمان كأنه يحمل معه مرضاً معدياً . وتدلف نانسي الى الشقة الفخمة ، وتقع عيناها على التلفزيون والفيديو وأجهزة التسجيل والمذياع ومكبرات الصوت الحديثة ، فإذا وجهها الوضيء يظلم ونظرتها المشرقة تذوي . ويسألها النعمان إن كانت ترغب في فنجان من « النيسكافة » .

قالت وهي تضع حقيبتها الجلدية على الارض :

ـ كنت أحسب أنك تعيش في خيمة . . في بيت شعر !

ويذكرها النعمان وهي تقتعد الارض وتثني ساقيها تحت مؤخرتها ، انه قال لها يوماً ما انه يرتحل عن الصحراء في الشتاء ، ويغزو المدينة .

إبن الـ . . . قال النعمان في سره معجباً بقدرته على اطلاق العنان لخياله ، وراح وجهه يشرق فرحة بوجودها ، ويظلم امتعاضاً من . . . مجيئها

وجعل يدور حول نفسه وما يدري كيف احتمل الصدم ! وحين سألته نانسي عن خطبه . أطلق ضحكة هستيرية . ثم اكتشف أنه معقود اللسان ، لا يملك أن ينبس .

غير أنه مضى بخطى متثاقلة نحو النافذة المطلة على جبل عمان ، فملأ

رئتيه بالهواء ، وتنحنح ثم سأل بصوت اقرب الى الحشرجة :

ـ تشربين الشاي ؟

* * *

سكت جمعة ثم رفع رأسه والتفت نحو كثير الغلبة بعينين مستطلعتين . أطلق كثير الغلبة ضحكة مجلجلة رنت في الفضاء ، ثم استلقى على ظهره ، ولوح ساقيه في الهواء . . حتى كاد يختنق من الضحك . ثم ولت نوبة الضحك الهستيري . فاستوى كثير الغلبة جالساً وقال :

ـ أنت تكتب عن نفسك .

ثم عقد ما بين حاجبيه باهتمام بالغ وسأل بفضول بَيّن :

ـ وهل حصل « كاني ماني » بينهما ؟

سأله جمعة مشدوهاً :

ـ « كاني ماني » ؟ بين مَنْ ومَنْ ؟

نفخ كثير الغلبة وقد نفد صبره :

ـ بين نانسي ونعمان طبعاً . ألا ترى انه صور لها نفسه على انه متصوف ؟ كيف إذن . . يمارس الحب معها ؟

عض جمعة القفاري على قلمه بغيظ أعمى فانقصف القلم . قال جمعة :

ـ ومن تكلم عن ممارسة الحب ؟

قال كثير الغلبة على استحياء :

ـ الذي لا ينثني . . ينقصف . . أقصد القلم والمناضل الصلب والحالم ذا الرأس اليابس . . من أمثالك .

النار بعد الدخان

ولّعت ! نانسي جاءت الى مكتب نعمان تسبقها أعاصير تهب على هذا الكوكب فتقيم الدنيا ولا تقعدها . قالت وهي ترتعش مثل طفل اختطفه صقيع وراح يتلعب به :

ـ وكمان تمارس الحب ؟ أنت الزاهد . . انت الذي مثلت علي دور الزاهد في المناصب وأجساد النساء وكل متاع منحط . . أنت تفعل ذلك ؟

وسألته ، وهي تزوي وجهها كي تخفي دمعة ساخنة لمحها بنظرته الباردة ، عن الفرق بينه وبين أي ذكر في العالم . بينه وبين صديقها الامريكي السابق على سبيل المثال . « كلكم تسخسخون حين تبصرون ثوباً نسائياً »

واتهمته بأنه كان يمثل عليها دور المحصن داخلياً ، الزاهد في متاع الدنيا وزهرتها طوال الوقت . كانت تثرثر ، بينما ألحت عليه وتناهبته ميول سوداوية انتحارية . لا ، لأن ما جرى بينه وبين ابنة الجيران أيام زمان لا يستحق كل هذه الفضائح . ولا لأن ابنة الجيران أخبرت نانسي بدعابة عن علاقتها القديمة بنعمان فسببت له كل هذا الأسى . وانما لأن الاستقالة من الحياة العامة ، والتقاعد عن المغامرات ، واللجوء الى حياة السكينة والملاذ ، والتخلي عن أي مشروع ذي هدف . . جعله يفقد الدافع الى الهجوم المضاد . ها هو الكون يتساقط على رأس النعمان ، لأسباب سخيفة ، وها هو يتكوم فوق مقعده ، كأن الحياة في أعماقه لا ترغب في ان تبعث من جديد .

أكد جمعة لكثير الغلبة أنه ما كـان يقصد ان يسيء لنـانسي ولنعمان . ولكن ما جرى . . جرى . والذي فات مات . ثم فكر جمعة وهو يسرد هـذا المشهد ان يصعد التوتر فيتجاوز شكسبير نفسه .

و« أم نعمان قالت لنعمان وهي تناوله بدلة المرحوم زوجها وتـطلب منه ان يـأخذهـا الى المصبغة ، ان والـده كان يـردد دائماً ، ان حكـومـة سليمـان النابلسي ، كانت اعلاناً عن بداية مرحلة وانتهاء مرحلة . وتدور في البيت كأنما تبحث عن شيء محـدد ، ثم تسأل إن كـان نجاح ابنـه فارس في الانتخـابات صحيحاً . ثم تستدرك :

كان أبوه صاحب والدك . أكاد أرى والدك عنده الآن يحتسي القهوة » .

وكان نعمان يعلم ان والده مات بتشمع الكبد ، بعد ان تراكمت عليه المحن ، فاستسلم لمعاقرة الخمر ، وهو يعزي نفسه قائلاً :

ـ سأموت في خمسينات عمري . لكني سأترك لابني ثروة .

وما كان يعرف أن ابنه سيبدد هذه الثـروة ، ويمضي الى جبل النـظيف لشراء ملابس من البالات !

* * *

لقطة قصيرة

كثير الغلبة :

- روايتك « مغامرات النعمان في عمان » ملخبطة مثـل واقعنا العـربي . فهي امريكية في احد الفصول ، وانكليزية في فصل آخر . أول أمس قلت لي ان صـديقاً عـربياً امـريكياً عـارف مـا بـين نـانسي ونعمـان . وأمس قلت لي انها سعت الى التعرف اليه بعد ان قرأت له قصة باللغة الانكليزية . يا أخي هذا غير معقول . ينبغي ان تكتب الرواية ، لا ان تحكيها شفهياً ، وتعيشها في خيالك .

جمعة :

- كثير الغلبة هذا يتدخل فيما لا يعنيه . وأنا أرغب عن اسماعه ما لا يرضيه . ماذا أفعل ؟ أرشدوني !

***

مشهد حول رحلة نعمان مع نانسي
الى قصر عمرة

قال جمعة لكثير الغلبة انه يفكر في كتابة مشهد عن نعمان ونانسي . وان المشهد واضح في ذهنه كأنه يراه مجسداً الآن امام عينيه : قال جمعة :

اسمع . . . كان نعمان يجلس الى الطاولة إياها ، يحتسي كوباً من البيرة ويقرأ كتاباً . حياه النادل بهزة من رأسه ، فلم ينتزع عينيه عن الكتاب .

جلس النادل الى طاولته في هدوء وراح ينقر على سطحها البارد بأصابعه . رفع النعمان عينيه دون رأسه . سأله النادل :
ـ ما لك ؟

فحكى له حكاية نانسي . قال انه أرسل نفسه على سجيتها ، فإذا بالفتاة الحمقاء تصدق كل ما قاله وتأتي الى عمان . وحكى كيف ان زيارتها الى عمان كانت سلسلة من الكوارث . حكى للنادل عن اقامتها في بيت أخته . وعن الاولاد الذين فرشوا الارض وجعلوا ينامون عند باب غرفتها خوفاً من « تسللي » الى غرفتها .

ابتسم النادل ابتسامة بلهاء واقترح ان ينقلها الى الفندق . فلم يلتفت النعمان اليه . وتحدث النعمان عن الحاح نانسي على زيارة « قصر عمرة » الذي « لا اعرف موقعه » . وكيف « أنني حاولت ان أثنيها عن عزمها متعللاً بكل عذر يخطر ببال » .

« قلت لها ان الوصول الى منطقة قصر عمرة دونه الأهوال . فقطاع

الطرق ينتشرون في تلك المنطقة ، فإذا وقع بصرهم على امرأة شقراء بيضاء ، فإنهم سوف يغيرون على السيارة وينهبون الفتاة ، ويتلعبون بها . فلعبت لي حاجبيها وقالت انها جاءت بحثاً عن المغامرة . وهذه مغامرة بحد ذاتها . وان صديقاتها سوف يُعجَبن بهذه الحكاية .

واعترف للنادل أنّه حاول أن يلبسه إياها . وأنّه قال لها :

- هل ترغبين في التعرف الى النادل الذي يعمل في فندق الكروان ؟

« وحكيت لها كيف تزوج أبوك من أمك » ، فامتقع وجه النادل وسأل باهتمام :

- وكيف تزوج ابي من أمي ؟

قلت :

- نسيت ؟ لا بد أنك كنت سكران حين رويت لي القصة .

وراح النعمان يروي للنادل كيف تزوج والده من أمه . وكيف انه لم يباشرها أو يلامسها أربعين ليلة حتى علم أنه لم يبق في جوفها اثر مما أكلته في بيت اهلها . ثم باشرها ، بعد ذلك .

فأطلق النادل ضحكة مجلجلة وسأل :

- أنا رويت لك هذه القصة ؟

« أكد له أنه رواها له هنا في هذا المكان بالذات ، وكان يحتسي الكونياك الرديء وأنبأه كيف أن أمه كانت تقول إنها كلما وضعت في فمها لقمة مريبة اثناء فترة حملها به ، كان يبدأ بالحراك في رحمها ، فلا يتوقف حتى تلفظها » .

هز النادل رأسه دون ان يعلق .

وقال نعمان له :

- ثم انطلقنا نحو الأزرق . قال لي واحد من اولاد الحلال ان طريق قصر عمرة تبدأ بعد ان اتجاوز « الازرق » . قالوا : تترك الطريق العام وتأخذ يمينك على طول ، وبعد ربع ساعة تجد نفسك امام قصر عمرة . وأنا من حماقتي

صدقته . . . ولم أسأل وزارة السياحة والاثار . وأخذت يميني على طول ، والشمس تكوينا بلهبها وتصهر السيارة والابدان والحجارة ونانسي تلتقط الصور وتغني وتطلق صرخات الاثارة والفضول والفرح . وأنا ألعنها وألعن نفسي بسري . وكنت أدخن وهي تتضايق من الدخان ، فتفتح النافذة ، ويدخل الغبار فيجثم بحرية حيث يشاء . على شعري وشعرها ، على حجري وحجرها . وهي تكركر ضاحكة كأنما الغبار يداعبها . وأنا أمد يدي الى حجرها . فتولول وترفعها . فأردها كسيفاً مرتعشاً وأقول :

- انما أردت ان أنفض الغبار عن بنطالك ,

فتقول بحزم دون أن تلتفت :

- انفضه عن بنطالك أنت .

واكتشفت انني مجرد دليل سياحي بالنسبة لها . وان شعرها الاشقر يختلط بالغبار ولا يختلط بأصابعي . في تلك اللحظة انعطبت عجلة السيارة . فما ان ترجلت من السيارة حتى طلع جنين الشمس وظهر كمينها وانتصب قطب جحيمها واذا نحن والسيارة مدار رحاها . ورحت أدور حول السيارة . والآنسة المصون نانسي تهرب الى الرمل ، وتقفز وتلتقط الصور . ثم تلسعها شعشعة الشمس فتلوذ بالسيارة وتدير المكيف الهوائي . وأنا ابحث عن رافعة السيارة وانا اعرف اني لا أملك اي فكرة عن معالجة عطب العجلة . أنزلت الرافعة الى الارض ، ثم حملت العجلة الاحتياطية ووضعتها الى جانب الرافعة . ثم استندت الى السيارة تحت جحيم الشمس ورحت أعبث بشعري الأشعث الأغبر واتفكر في طريقة لحل المشكلة . كنت اختفي تحت السيارة ، ونانسي تفتح النافذة ، وتطل برأسها وتصرخ :

- أين أنت ؟

فاجمد في مكاني لا أقول ولا أومىء . وبعد أن أعيتني الحيل كلها . قمت مستسلماً لليأس . ورحت أدخن سيجارة وأنفث دخانها في الفضاء الملتهب . ونانسي ترمقني بعينين حائرتين وتكلم نفسها :

- ماذا يفعل هذا الرجل ؟

قذفت السيجارة الخفيفة الى الفضاء فتلقفها سكون ثقيل بدأ يطرق مسامع نانسي ويزعجها . انهارت قواي بعد ان لعبت دور الفهلوي الخبير في شؤون السيارات واتجاهات الصحراء ، واعترفت لنانسي انني أجهل كيف استبدل العجلة المعطوبة . ثم التفت الى الخلف . ومدَدت بصري وانا ألعن ابن الحلال في سرّي . وقلت :

- علينا ان نعود على الاعقاب .

فهبطت نانسي من السيارة . وصفقت الباب بقوة وشت بأن مزاجها الرائق قد داخلته شوائب ! وأن دمها بات يغلي غليان الماء في مرجله .

أحس النعمان بقشعريرة الرعب والحرج تسري في جسده . فداراها بأن استقبل نانسي باسماً متطلقاً . فصرخت في وجهه :

- أنت لا تصلح لشيء . أنت خاسر . . . فاشل .

ونحته جانباً بحركة عنيفة من يدها البضة الناعمة ، ثم ركعت على الأرض وتناولت الرافعة ، فثبتتها في المكان الصحيح ، وجعلت تديرها ، فإذا السيارة ترتفع ومؤخرة نانسي ترتفع معها ونعمان يدنو منها فيهم ان يعرض عليها المساعدة ، لكنها ترفع رأسها وترمقه بنظرة كاوية فيتراجع وهو يرفع بصره الى السماء كأنما يبحث عن غيمة ضاعت من سرواله . ويعن له ان ينثني ليحمل العجلة السليمة ، فترمقه بنظرة نارية يكاد اوارها يحرق وجهه الذي لفحته الشمس . فيتسمّر في مكانه ، ويضرب كفاً بكف ويدور حول نفسه مدارياً ارتباكه . ويطرق الى الارض فينظر اليها ويطيل النظر كأنما يبحث عن المجهول .

انتصبت نانسي واقفة وراحت تنفض يديها ثم سألته بصوت يغالب الانفجار :

- أنت لا تعلم أين يقع قصر عمرة . . أليس كذلك ؟ . . اعترف !

فسقط رأس النعمان من بين منكبيه واستقر على صدره وهمس بصوت لا يكاد يسمع :

ـ صحّ !

فانفجرت نانسي تنتحب وتنتفض وهي تقول :

ـ ولا تعرف كيف تستبدل عجلة السيارة . ماذا تتقن اذاً ؟ ألا تجيد غير الكذب ؟ كل تلك الاحاديث في واشنطن . . لم تكن سوى سلسلة من الأكاذيب ؟ وراحت تملأ الفضاء بصراخ حيواني . ونعمان يتلفت خوفاً من الفضيحة . لكن الصحراء كانت مقفرة فحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

انقلب نعمان الى جثة ساكنة بعد حراك متصل ، صامتة بعد نطق لا يكف . ثم هام في الصحراء صامتاً مطرقاً يتيامن مع الريح الساخنة مرة ويتياسر مرة أخرى . . الى ان سمع بوق السيارة . التفت نصف التفاتة ، فإذا نانسي تقود السيارة باتجاهه وتشير له ان يدخل .

ركب الى جانبها معقود اللسان . يتصبب عرقه فلا يجففه . انفجرت نانسي بالضحك ، والبكاء كأنما اصيبت بنوبة هستيرية بسبب من الارهاق . صرخت وهي تضمه الى صدرها :

ـ كان ينبغي ان اتركك هنا . . في العراء . وأعود وحيدة بالسيارة الى عمان .

التقط النعمان أنفاسه ، واجتاحه شعور بخجل مراهق . فتضرجت وجنتاه !

* * *

جمعة يحلم :
نانسي تشكو نعمان لجمعة

اكتشفت نانسي ان نعمان يكذب الكذبة ثم يصدقها . يحلم أحلام يقظة ، ويخوض مغامرات وهمية ، ثم يتخيلها بصوت مرتفع ، أي يحكيها ، فيصدقها المستمع اذا كان غريباً مثل نانسي ، ثم يصدقها جمعة نفسه .

نعمان قال لجمعة مبرراً موقفه :

ـ يا اختي الامريكان يعانون من مرض السذاجة . يعني أمعقول أن أكون شيخاً اسطورياً من شيوخ القبائل ؟ هل يدل شكلي على ذلك ؟ أنا لا أشبه انطوني كوين ! أنا ما ذنبي ؟ افرض انني قلت لك : اقذف بنفسك الى اعماق بئر . . هل تقذف بنفسك ؟ افرض انني قلت لك انني أبله . . فهل هذا يعني انني ابله ، هل تصدق انني هبيلة ؟

ابتسم جمعة وقال انه سيصدق أقوال نعمان فيما يتعلق ببلاهته على الفور ، دون بحث ولا تقصٍّ .

وقالت نانسي وقد تحيرت دمعة جالت في عينيها الواسعتين :

ـ اسمع يا مستر قفاري . أنا صدقت صاحبك نعمان .

قال لها نعمان حين التقيا في امريكا انه شيخ قبيلة منيعة تعيش في مجاهل الصحراء عيشة مشاعية . وان افرادها يتمتعون بعشرات الحواس والغرائز ، وانهم أصحاب فراسة خرافية وحدس عجيب . لأن الحضارة المادية لم تفسد

حياة الفطرة الطبيعية التي عاشها الانسان النبيل الكامل قبل ان تغزوه موجة الحضارة المتوحشة .

وأنا صدقت ، قالت نانسي ، ودمعتها الوحيدة تجول في عينيها الواسعتين دون ان تنحدر أو تختفي ! والكلمات المتهدجة تتدفق ، والدمعة لا تتدفق وانما تجول . غض جمعة بصره نحو الارض . ونانسي اتهمته بأنه شريك في جريمة تقمص نعمان لدوري انطوني كوين في فيلم لورنس العرب وفيلم عمر المختار . انت قدمته الي قالت . وكان نعمان تعرف (حسب الرواية) الى نانسي في واشنطن فدعته الى حفلة : وحين دخن الجميع الماريوانا تقمص نعمان شخصية عودة ابو تايه وابن عربي في آن معاً . فأكد انه شيخ قبيلة وشيخ طريقة في الوقت نفسه . وهز رأسه الخفيف بالماريوانا الثقيل بالخمرة هزة المؤكد والمثني . . ثم تجشأ . وأكد النعمان لنانسي بلهجة المعتذر انه يذكر هزة الرأس ، لكنه لا يذكر انه تجشأ .

وقالت نانسي وهي تمسح دمعتها لجمعة الذي لا يمسح عرق الارتباك والحرج المتصبب من وجهه :

- هل تعلم ان صاحبك هذا الذي زعم انه انطوني كوين لا يعرف شمال الاردن من جنوبه ؟ وهل تعلم انه مقطوع من شجرة ، ولا يجيد استبدال عجلة سيارة معطوبة بعجلة الاحتياط ؟

وكان جمعة يعلم كل ذلك . ويجلس بين يدي نانسي الناعمتين مثل تلميذ شقي صغير عمل تحته ! لقد جمد في مكانه لا يميل ولا يقول وانما يحدق الى الارض ، ثم يلعن نعمان في سره ، ثم يسترق النظر الى نانسي ، ليرده من فوره الى الارض . (ملاحظة : هذا المشهد يجري في خيال جمعة الجالس الى طاولته . كثير الغلبة يقرع الجرس لكن جمعة لا يسمع) .

رفع النعمان طرفه الى نانسي فلمح لهوله ضحكة في عينيها . اتخذ قراره بسرعة حاسمة على استبدال طقوس الكآبة بطقوس احتفالية ، اهتبل اللحظة التاريخية الحرجة التي يتحدث عنها لينين ، وهتف مستجمعاً قواه وقدراته التمثيلية :

- في أي حال . . دعينا نحتفل باكتشافك لحقيقة هذا الممثل المزور . دعينا نحتسي كأساً بمناسبة خلاصك من الوهم ، وانتزاع القناع .

أطلقت نانسي ضحكة هستيرية وقالت ان منظر نعمان العموني مضحك . وأنه مهرج يبحث عن مناسبات مضحكة أو مبكية لاحتساء الخمر . لوح نعمان العموني بيديه ودار حول نفسه مقلداً حركات شارلي شابلن بطريقة خرقاء ، ثم هتف :

- اذا كان جمعة قد أقنعك بأنني انطوني كوين ، فبوسعي ان اقنعك انني شارلي شابلن .

وبينما فزع نعمان الى زجاجة الخمر ، أخذت نانسي رأسها بين يديها وقالت ان الحياة وهم وسراب ، وان الحقيقة الوحيدة في حياتنا هي الموت . فأخذ نعمان الزجاجة بين يديه وقال انهما ليسا بحاجة الى كؤوس . ثم اقتعد الارض ، وراح يحكي لها عن أمه التي فقدت عقلها بعد ان فقدت والده ، وعن والده الذي سكت قلبه بعد ان سكت العرب وجوماً وذهولاً حين مات عبد الناصر . وعن زوجته التي خيرته بينها وبين صحبة حنا الماشي المشهور « جوني ووكر » . . فمشت هي وظل « حنا » قاعداً في البيت . لأن حنا الماشي لا يمشي ! وراح يكذب ويمعن في سحب الأفلام ذات الطابع الهندي الميلودرامي حتى انتهى المشهد ، بأن ضمته نانسي الى صدرها وهي تطلق لدموعها العنان وتقول :

- آه يا طفلي المسكين . . كم عانيت ! انني آسفة !

واستغل نعمان المناسبة الميلودرامية فأراح رأسه الخفيف الثقيل على صدرها ، وأغفى !

نامت نانسي على الاريكة وظل رأس نعمان على صدرها . وكان صدره يعلو ويهبط ، وشخيره يرتفع ثم ينقطع ثم ينخفض . بغتة ارتفع رنين جرس الباب ، لكن نانسي التي فقدت اسطورة نعمان فقدت قدرتها على النهوض ، ونعمان الذي فقد توازنه فقد قدرته على سماع الجرس . وجمعة المستغرق في

التفكير بشخصيات روايته لم يسمع الجرس !

أطل « كثير الغلبة » برأسه من وراء النافذة وهتف بحدة :

ـ انها الخيانة العظمى . (ملاحظة : ما ان وقع بصر كثير الغلبة على جمعة فرآه شارداً سارحاً حتى أدرك انه يفكر في مصير بطلة روايته نانسي) .

لقد ضبط صديقه وصديقته متلبسين . وصاح :

ـ سوف اشكوكما لصاحب البيت . هذا بيت محترم . وصاحبه محترم . بيت ذو سمعة شريفة . وصاحبه شريف لا يسمح بـ . . . أنت أيها المتكىء بمرفقك على الطاولة وتجلس برفقة نانسي . . افتح الباب .

ثم ابتعد قليلاً عن زجاج النافذة وحدث نفسه متسائلاً :

ـ ولكن من هو صاحب البيت ؟

انتزعت الجلبة التي أثارها كثير الغلبة جمعة من أحلام اليقظة ، فاقشعر بدنه غيظاً .

أقفل مزلاج الباب . . وراح يلعن كثير الغلبة في سره .

* * *

مشهد من يوميات جمعة

الجزار قال ان عمان ليست الاردن . وأنه يستمع أحياناً الى قصص جمعة عن نعمان العموني فلا يستطيع لها فهماً . وأضاف وهو يمسح دم عجل عن ظاهر يده بلسانه ان « أدر » أو « الكرك » أو « الرمثا » او « السلط » أو « قفقفا » أو « الطفيلة » الخ . . تجسد روح الاردن اكثر من عمان . في تلك اللحظة هوى بساطوره على كتلة من اللحم والعظم ثم رفع يده نحو جبينه وجفف عرقه وقال بلهجة تنم عن سخرية :

ـ أنت طبعاً لا تعرف « الربة » او « أدر » او « الشوبك » . . أنت لا تعرف سوى عمان . وأنت لا تعرف ان كان هذا الساطور قد إنهال على بقرة أو خروف أو عجل او معزاة . أنت ابن حياة مترفة ونعيم . . . ولكن ما يحيرني هو أن هذا النعيم لا يظهر على ملامحك ، وهذا الترف لا يطل من عينيك ولا ينعكس على تصرفاتك .

ثم قبض بقبضته الجبارة على ذراعي وشدني نحوه ، فالتصقت بسترته الدامية البيضاء . همس في أذني بصوت مرعب اسود :

ـ هل انت هبيلة يا ولد ؟

ولم أكن أبله ولا ولداً . غير أنني غريب لا يحسن التأقلم والتكيف .

* * *

في واشنطن اخبرتني نانسي انها تحب كل شيء فيَّ . ابتداء من عيوبي وسلبياتي وانتهاء بايجابياتي . اعترفت لي بأني ساحر . وأنبأتني بأني مصدر الهام لها . شيخ قبيلة أقرب الى الفطرة النبيلة التي لم تفسدها الحضارة المادية . مقاتل شجاع وصاحب نخوة وشهامة لا يتردد في أن يتحول الى ملاذ لكل مستضعف او مطارد . يجير المظلوم والتائه والملاحق . متصوف زاهد في متاع الدنيا ومتعتها « ماي غاد » . . أنت الاستثناء . أنت خلاصي . كنت ابحث عنك منذ زمن بعيد . أنت الحصن المنيع والقلعة العصية . أنت أتيت على فنجان قهوتك وأنا أتيت على فنجان قهوتي لماذا لم تطلب كوبين آخرين ؟ وانت تتمتع بحصانة داخلية خرافية ، وتمتلك مناعة جوانية مبهمة . آه . . منذ طفولتي وانا أتطلع الى فارس نبيل ذي أعصاب فولاذية مثلك ، يدوس خطوب الحياة بنعله ، ويترفع عن الصغائر ، ولا تهز الانواء جهازه العصبي . كي يعيدني الى جذوري الصحراوية . فأنا من أصول عربية كما تعلم .

اهتز فنجان القهوة في يدي المرتعشة . كنت قد خرجت لتوي من عيادة الطبيب النفساني الانكليزي ، الذي اخبرني انني مصاب بانهيار عصبي .

في « الهايد بارك » التقيت نانسي ، كان شعرها الذهبي يشع في النهار الرمادي ، وكانت تتحدث الى بط البحيرة . قلت لها ان البط لا يعيش في الصحراء . وان الصحراء موطني . وأن مثل هذه البحيرة موجود في موطني ، لكنها بحيرات من السراب . ثم أشرت الى القوارب الصغيرة وقلت لها ان سفن بحارنا الرملية هي الجمال . فابتسمت ابتسامة تألقت في العينين ، وومض شعاع ساطع غريب في نظرتها . سألتها :

ـ هل تسمحين ان ادعوك لتناول كأس من الجعة في حانة قريبة ؟

أظلم وجهها الوضيء المشرق دفعة واحدة ، وأشاحت قائلة :

ـ أنا لا أحب الكحول . . ولا أحب الذين يتعاطونها .

ومثل ثعلب صياد يرغب في اقتناص ضحية بريئة ، انبعثت في اعماقي قوة شريرة ظيمية ترى في كل الحركات الخبيثة والمصطنعة والمزورة وسائل

مشـروعة لاقتنـاص الضحية . أطلقت ضحكـة هستيـريـة وقلت وأنـا أخفي سيجارتي في جيب معطفي :

- سبحان الله . . وأنا كذلك أكره الكحول ومتعاطيه . فأنا زاهد وروحاني ، وشيخ قبيلة عربيـة تهابهـا القبائـل المنيعة . غـير انني اعتقد ان النـاس هنا يلتقون عادة حول مائدة خمر في حـانة . وشـرحت لها بخبث وذكـاء شرقي مراوغ ان حدساً عبقرياً لا يتمتع بـه إلا البدو والـذين لم تقوض الحضـارة الغربية المادية حواسهم التي تفوق حواس الشخص المدني بعشرات المرات ، قـد جعلني على يقـين مسبق من أنها سترفض دعـوة الحانـة ، وستقترح ان ادعوها الى مقهى .

ومشينا ، شعرها يشع ، وعيناها تسطعان ، وأنا أكذب . أخبـرتها انني أتيت الى لندن كي أشاهـد بأم عيني الاستـلاب والاغتراب والتخـريب الذي يذهب ضحيته الانسان في العالم المصنع المادي الرأسمالي . لأعـود الى اخوتي الشـرقيين الـذين وقعوا في فـخ القيم الماديـة ، وشراك التلفـزيـون والاعـلام الغربي . . فأنقذهم من الوهم ، وأعود بهم الى الفطرة النبيلة .

كانت تتطلع الي بذهول . وكنت أكذب واسحب أفلاماً تذهلني . كنـا مـذهولـين ! نانسي معجبـة بأعصـابي الفولاذيـة . واعصابي الفـولاذية منهـارة متداعية . نانسي تقول وهي تحتسي فنجان النسكافية الثاني أنها تتطلع الى رؤيتي بلباسي العربي الساحر على رأس قبيلتي ، وأنا مقطوع من شجرة . . لا قبيلة لي ولا عصبية . نانسي المغرمة بقطع الحلوى ، مغرمة بمعرفة المزيد عن الصوفية ، وأنا لست متصوفاً ، وإنما أنـدفع عـادة الى الاستغراق في الشهـوات والملذات والخمر . . حتى الادمان وضرورة السعي الى علاج .

قلت لنفسي أنني أمثـل دوراً . أتسلى . ثم اعـود الى عمان . وتنقـطع الصلة . لا من شاف ولا من دري . هي تفرح بالحلم الكاذب ، وأنـا أتسلى بلعب دور بطل طالما حلمت بأن اكونه . . دون جدوى .

ولم أعـرف ان نانسي سـوف تلحق بي الى الاردن ، لتصـطدم بحقيقتي المفجعة !

ملاحظة : أين أجعل نعمان يتعرف الى نانسي . . في لندن أم واشنطن ؟

* * *

اني أعرف تفاصيل التفاصيل عن حياة نعمان العموني . انه يدعي الرصانة ، ويتكلف الوقار ، وهو في أعماقه صعلوك يهزأ متشائماً من جدية العالم .

نعم . نعم . أعرف أن نعمان العموني يعيش حياة انتحارية وانه يحتسي عشرين فنجان قهوة ، وثلاث علب سجائر ، ونصف زجاجة خمر في اليوم الواحد ، وانه لا يمارس أي رياضة على الاطلاق ، باستثناء التثاؤب ! لا تقولوا لي أنكم تعرفونه أفضل من معرفتي به . لقد كان صديق العمر . وإن كان ينكر هذه الحقيقة ويتناساها بدافع من الحفاظ على ماء الوجه . كنت مغرماً بكلوديا كاردينالي وكان على علاقة غرام وانتقام بنادية لطفي . . هكذا من بعيد لبعيد . من طرف واحد . وذات مرة قرأ رواية « آنا كارنينا » فتولع بها . قلت له ونحن نتسكع في شارع الامير محمد ، انني سوف احب نادية لطفي وانصرف عن الايطالية كلوديا كاردينالي ما دام هو قد انصرف عنها ، ووقع في غرام وانتقام « آنا كارنينا » التي قذفت بنفسها تحت عجلات القطار . فإذا به ينتزع ذراعه المتشابك بذراعي ، ويحدجني بنظرة ملتهبة كاد اوارها يحرق وجهي ثم صرخ كالمجنون :

ـ اسمع حبيبي . . احنا عرب . . والشرف والعرض أهم من الارض .

وافهمني وهو يرتعش والزبد ينتثر من فمه ان ناديا لطفي محسوبة عليه وان أضاف اليها آنا كارنينا ! واقنعني ان من حق العربي ان يقع في غرام أربع نساء دفعة واحدة .

اعتذرت مغمغماً بحزن من فاتته فرصة نادرة ، واجتزت الشارع ووقفت

امام دكان الارمني « غارو » وطلبت قطعة « أيس كريم » . وكانت بيضاء لذيذة مثل آنا كرنينا .

* * *

قلت لنعمان العموني :

ـ أنت لا تعرف الكرك .

قال بلهجة انتقامية :

ـ وأنت لا تعرف الرمثا . ولا جبل « النزهة » !

* * *

وعلق كثير الغلبة وهو ينفخ يائساً ان أموري تستفحل ، وأن عجزي على التصالح مع نفسي وعقد معاهدة سلمية مع الحياة دفعني الى تحويل نعمان العموني من مشروع شخصية روائية في الذهن الى شخصية واقعية ابصرها واتحدث معها مع أنها غير موجودة . ونصحني بزيارة طبيب نفساني . ونترت زوجته زهرة رأسها محتجة مستنكرة وقالت ان العالم المتخلف هو الذي لا يتيح لي المجال كي أتصالح معه . وان ظروف البلد والفساد والفوضى والمحسوبية ووو . . . هي التي تدفع انساناً حساساً رهيفاً حتى تخوم المرض . . . الى الاغتراب والغربة والوحدة الضارية والوحشة الكثيبة . وغمرني شعور بأن زهرة تختلف عن بقية الناس . وتمنيت لو كانت أمي !

* * *

مشهــد :
جمعة والغلباوي يتصعلكان

عادا الى جبل اللويبدة الهادىء . قال « كثير الغلبة » أنه يحب التسكع في جبل اللويبدة ، ليرى مدرسة « التيراسنطة » . وكان الناس قد أووا الى بيوتهم يقيلون . قال جمعة وهو يكتم ضحكة ساخرة :

ـ وما الذي تثيره المدرسة في نفسك من ذكريات سوى الذكريات المرة .

دس كثير الغلبة يديه في جيبي سرواله ، وقال انه كـان طالبـاً ممتازاً وذا شعبية بين الطلاب . دلف كلاهما الى مطعم « الفروج الذهبي » وارتقيا الدرج نحو الطابق الثاني . اتخذا مجلسيهما الى طاولة منزويـة في الركن وطلب « كثـير الغلبة » زجاجة ويسكي . اعترض جمعة وقال للنادل :

ـ لا . . ربعية فقط .

ثم التفت الى « كثير الغلبة » وقال :

ـ ثم عينك المدير عريفاً للصف . . ففقدت شعبيتك . كان الطلاب يحبونك لأنك مشاغب .

ضرب « كثير الغلبة » على الطاولة وقال بحدة :

لا تكسر كلمتي . زجاجة كـاملة يعني زجاجـة كاملة . أنـا لم أفقد شعبيتي أبداً . ورجاهما النادل وهـو يبتسم ابتسامـة مصطنعـة ان يتفقا عـلى حجم الزجاجة وإلا فقد عمله كما فقد كثير الغلبة شعبيته . وأكد جمعة أنه لا يحب

الخمر ، وأن الطلاب صاروا يصفون « كثير الغلبة » بالجاسوس الخائن لأنه وافق على ان يتعاون مع ادارة المدرسة ، وأن يقوم بدور العريف الذي يشي بأسماء الزملاء غير المنضبطين . كان كثير الغلبة يحشو غليونه بالتبغ ، ويحشو فمه بالكلمات . نفث دخان غليونه في وجه النادل ثم نفث الكلمات في وجه جمعة . وقال في محاولة للاحتيال على جمعة واستغلال جهله بتفاصيل الحياة :

- حسن . سنختار حلاً وسطاً . اجلب لنا لتراً من الويسكي . . أنت يا اخي « خالف تعرف » ثم غمز بعينه النادل . فابتسم النادل . أما جمعة فقد تنفس الصعداء وهو يحسب ان ليتر الويسكي أقل حجماً من زجاجة كاملة .

التفت كثير الغلبة الى النافذة فلاحظ ان الشمس قد ألقت على الارض وهجاً متألقاً ، ولكنه ثقيل همد له كل شيء .

قال جمعة أنه كان ينافس صديقهم القديم ماهر زكي على مركز الطشي ، وأن « كثير الغلبة » كان يرفض أن يغشّشه في الامتحانات . وجاء النادل وهو يحمل زجاجة الويسكي . اقشعر بدن جمعة وقال ان « كثير الغلبة » طلب ليتراً ولم يطلب زجاجة كاملة . ابتسم النادل الخجول ذو الصلعة الوضيئة والوجه الأسمر وشرح لجمعة ان الليتر والزجاجة الكاملة شيء واحد . ثارت ثائرة جمعة وزعق في وجه كثير الغلبة :

- أنت غشاش . لم تكن تغششني أيام المدرسة . أنت مسؤول عن سقوطي في الصف السادس الابتدائي . وأنت مدمن كحول .

أطلق كثير الغلبة ضحكة جلجلت في أذني جمعة ثم أشعل غليونه ، وراح يراقب النادل وهو يهيىء الشراب في كأسين . وقال :

- بلا ماء اذا سمحت . . أون ذي روكس !

وجاءت المازات ، وجاء زبائن آخرون ، وجاء جمعة العقل الاعوج فقال لكثير الغلبة مناكفاً انه كان أنجح منه في مجال اقامة العلاقات مع بنات المدرسة الحكومية .

علق كثير الغلبة وهو يبتسم بسخرية أن بنات المدرسة الحكومية « مش بنات » . وان جمعة كان يرتعش كلما نظرت اليه فتاة ، وانه كان يلتخم ويرتبك ، ويبحث عن مكان يخفي فيه يديه .

ودارت الكؤوس والرؤوس ، وجمعة الذي لا يستسيغ الشرب عادة ، أفرط في تناول الكؤوس وقال ان كثير الغلبة يزوّر التاريخ . أكد « كثير الغلبة » أن الحبيبة الوحيدة التي وقع جمعة في غرامها هي الممثلة نادية لطفي أو كلوديا كاردينالي أو آنا كارنينا . وقال متضاحكاً :

- حب من طرف واحد طبعاً .

قال جمعة والغضب يضطرم في صدره :

- أنت كنت تحب آنا كارنينا بطلة تولستوي . أما أنا فحبيبتي لم تكن بطلة روائية اخترعها خيال تولستوي . أنا أحببت امرأة من لحم ودم . صحيح ان نادية لطفي ممثلة وانني لم أرها في حياتي مباشرة ، إلا انها من لحم ودم .

فصححه الغلباوي قائلاً ان جمعة هو الذي احب آنا كارنينا . وان ذاكرة جمعة تخلط الحابل بالنابل وقال أما محسوبك فلم يؤمن بالحب منذ مراهقته . وذهل جمعة اذ اكتشف ان الغلباوي بلا قلب ولا يحب زوجته الفاضلة الوضيئة زهرة . . وأحس جمعة بالحزن والاسى .

وخرجا أحدهما يترنح والثاني يناكف وحين مرا بشرطي يقف في كوخ خشبي لحراسة عمارة ما . قال جمعة متضاحكاً ان هذا الشرطي يقف في هذا الكشك منذ سنوات ، وقال بصوت مرتفع :

- لو كنت مكانك لطورت الكشك وحولته الى مخفر للشرطة . التطور سنة الحياة يا اخي . وعلق بصوت هامس ان هذا الشرطي يفتقر الى التطلعات البورجوازية ثم التفت الى كثير الغلبة وسأله ان كان يفرق بين بنات المدارس الحكومية وبنات المدارس الخاصة .

رفع كثير الغلبة حاجبيه دهشة فبرزت عيناه الزائغتان . قال :

- لماذا خطر هذا السؤال على بالك ؟ فذكره جمعة بقوله عندما كان في المطعم . قال :

- أنت قلت لي بلهجة لا تخلو من استهتار . . أن الطالبات اللواتي كنت ألاحقهن لسن سوى طالبات مدارس حكومية .

أطرق الغلباوي ملياً . ثم بحث في جيبه عن علبة ثقاب . وقال :

- لا أتذكر انني قلت ذلك . لا يمكن ان اقول ذلك . تذكر انني مع الكادحين .

ولم يعثر الغلباوي على علبة ثقاب . فقال لجمعة ان كان يعرف ثمن كيلو اللحم ، أو علبة السمنة ، أو علبة الثقاب . وقال انه دفع ثمناً باهظاً نتيجة مواقفه السياسية (!) توقف جمعة على نحو مباغت كأنما اكتشف لتوه اكتشافاً خطيراً ، وقال وقد تجهم وجهه :

- أنت تنتحر . نمط حياتك نمط رجل يرغب في الانتحار البطيء . تفرط في الشراب والتدخين . كان جمعة يعد نفسه لرد فعل فيه غضب ممزوج بالاستنكار حفاظاً على ماء الوجه . لكن « كثير الغلبة » قال بلهجة حيادية باردة :

- أعرف ذلك .

ولم يتساقط ماء وجهه . خيوط عرق لامعة كانت تنحدر على خده الأيمن . . هذا كل شيء . فسقطت ذقن جمعة على صدره وهو يغمغم انه لا يعرف اسعار اللحم او السمنة او اي شيء آخر ، لأن اخته عائشة هي التي تتسوق وتزوده بالحاجيات الضرورية .

وأكد جمعة مذكراً أنه لم يكسر كلمة كثير الغلبة في المطعم . وأن الكلمات تزور ولكنها لا تنكسر . وقال ان تركيبة جبل اللويبدة الطبقية والاجتماعية تبدلت تبدلاً جوهرياً . وان اصحاب المجوهرات من أبناء الجيل الجديد بالطفرة المشمشية ، هجروا الجبل ليسكنوا في عبدون وأم أذنية تاركين العجائز

والشيوخ في بيوت الجبل القديمة .

هز الغلباوي منكبيه وقال أن جبل اللويبدة جبل عجوز . وان منطقة الشميساني التي كانت قفراً باتت مركز استقطاب الجيل الجديد والدماء الجديدة . ثم اقترح على جمعة أن يمضيا الى أحد مقاهي الشميساني .

أوقفا سيارة أجرة ، جلس الغلباوي في المقعد الخلفي ، بينما اتخذ جمعة مكانه قرب السائق . التفت جمعة بعد ان نجح في لي عنقه واتهم ذاكرة الغلباوي بأنها مخروقة ومليئة بالثقوب . تنحنح الغلباوي وراح يدندن اغنية ويمد بصره من نافذة السيارة . قال :

ـ أما أنت فلا ذاكرة لك على الاطلاق . أنت صاحب مخيلة وحسب . وأنت تستخدمها بديلاً عن الذاكرة الملغية .

وأصر على ان جمعة يعتمد على مخيلته . أشعل الغلباوي غليونه ، فانتفض السائق وقال :

ـ ممنوع التدخين في السيارة .

وأكد ان سحب الدخان التي تنطلق من الغليون سوف تنعقد ، وسينهمر مطر النيكوتين داخل السيارة ، بينما تشعشع الشمس في الخارج . لكن الغلباوي ركب رأسه وتجاهل ملاحظة السائق .

* * *

ثمة رياح باردة تعبث بشعر جمعة القفاري ، وتقرص صلعة أحد المارة وتلحمس عليها ، وتداعب فستان وداد .

قالت عائشة وهي تنقر بأصابعها الرشيقة على الآلة الكاتبة وتترجم ان وداد تنتمي الى عشيرة ذات شوكة وبأس ومنعة . وحذرته من اكتشاف اخوانها للعلاقة بينهما . قالت دون ان ترفع رأسها عن الآلة الكاتبة :

ـ سيفتحون شوارع في وجهك .

هز جمعة منكبيه . وتساءل عما اذا كان اخوة وداد وابناء عمومتها يعملون في أمانة العاصمة . توقفت عائشة عن عملها ، ورفعت اصابعها عن الآلة الكاتبة ، ثم رفعت عينيها دون رأسها نحو جمعة وسألته برصانة :

ـ لا . لماذا تسأل ؟

دسّ جمعة يديه في جيبي سرواله وقال انه يسأل لأنها قالت انهم مغرمون بفتح الشوارع في وجوه الناس . برمت عائشة شفتها السفلى ، لم تضحك . عادت اصابعها تنقر على الآلة الكاتبة . وقالت ان اخوان وداد لطفاء لكنهم لن يسمحوا لها باقامة علاقة مع رجل غريب .

قالت :

ـ لا تنْسَ انها متزوجة . وان اخوانها يصرون على عودتها الى زوجها .

ضرب جمعة قبضته بالجدار غضباً وقال ان العلاقة بينه وبين وداد بريئة ، وانه لا يخشى بطش اخوانها . فهو لا يخاف ولا يحسب حساب اي شيء . واكد انه لا يخاف السباحة ولا الاماكن المرتفعة ولا المغلقة ولا يخاف العتمة ، ولا يخشى العزلة ، ولا يميل الى الاحجام . ثم أكد انه ليس مقطوعاً من شجرة . وان كثير الغلبة ابن عمه يلازمه معظم الوقت .

قال : وانت تعرفين القوة الجبارة التي يتمتع بها . انه قادر على حمايتي !

ابتسمت عائشة ولم تلتفت . بدت وكأنها تبتسم لما جاء في الورقة التي تطبعها وتترجمها . لكنها لم تكن تبتسم للصفحة . وانما لأنها تعرف ان جمعة يقول ما يقول من باب المبالغة والاعتداد بالنفس . وكانت صفحة وجه جمعة شاحبة .

بغتة انفتح الباب وهجمت مجموعة من اولاد وبنات عائشة على جمعة ، كأنهم شياطين انبثقوا من باطن الارض . امرتهم أمهم بالعودة الى الحديقة واللعب فيها . . فتجاهلوا امرها . قال احدهم لجمعة :

ـ احك لنا حكاية « نعمان العموني » .

وقال آخر :

ـ احك لنا لماذا تسميك ماما ، دون كيشوط أو عون الكياشطة . . مع ان اسمك جمعة ؟

وقالت ثالثة :

ـ أريد ان امتطي ظهرك .

ودون ان يستشيره احد منهم ، بدأ الاولاد يتسلقون ذراعيه ومنكبيه وحط احدهم على رأسه ، وشبك ساقاً على ساق . ظل جمعة جامداً في مكانه على الكنبة القديمة . قال ، بينما تدلى حذاء الولد الذي يتربع على رأسه فحجب عنه الرؤية ، إنه سوف يبيع دونماً آخر من الاراضي . وانه سيقسمه مناصفة بينه وبين عائشة .

أظلم وجه عائشة ، وانقبض قلبها فما نبست . هذه طريقة عائشة الخاصة في التعبير عن رفضها !

* * *

كثير الغلبة قال إن عائشة سوف ترفض المبلغ .

ثم سأل جمعة :

ـ لماذا ترغب ببيع الدونم . . هل عزمت على ان تتزوج مرة أخرى ؟

أشار جمعة الى اللمبة المحترقة في سقف الغرفة . قال انها اعطبت منذ يومين . ومنذ يومين وهو يتوقع مجيىء كثير الغلبة كي يستبدلها بواحدة صالحة . . ضرب كثير الغلبة كفاً بكف وقال :

ـ حتى اللمبة تعجز عن استبدالها ، أو أنك تتكاسل .

ثم تساءل وهو يحضر مقعداً ويرتقيه ليفك اللمبة :

ـ ماذا كنت ستفعل لولاي ؟ لماذا لا تعود وتعيش مع عائشة ؟ انظر الى حالة شقتك . انها مزرية .

ونزل عن المقعد وقد انتزع اللمبة المعطوبة ، وسأل جمعة :

- لماذا تريد بيع الارض ؟

قال جمعة أنه لا توجد لمبة اخرى صالحة في الشقة . ثم اضاف :

- سأفتح مكتبة . أبيع الكتب وأقرأها في آن .

وسأل كثير الغلبة ان يمضي لشراء لمبة جديدة . علق كثير الغلبة وهو يهم بمغادرة الشقة :

- أراهن أنك لا تعرف كيف تشتري لمبة .

وراح كثير الغلبة يتخيل جمعة وهو يطلب خمس لمبات من البائع . كان يتخيل المشهد بصوت مرتفع :

- ستقول له : أعطني كيلو لمبات لو سمحت . هيء . . هيء . . هيء .

كتم جمعة غيظه وقال ان كثير الغلبة يبالغ .

أحس كثير الغلبة بالتحدي . فوجه سؤالاً لئيماً مقصوداً مبيتاً ، الى جمعة . قال :

- حسن ، سوف أشتري لك لمبة صالحة . . كم شمعة تريد ؟

رفع جمعة حاجبيه دهشة وقال مستنكراً :

- يا رجل أقول لك لمبة ، تقول لي شمعة !

أطلق كثير الغلبة ضحكة ساخرة متشفية وقال :

- اللمبات ذات شمعات مختلفة . هناك ام العشرين شمعة ، وأم الستين شمعة . . الخ . . .

ارتج على جمعة ، واجتاحه احساس بأن هذا العالم معقد جداً ويتأبى على الفهم . وان فهم فلسفة « هيغل » أيسر من فهم مسألة اختلاف شموع اللمبات . رغم ان جمعة لا يفهم فلسفة هيغل طبعاً .

* * *

مشهد : استجمام في المستشفى !

قلت لنفسي :

« ينبغي يا جمعة ان تخرج من عمان ، أن تشم الهواء ، في منطقة او مدينة لا يعرفك احد فيها » ، وهذه مسألة سهلة بالنسبة لنكرة مثلي . وسرعان ما طاوعت خاطري هذا ، وقلت : « حاضر » .

غير أني تريثت قليلاً حين تذكرت تجاربي المرة في العقبة . فقلت لنفسي يا جمعة انك سوف تلتقي بأناس من المعارف ، وانهم سيفسدون عليك خلوتك وعزلتك ، كما حدث لك في العقبة . فهززت رأسي موافقاً ، وأجبت نفسي قائلاً :

- لا بد يا جمعة من التفكير بحل مبتكر .

فرددت قائلاً :

- موافق . (ملاحظة : أرجو ان يلاحظ من يقرأ هذه الأوراق انني اكلم نفسي !

وقلبت الأمر على وجوهه . بغتة لمعت في رأسي المظلم فكرة مبتكرة . قلت :

- اسمع يا جمعة ، خطر ببالي خاطر يضيء الظلمات بنوره .

قلبت شفتي السفلى وقلت لنفسي :

ـ سأقضي اسبوع الاجازة هذا في مستشفى !

أعجبتني الفكرة ، ففكرت في تعديلها وتطويرها . قلت :

ـ ولماذا تقضي اسبوعاً في مستشفى واحد ؟ لماذا لا تقضي ثلاثة ايام في مستشفى الخالدي ، وثلاثة ايام في مستشفى الشميساني للتوليد . وقلت لنفسي مستسخفاً بعض خواطري الهوجاء ان مستشفى الشميساني للتوليد لا يستقبل حالات الولادة فقط . ثم لعلي أنجب فكرة روائية في مستشفى الولادة !

. . . وهكذا فعلت .

مضيت الى مستشفى الخالدي بحجة اجراء فحوصات عامة . آه . . كم شعرت بالغبطة حين ادخلوني الى غرفة هادئة ، وتحلقت حولي الممرضات الحسناوات : « بيض الحمائم حسبهن . . الخ » لكن ابن الحرام صديقي كثير الغلبة ظل يبحث عني على طريقة شرلوك هولمز الى ان عثر علي فقال :

ـ لو قلت لي عن مشروعك هذا ، لأتخذنا غرفة من الدرجة الثانية ذات السريرين . . وتسلينا .

أغمضت عيني ورحت أستمع الى الموسيقى الهادئة المنطلقة من ممرات المستشفى (عجيب أليس كذلك ؟) ونسيت « كثير الغلبة » .

قلت لنفسي :

ـ يا جمعة هذا المستشفى اشبه ما يكون بفندق ذي خمسة نجوم .

فقال كثير الغلبة :

ـ أنا لست جمعة . . أنت جمعة ! وهذا ليس فندقاً وانما مستشفى ! « أخو الشلن » انه لا يعرف انني افكر بصوت عال ، وأحادث نفسي . ليأخذ « بريزة » ويحل عن ظهري .

ولأن كثير الغلبة يحترف تكدير مزاجي حين أكون منتشياً . فقد علق قائلاً :

كيف ستسدد فاتورة المستشفى ؟ هل ترغب في بيع قطعة أخرى من الارض ؟ بوسعي ان أعثر على مشتر ان دفعت لي اجرة السمسرة !

* * *

جمعة في المستشفى . . كالعادة !

قال « كثير الغلبة » رداً على سؤال أو اتهام لم اوجهه له على الاطلاق .

ـ كان امامي ثلاثة خيارات حين عدت الى الاردن .

أنـا الآن في مستشفى الخـالـدي لـلاستجمـام . المـوسيقى تنبعث من الممـرات . وكيس « الغلوكوز » معلق فـوق رأسي ، بينـما يتـدلى منـه أنبـوب بلاستيكي يفضي الى ابرة مغروزة في ظاهر يدي .

استطرد كثير الغلبة :

ـ اما ان انزل تحت الارض ، واما ان أعتكف وأزهد في الحياة العامة ، واما ان اشتغل في الصحافة وأخوض في الحياة العامة ، دون تنازلات . . ولكن ان اتحرك في المقابل ضمن الهامش المتاح .

ألحت عليَّ غازات تراكمت في امعائي ، وراحت تتخبط في هذا المصران وتتدحرج في ذاك باحثة عن مخرج ! لكن « كثير الغلبة » يروي قصة حياتـه ، وكله آذان صـاغية ، وأنـا لا استطيـع ، لأنني احترم نفسي . ثم ان النـافـذة مغلقة . حبست الغازات والريح في بطني . وما كنت اصغي لقصة حياة كثير الغلبة . هو كان يحكي ويستمع الى حكايته . كان يجلس على طرف السرير . وبما انني أوليته ظهري كي لا استمع الى ثرثرته ، فقد كـان يجلس تمامـاً قرب مؤخرتي ! والنافذة موصدة ، وأنف « كثير الغلبة » كبير . كـان ينحني بوجهـه المستطيل فيحدق الي بين الحين والآخر ، ليتأكد من أنني أستمع الى حكاياته .

وحين يرى جفني انطبقا ، يسارع الى لكزي ويقول بالحاح :

ـ سامع ؟

قال وهو ينحني فوق رأسي :

ـ ملامحك تشي بأنك تعاني من وجع مكتوم .

هل استدعي الطبيب ؟

أومأت برأسي بالايجاب . كنت عاجزاً عن الكلام ، بعد ان قلصت كل عضلاتي كي احبس الريح المزمجرة في بطني . ما ان غادر الغرفة حتى تنفست الصعداء ، ونفست بطني . وحين عاد « كثير الغلبة » مصطحباً الممرض .

قال :

ـ قل للممرض ، بصراحة ، مم تشكو .

سألني الممرض :

ـ أي خدمة ؟

قلت بلذة واستمتاع :

ـ نعم . افتح النافذة .

وكان عويل رياح بطني قد توقف بعد أن غادرت معدتي .

فتح الممرض النافذة ، فخرجت الرائحة منها ، ثم انقلب الممرض على عقبيه وخرج من الباب . وظل « كثير الغلبة » يلازمني مثل هواجسي ، حتى حسبت انه قدري وقضائي .

حدثني كثير الغلبة وهو يعود الى الجلوس على طرف السرير قال :

ـ وهكذا قررت ان اقبل عرض رئيس تحرير الصحيفة . . و . . .

أرسلت شخيراً لم اسمعه ، لأن سلطان النوم اللذيذ تسلط على حواسي .

إلا أنني كنت أراه في كابوسي يحكي ويحكي بيديه ويكمل حديثه باشاراته !

* * *

فتحت عيني فإذا بي أرى كثير الغلبة يشير بيده الى النافذة ويقول :

ـ هناك كان عبدالله الريماوي . . في القاهرة .

تطاول عنقي وحدقت الى حيث يشير « كثير الغلبة » فرأيت منطقة « عبدون » . ثم ثنى كثير الغلبة ذراعه وجعلها تهبط نحو الأرض ، وأشار باصبعه الى البلاط . وقال :

ـ ثم عاد الى هنا .

انحنيت لارى الموقع الذي يشير اليه فإذا هو ارض الغرفة . وطرق صوته مسامعي من جديد :

ـ هذه ميزة الاردن . العفو عند المقدرة . ثم عينوه في المجلس الاستشاري . لم يطالبوه بتسديد فاتورة واحدة .

وظل اصبعه مدلى يشير الى ارض الغرفة . سألته ببراءة إن كان عبدالله الريماوي قد دخل الى مستشفى الخالدي ونزل في هذه الغرفة . فأظلم وجهه وقال :

ـ لا . . « هنا » . . تعني عمان .

لكن اصبعه كانت تشير الى ارض الغرفة . تغاضى « كثير الغلبة » عن سؤالي وغالب امتعاضه وسأل بفضول واضح :

ـ لماذا ذكرت لي ان نعمان العموني ، بطل روايتك التي لم تكتب بعد ، التقى كل الشخصيات التي صاغت تاريخ الاردن في الخمسينات . . ولم تجعله يلتقي عبدالله الريماوي ؟

انتظر اجابتي بنفاذ صبر ، ولما عيل صبره أخبرني بالسبب قال :

ـ أنا أعرف . لأنك ، أنت ، لا تعرف تاريخ الاردن . ولا تعرف من هو عبدالله الريماوي على وجه الدقة .

ثم تنهد بحسرة وقال اننا بلد بلا ذاكرة . . فاستسلمت للنوم مرة

أخرى ، وأنا لا أفهم . وحين فتحت عيني سمعته يقول :

ـ ولكنك لم تسألني لماذا لا أكتب باسمي الحقيقي ؟

وانتظر سؤالي ، غير ان لساني أمسك في مكانه تعباً . فبادر الى القول :

ـ السؤال يجول في خاطرك . أليس كذلك ؟ إني أقرأه في عينيك . أنا سأجيب عن السؤال الذي لم تسأله .

وقال وهو يشير بأصبعه الى فوده دلالة الذكاء والفطنة انه يفضل الكتابة بأسماء مستعارة .

قلت بخبث وأنا أتقلب على السرير :

ـ ربما كنت بكاملك شخصاً مستعاراً .

أطلق ضحكته الأليفة وقال :

ـ مثل بطل روايتك التي تحدثني عنها ولا تكتبها : « نعمان العموني » .

نهض عن السرير وراح يذرع الغرفة وهو يشبك يديه وراء ظهره بخطى عصبية واسعة متلاحقة ، كأنما يبحث عن سؤال ، فكثير الغلبة يعبر عن وجوده بالعبارة التالية : « انا أسأل . . إذن انا موجود »

توقف بغتة فتوقفت نظراتي عن ملاحقته المتعبة ، حدق إلي ملياً وسأل :

ـ ألم تكن محاسباً في احدى الشركات ؟

أومأت برأسي ان : نعم .

أطلق ضحكة مجلجلة . وحدق الى فضاء الغرفة بنظرات تفتش عن سؤال آخر . نظرات أشبه ما تكون بيد متحفزة على وشك ان تنقض على ذبابة مزعجة وتقبض عليها . ثم تسحقها !

ـ وهل كنت تحاسبهم .. فعلاً ؟

لا بد أن تحتمل أعصابي « كثير الغلبة » . لا بد . فهو جزء لا يتجزأ من حياتي . ولكن كيف ؟ . . ارشدوني .

* * *

هكذا سمع جمعة خواطره تتحدث بصمت !

* * *

مشهد : ساعة في حياة جمعة

سألت عائشة إن كانت تشعر فعلاً ان المرأة العربية مستلبة . فهزت رأسها ، ثم هزت وعاء الرز فالتقطت حبات فاسدة ورمت بها الى سلة القمامة . وقالت دون ان ترفع رأسها او عينيها :

ـ طبعاً . انا لم اعرف المتعة مع زوجي . . لا على الصعيد الفكري والعاطفي ولا على الصعيد الآخر . . لا لم اكن اشعر معه بالمتعة لا في الليل ولا في النهار .

ويتضرج وجهي . ما هكذا تتكلم الأخت مع أخيها . . بهذه البساطة والصراحة ! غير معقول . كيف تسمح لنفسها ؟ تتحدث عن هذه المسألة الخاصة كأنها تتحدث عن رياح التغيير التي عصف بالمعسكر الاشتراكي ، كأنها تحكي عن مسألة علنية تتناقلها وكالات الانباء . رفعت رأسها دون ان تهزه ، وتوقفت عن هز الغربال الصغير . حدقت الي وقالت وكأنها تقرأ ما يجول بخاطري :

ـ أنا صديقتك . . مش اختك بس !

لا . لا . لا يجوز . ثم . . ثم . . ثم . . زوجها مناضل ولا يصح الحديث عن رجل ناضل في سبيل التحرر بهذه الطريقة . صحيح انه تقاعد وسافر الى دولة خليجية وشغل نفسه بجمع ثروة . ثم انه مهتم بالتاريخ مثل بطل روايتي « مغامرات النعمان في شوارع عمان » الذي أتخيله وهو يقابل عبد

الرحمن شقير وبهجت ابو غربية ومنيف الرزاز وشاهر ابو شحوت وسليمان الحديدي ويعقوب زيادين . وغيرهم . . يسألهم عن الخمسينات في الاردن لأن نعمان العموني لا يجهل جغرافية الاردن حسب ، وانما يجهل تاريخه ايضاً .

اختي عائشة قالت أنها معجبة بجرأة « الجنسويات » لكنها ليست منهن . كنت أجلس على كنبة ، وكانت هي تقتعد الارض . ثم جاء أحد اولادها وفز ثم وثب ثم جلس على منكبي ودندل ساقيه . شعرت اننا نكون ثلاث طبقات . هي على الارض ، وأنا على الكنبة ، وابنها على منكبي .

ثم أقبل الليل وما كانت تفوح منه رائحة افريقية . الليل زنجي رائحته مثل رائحة المدينة . . التي لا رائحة لها . سأكتب (في يوم من الأيام) عن مغامرة قام بها نعمان العموني في جزيرة افريقية . سأصوره وكأنه اكتشف هذه الجزيرة الافريقية السوداء بالصدفة ، مثل السندباد او المستر كريستوفر ، وكانت للجزيرة رائحة لا تشبه رائحة البيض . رائحتها مثل رائحة هذا الليل الزنجي المذهلة . نعم ، سأجعل نعمان العموني يخوض كل المغامرات التي حلمت بها . . ولم أحققها . سيرجمني النقاد بكلمات حادة كحجارة الصوان . سيقولون هذه الرواية تقليد فاشل لرواية « السندباد » في « ألف ليلة » أو ان شخصية نعمان العموني تحاكي بشكل مبتذل شخصية دون كيشوت ، أو عون الكياشطة . ولكن . . طظ . اراهن ان احداً من النقاد لن يقرأ رواية نكرة مجهول مثلي . هذه احدى ايجابيات كوني نكرة .

. اريد ان « أعملها » في الحمام !

جاء صوت الولد الجالس باسترخاء على منكبي !

* * *

مشهد : جمعة متصوفاً

سرعان ما أدرك جمعة القفاري ان المستشفيات ليست مصدراً للسكينة الداخلية التي ينشدها بلا جدوى . ولا مسرحاً لتجارب غنية قد تقدح الشرر الخلاق في خيال الكاتب . بالاضافة الى عجز الأطباء عن معالجة قلقه أو اكتئابه أو ملله !

خرج جمعة من مستشفى الشميساني للولادة ، دون ان ينجب فكرة واحدة تصلح لانجاز روايته : « حكايات النعمان في شوارع عمان » . مضى الى شقته الصغيرة ، وأوصد الباب على نفسه ، وظل حبيس الشقة ثلاثة ايام ولياليها ، مضرباً عن الطعام ، وحلاقة ذقنه . . والنوم .

قال لنفسه :

ـ أنا حردان .

وتربع على سريره ، وظل يحدق الى الجوار ، لا يفتح الباب حين يسمع طرقاً . ولا يفزع الى الهاتف حين يسمع رنيناً ، ولا ينشط ولا يزول ولا يميل .

في صباح اليوم الرابع ، وكان يوم جمعة ، نهض كالسائر في منامه وحلق لحيته ، ثم سخن ماء الحمام ، ووقف تحت « الدوش » ، الذي انهمرت منه مياه كاللهب ، وقفة مسمار مزروع في ارض صلبة . ظل واقفاً تحت الماء ، جامداً لا يتحرك ولا يومىء ولا ينحني كأنه كائن عجيب يسيطر عليه سحر غامض . ثم غادر حوض المياه دون ان يستخدم الصابون او الليفة . وقف امام

المرآة يحدق الى نفسه كأنه استسلم لصورته وراح ينتظر ان تتحرك فيتحرك . حين قرصه البرد صرخ ثم دخل في ملابسه دون ان يجفف جسده البليل .

خرج الى الشارع . حدق الى السماء . ثم أشار بيده الى سيارة أجرة . وجد نفسه يقول للسائق بلهجة محايدة :

ـ السلام عليكم . . حي نزال . . دار القرآن من فضلك .

التفت اليه السائق بعينين لاحت فيهما نظرة دهش . وسأله بين الجد والهزل إن كان قد خرج لتوه من بركة سباحة .

دلف الى دار القرآن ، قدم تتأخر وقدم تتقدم ، خطوة الى الوراء وخطوة الى الامام .

في تلك اللحظة ازف موعد صلاة الظهر ، دخلت مجموعة من الناس، فإذا بالمناكب تدفعه في يسر ورفق ، واذا به يعثر على نفسه داخل المسجد بعد ان ارتقى الدرج دون أن يعي ذلك .

الظهيرة في عزها ، والظلام في قعر عينيه وفي أعماقه السحيقة . حين أذن المؤذن ارتبك جمعة ، وكاد ينزوي في ركن قصي ، لكنه سمع الشيخ يدعو الى رص الصفوف . تلفت حوله حائراً مضطرباً ، فإذا بعينيه تصطدمان بوجه شيخ شاب ذي لحية سوداء كثة وثياب وعمامة توحي بأنه هندي . لكن وجه الشيخ الشاب كان وضيئاً ، ابتسم الشيخ ابتسامة مشرقة بثت الطمأنينة في نفس جمعة . تقدم الشيخ من جمعة ووقف الى جانبه ملتصقاً به . همس في أذنه وقد ابرقت عيناه :

ـ تصلي لأول مرة في حياتك ؟

تضرج وجه جمعة وقال على استحياء :

ـ كنت اصلي وأنا طفل . . لكنني نسيت . . يعني . . .

شد الشيخ الشاب على يد جمعة بحركة لو نطقت لقالت :

ـ اطمئن . . اترك كل شيء علي . سأتدبر أمرك .

تنفس جمعة الصعداء ، وهمس في أذن الشيخ بأنه سمع عن دار القرآن من حديث للنائب ليث شبيلات نشرته احدى الصحف . سأله الشيخ همساً عن مهنته . ارتج على جمعة ثم تماسك وقال انه عاطل عن العمل ، وأديب مغمور . سأله الشيخ :

ـ هل تتطلع الى الشهرة ؟

قال جمعة وقد استأنس لحديث الشيخ :

ـ لا

قال الشيخ ان جمعة زاهد وانه مشروع متصوف ممتاز . ثم بدأت الصلاة ، وراح جمعة يرنو بطرف عينيه الى الشيخ الشاب ويقلد حركاته دون ان يتبينها .

بعد الصلاة بدأ معظم المصلين يغادرون المسجد ، هم جمعة بأن يحذو حذوهم ، فقبض الشيخ الشاب على ذراعه برفق . حدق اليه بعينين تطلق نظرات تخترق الأقنعة والملامح الخارجية وتغور الى الاعماق . سرت في بدن جمعة رعشة من ضبط عارياً في مكان عام . قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامته المشرقة :

ـ يبدو لي انك ابن عائلة وأصل .

سقطت ذقن جمعة على صدره وأبرقت دمعة في عينه ثم اختفت . قال :

ـ كنت اسمع « بيتهوفن » والموسيقى الكلاسيكية في الخمسينات حين كنت طفلاً .

قال الشيخ كأنه يعرف مسبقاً سيرة حياة جمعة :

ـ ثم تلعبت بك رياح الحياة الدنيا . . وضعت . وأنت تشعر باليأس الآن .

غالب جمعة دمعته فغلبها واختفت . شد الشيخ على يد جمعة وقال :

ـ لقد طرقت باب الخلاص الصحيح . إبق هنا قليلاً . تعال أقدمك للشيخ الكبير .

مجموعة من الرجال والفتيان يدنون نحو الشيخ الجليل ويقبلون يده . تقدم الشيخ الشاب وقبل يد الشيخ الجليل فطبع الشيخ الجليل قبلة على لحية الشيخ الشاب . ثم جاء دور جمعة ، فارتبك واصطكت ركبتاه ، وهم بأن يحذو حذو الآخرين ، غير ان قوة مبهمة غامضة داخلية عاندته ، فلم ينحن ، وانما اكتفى بأن يقبل وجنتي الشيخ ذي الوجه الوضاء والجبين الزاهر .

قال الشيخ الشاب وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى :

ـ اقترح عليك ان تشاركنا « الحضرة » .

أحس جمعة انه ازاء عالم غامض محير . حاول ان يتراجع فقال للشيخ الشاب أنه كان من أنصار ماو تسي تونغ ، وتشي غيفارا الملحدين أيام المراهقة . ابتسم الشيخ ابتسامة تشي بفراسة عجيبة ولم يعلق ، وأخذ بيد جمعة ثم تحلق الجميع في حلقة واسعة ، وبدأوا يرددون اسم الله وينحنون انحناءة هينة ثم يستوون ، ثم يعاودون الانحناءة الهينة ، بينما راحت مجموعة من الشباب الملتحين تنشد مدائح نبوية .

ولاحظ جمعة في غمرة ذهوله أنه الوحيد الذي يرتدي ثياباً عصرية . وبعد تردد طال راح يميل مع الذين يميلون ويردد اسم الله معهم ، وقد اشتبكت يداه بأيدي من يحيطون به . كان المشهد أشبه ما يكون بالعلاج النفسي الجماعي . لم يصدق جمعة انه انخرط في ما يقوم به القوم من حركات تشبه الى حد ما طقوساً كان يشاهدها في الافلام المصرية ، ولم يحلم يوماً بأن يلعب دوراً فيها . اعتقد جمعة للوهلة الأولى انه محط انظار الجميع ، ثم اكتشف ان احداً لا يلتفت اليه ، وانه هو الذي يراقب الآخرين ، وبدأ شعوره بالارتباك والخجل يضمحل ، وكان اسم الجلالة يلفظ بصوت خافت في البداية ، ثم بدأ الشيخ الجليل يرفع صوته ويندفع وسط الحلقة جيئة وذهاباً كأنه يشجع المتحلقين ويبعث الحماسة فيهم . وبدأت سمفونية الخشوع ، والتحرر من هموم الدنيا وتفاصيل الحياة تتصاعد باتجاه الذروة .

بغتة عاد الشيخ الجليل الى مكانه ، ثم سقطت ذقنه على صدره وراح

ينشج ، فإذا بالشيخ الشاب ينتحب ويهتف كفريق ينادي المخلص بأعلى صوته :

ـ الله . لا تعاملني بما يليق بي . عاملني بما يليق بك .

وأفلت زمام جمعة . عشرون سنة من جفاف العيون ، وحبس بخار الاحباط في الصدور ، انطلقت بقوة جبارة غامضة لا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً ، وانما يحسها ويخضع لهذه القوة الخفية التي حاول ان يأبى عليها ويقاومها ، فإذا به يذعن لها ويأتمر أمرها . . ويشعر بحرية ونشوة لا عهد له بهما .

غير ان مشاعر الذنب واحاسيس الخجل والندم سرعان ما اجتاحت جمعة في اليوم التالي .

فسأل نفسه زاجراً عاتباً :

ـ كيف سمحت لنفسك ان تنتحب أمام الناس ؟

ورد على نفسه مواسياً :

ـ ولكنهم كانوا ينتحبون أيضاً .

ثم رد على الرد بقسوة :

ـ هذا عذر أقبح من ذنب !

* * *

مشهد عن عائشة

بيت عائشة يضج كالعادة بأصوات قد تدفعني الى الجنون ، وهي تجلس هناك في الصالة ، على مقعدها الخاص ، تطبع وتترجم بتركيز استثنائي . كنت أود ان اقـول لها أنني أكن لهـا محبة عميقـة في نفسي ، وانني احترمهـا ، لكن مـلامحها الصـارمة تجعـل مثل هـذا الكلام العـاطفي أشبه مـا يكـون بكـلام الحمقى .

أرغب في أن ألفت انتباهها ، فاغني :

- أنا من ضيع في الاوهام عمره .

كنت على يقين من أنها ستعلق قائلة :

- انت ضيعت الاراضي التي ورثتها عن أبيك .

كنت على يقين من أنها ستقطب وتعض على شفتها السفلى وتهز رأسها في إنكار :

- بعت نصف الاراضي قبل ارتفاع الاسعار والطفرة ، ثم انتظرت أيام الطفرة طمعاً في أن ترتفع الاسعار أكثر ، فلما هبطت الاسعار مرة اخـرى ، بعت النصف الآخر . أنت لا تحسن التوقيت .

لكن عائشة خيبت ظني وظلت متمسكة بصمتها ، أصابعها كانت تتكلم لغة عجيبة . تتكتك على الآلة الكاتبـة . عائشـة تتواصـل مع الكتـاب الذي تترجمه من لغة الى لغة . . وأنا لا أسمع سوى التكتكة .

علبني الفضول فقلت لها أنني سأبيع آخر قطعة أرض ، وانني سوف أدفع لها نصف ثمن الارض كي ترسله الى ابنهـا البكر الـذي يدرس في الخـارج . أظلم وجهها دون ان يتحرك . أصابعها ظلت تنقر على الآلة الكاتبة بعصبية . قالت بعد صمت أشعرني بضآلتي :

- لا حاجة بي الى نقودك . انني متحررة اقتصادياً . عملي يدر علي ما يكفيني . بوسعي أن أقرضك مبلغاً ضئيـلاً من المال إن كنت بحـاجة الى . . . أنت تعتقد انني امرأة ضعيفة ، مطلقة بحاجة الى رعايـة أخيها اليس كـذلك ؟ انت واهم ومتخلف .

توقفت عن الطباعة وتطلعت الي قائلة انني أذكرها بزوجها ضحكت كأنما لتـداري الجرح الـذي انفتح . قـالت انه كـان يساريـاً أيام عبـد الناصر . . فسجن . ثم أصبح ناصرياً متطرفاً أيام السادات . . فسجن . .

مالت برأسها الى الوراء قليلاً ، ارتسمت على شفتيها ابتسامة تداري بها خيبة أملها ، ثم قالت انه تحول اخيراً إلى التمسك بالدين . . ثم مضى الى دولة خليجية ليبدأ حياته الخاصة بعيداً عن السياسة . قالت انني أشبهه ، لا أحسن التوقيت . حدجتني بنظرة تزاوج بين الاشمئزاز والـرثاء . قـالت انه لم يحسن التـوقيت في جميع المجـالات . فهمت أنها تشير من طـرف خفي الى علاقتهـا الزوجية ايضاً . فتضرج وجهي ، وتشاغلت بقضم اظافري وتفحصها .

ثم صمتت .

بدأت أشعر بالاختناق . نهضت واتجهت نحو الباب قائلاً :

- سأمضي . . هل تحتاجين الى شيء ؟

ردت ضاحكة دون أن تلتفت :

- هل تحتاج انت الى شيء ؟

* * *

عدت الى شقتي الصغيرة الموحشة الشاحبة ، فإذا كثير الغلبة يجلس الى

طاولة المطبخ وقد أخذ راحته ، وأخذ نصف محتويات الثلاجة وراح يتناولها .

أخبرته ان عائشة تشعرني بالضآلة . مطلقة ذات سبعة اولاد . تعمل ليل نهار ، تترجم وتطبع . تربي الاولاد . تدرسهم ، تأخذهم كل يوم جمعة إلى حديقة الطيور او مدينة الملاهي او متحف جبل القلعة او معرض للرسم وتهتم بي . وتعد الطعام . وتقرأ . . من أين تعثر على كل هذا الوقت . ثم انها عضو في غير جمعية خيرية . وحين اجلس اليها أشعر أنها متحررة من أي عبء .

ندت عن كثير الغلبة ضحكة سرعان ما كتمها مضغه لفخذ دجاجة . مسح على شاربه الكث وقال انه يعرف سر حيويتها . ثم سكت منتظراً ان أسأله عن السر الخفي هذا . غير اني لم اسأله . كنت أعرف انه لا يستطيع ان ينتظر سؤالي طويلاً . قال بعد ان خاب أمله :

- اسألني ما هو السر ؟

فتحت الثلاجة ، وتناولت زجاجة ماء . قلت في نفسي انني لن أسأله . تحرك شدقاه كأنما يلوك الكلمات التي اعدها بعد ان ازدرد فخذ الدجاجة . قال :

- السر يكمن في أنها ليست مرتبطة بزوج . الزوج قيد . الزوج مثل الحذاء الضيق الذي تضعه الطفلة الصينية او اليابانية او الكورية ، ما عدت أتذكر ، كي لا تنمو قدمها .

امتعض جمعة ووضع زجاجة الماء جانباً وقال :

- ولكن ممارسة الحب ارقى انواع التواصل .

قهقه كثير الغلبة وقال :

- وما أدراك ما هي ممارسة الحب . . أنت بالذات . أختك جبارة يا أخي . امرأة مستقلة ، تستمتع بحريتها .

* * *

في تلك الليلة انسدت مسالك النوم الى عيني عائشة ، وقضت ليلتها

تتقلب في الفراش ، والدموع الصامتة تنهمر من عينيها وتحط على السرير والوسادة ووحشتها وصدرها . دلف ابنها الصغير عند منتصف الليل ، وقد أرعبه كابوس مبهم ، هم ان يشعل النور . قالت عائشة بصوت رزين ثقيل :

ـ تعال . لا تشعل النور .

مدت ذراعها . واختفت آثار دموعها على الفور . تلك الدموع التي لا تخلع حجابها وتتعرى أمام أي عين غير عينيها .

* * *

كانت عائشة تبدو لي دائماً متحفظة ، كبئر تغص بأسرار محرمة . جدران غليظة تحول بيني وبين التواصل معها . وكم دهشت حين عدت ذات مرة الى بيتها سكراناً مترنحاً . الاولاد في أسرتهم ، وهي تطبع وتترجم . مزاج عدواني يسيطر علي . جلست مقابلها ، ورحت احدق اليها دون ان يطرف لي جفن . واصلت الطباعة ، وهي تسألني :

ـ هل تناولت العشاء ؟ هل أعد لك لقمة ؟ (وأنا اسأل نفسي لماذا انفصلت عن زوجها ؟) شبكت ساقاً بساق ولم انبس ، ولم أنتزع نظرتي المستفزة عن وجهها . رفعت رأسها فجأة ، وتوقفت عن الطباعة . ثم خلعت نظارتها الطبية وقالت :

ـ حين كان يسارياً كان يرغمني على أن أقفو أثره ، وحين تحول الى ليبرالي توقع ان أتحول معه ، وحين انقلب الى ناصري أقنعني بالناصرية بالقوة ، وربط ناصريتي بالاخلاص الزوجي . الزوجة المخلصة لا تخون زوجها فكرياً . ثم أراد ان يفرض عليَّ الحجاب حين عاد الى الايمان ، ومضى ليعمل في الخليج . انه من الذين يذهبون الى الحج والناس راجعون .

ووقف شعر رأسي ، إنها تقرأ أفكاري . أنا لم أسألها . قالت أنها سئمت العبودية . قالت :

ـ يريدنا ان نكون واحداً في الفكر ، واثنين في الفراش .

احتقن وجهي خجلاً . عادت الى آلة طباعتها وسألت ان كنت جائعاً . وكنت جائعاً ، ومعدتي خاوية ، غير ان صراحتها الجريئة ، وقراءة افكاري المذهلة . . .. سدت نفسي . قلت :

ـ ما لي نفس .

همهمت :

ـ طبعاً . توقعت ذلك .

هزت منكبيها ، وسألتني ان لا أرمقها بتلك النظرة المستريبة مرة أخرى .

مشهد : لماذا كان جمعة يهجر بيت عائشة ثم يعود اليه ؟

يقول جمعة :

- كنت أعيش في بيتها مثل شبح . هي امرأة عملية وصاحبة قرار وتجربة . تعرف تفاصيل الحياة ومفرداتها اليومية . وأنا . . هيه . . رأسي في غيم الشعر وضباب النثر والفلسفة والقضايا المجردة والمسائل الجوهرية وأحلام الجماهير . . وقدماي تتشركلان ببعضهما على الارض .

يأتي البستاني نصف البدوي نصف الفلاح ويسألني :

- لماذا لا أراك أنت ؟ أنت لا تتعامل معي أبداً ! المدام هي الآمر الناهي هنا . وانت ماذا ؟ ألست زوجها ؟ ألا تحل ولا تربط في بيتك ؟

كان جمعة يعرف ان البستاني نصف أبله ، لكن بدنه اقشعر حين سمع هذه الكلمات ، امتقع لونه ، وكاد الدم يجمد في عروقه .

استمع كثير الغلبة الى جمعة وهو يشكو البستاني ، هز منكبيه وقال :

- يا أخي لماذا تزعل من كلمة الحق ؟ .

وقال ان جمعة لا يفهم في الزراعة . أشعل غليونه ونفث دخانه في وجه جمعة . اختفى رأس جمعة في الدخان الرمادي . قال كثير الغلبة :

- انك لا تستطيع ان تفكر في كتابة رواية عن نعمان العموني . . وان تفكر بالزراعة في الوقت نفسه .

ثم تساءل وقد ومضت عيناه بينما ظل وجه جمعة مجللاً بدخان الغليون :

ـ ماذا لو سألك البستاني عن المكان المفضل لزراعة شجرة « الأضاليا » على سبيل المثال ؟

وأكد كثير الغلبة قبل ان يرد جمعة ، وقبل ان يتبين وجهه :

ـ ستسأله : ما معنى شجرة الاضاليا ؟

ولنفترض انه اقترح عليك زرع شجرة زعرور في الجزء الأمامي من الحديقة . سيأخذك على حين غرة . لأنك لا تعرف الجواب . لا تحسم . ستسأله : « ما هي شجرة الزعرور ؟ » او ستقول له : « اختر انت الموقع الذي يعجبك » . وأكد « كثير الغلبة » ان جمعة رَأى مئات من اشجار الزعرور قرب وادي السير ، لكنه لا ينتبه .

ـ هذه مشكلتك . انت لا تنتبه الى التفاصيل . لأنك لست هنا . تفكر بمشكلة دون كيشوط . هل كان شخصية تراجيدية أم لا ؟ تفكر بنعمان العموني هل هو جمعة نفسه أم لا ؟ تفكر بنظام عالمي ينقذ الانسانية من مشاكلها . تفكر بمساعدة وداد على حل مشاكلها النفسية والاجتماعية . تحمل العالم على ظهرك . تحمل السلم بالعرض . فإذا طلب منك رجل ان تضع السلم بالطول وتتسلق درجاته كي تستبدل له « لمبة » معطوبة بلمبة سليمة ، فإنك ستعجز عن ارتقاء السلم ، لأنك لا تتقن وضعه بالطول . ولا تجيد ارتقاء السلالم ، وتصاب بدوار من الأمكنة المرتفعة ، بالاضافة الى هذا كله ، أنت لا تعرف كيف تستبدل لمبة بأخرى . لأن يديك لا تصلحان إلا للكتابة . . والمصافحة . أما أنا فالجميع يقولون عني : فاضل الغلباوي شاطر بيديه . أي انني أجيد اصلاح تلفزيون معطوب ، أو مذياع تعطل ، أو سيارة تعرض محركها لخلل مفاجىء . هذه موهبة من الله سبحانه

كان جمعة يصاب بالذعر والارتباك حين يقرع جابي الكهرباء أو المواسرجي أو النجار باب بيت عائشة ، ما ان تقع عينا جمعة عليهم حتى يهتف كاليائس المستجير :

ـ عائشة !

يمتقع لونه ، ويداري اضطرابه ويُبرر لهم الموقف على استحياء :

ـ أنا مجرد ضيف هنا !

وعائشة تتقدم بحزم نحو الباب ، تنحي جمعة جانباً كأنه شبح وتقول للمواسرجي :

ـ لماذا تأخرت يا « أبو علي » . طلبتك منذ أمس . يعني يرضيك ان يظل صنبور الحمام يهرب ماء ؟ تعال انظر الى ما فعلته المياه بالموكيت . سوف اجعلك تدفع ثمن الموكيت من جيبك .

وترن ضحكة ابو علي ، ويعلن عن أسفه ، ثم يدخل الى الدار فيدفع جمعة بمنكبه كي يخلي له الممر ، ويشق طريقه الى الحمام . . وعائشة تتبعه بخطى واثقة . ويهرب جمعة الى مكتبة شومان كي يتجنب ضجة اصلاح الصنبور التي من شأنها ان تعكر أفكاره الخلاقة حول علاقة دوستويفسكي بنيتشه .

والتطور الذي ينبغي ان يضاف على أفكار هذين العملاقين لتركيب نظرية تخلص البشرية من ألمها ، والطريقة التي سينقل فيها هذه الفلسفة الجديدة على لسان بطله « نعمان العموني » في روايته التي لم تكتب بعد !

قال جمعة : « كنت أشعر بضآلتي أمام عائشة ، وبأنها هي رجل البيت ، وانني اعتمد عليها كلياً في كل تفاصيل حياتي ، بدلاً من أن تعتمد هي علي . أي رجل ذي احساس مرهف بالكرامة لا يطيق هذا الموقف . وهكذا كنت ارحل الى شقة قريبة . غير انني سرعان ما أعود الى بيتها . فأنا لا أطيق الوحدة والوحشة مع انني وحيد دائماً . ثم انني لا أجيد اعداد الطعام وتنظيف الشقة والعناية بنفسي . . ثم . . (سوف أصمت لا داعي للمزيد من الفضائح !؟

* * *

هكذا تكلم « كثير الغلبة »

بغتة ، بعد اعوام وأعوام من زواجنا ، اكتشفت على نحو مفاجىء ان زوجتي زاهدة . طبعاً لا أعني انها متصوفة ، لا داعي لتحريف الكلام والتلاعب بالمعنى والمبنى كما يقول المثقفون . لكنها زاهدة فعلاً بكل بساطة . انها لا تحفل بشطارتي وفهلوتي واتقاني سرقة الاضواء . هي قالت ذلك حين بكت في السرير ، وكانت الغرفة غارقة في أعماق لجة الظلمات . وحين هممت ان اشعل النور . قالت :

- لا .

لم أر دموعها ، غير انني سمعت انحدار دموعها بصمت ، وأحسست بحرارة هذه الدموع على الوسادة . قالت انها لا ترغب في ان تضغط على اعصابي المتوترة اصلاً بسبب اصراري على سرقة الاضواء . وباعتباري حماراً في الفهم قلت لها انني اجاهد في سبيل الوصول الى مركز مرموق من اجلها . وهي تنتحب بصمت . ولا أراها ولا أسمعها وانما أحس دموعها بخدي المرتبط بخدها عبر وسادة واحدة . وها هي الوسادة تصبح بليلة من الدموع ، مما يعني انني سأضطر الى توسّد ذراعي . فأنا لا استطيع النوم على وسادة تشرب الدموع . و« الحرمة » تبكي بصمت . وتبلل الوسادة المحشوة بريش النعام . وأنا عاجز عن النوم بلا وسادة . توسدت ذراعي ، وقلت لها انني استغرب موقفها . فقالت :

- هيء . . هيء . .

ثم تنهدت !

قلت اني أرغب في الوصول ، وانني لست شخصية سوداوية زاهدة غبية مثل جمعة القفاري . انقلبت على ظهرها ثم على صدرها وقالت قولاً لا يقال في عصر انفجار المعلومات وانتصار امريكا بلاد الفرص الذهبية غير الضائعة . قالت : « انها تحترم جمعة » . ثم قامت الى الحمام واغتسلت . مع انها لم تشغل التدفئة ، فخمنت انها استحمت بمياه باردة . وأولت هذه الظاهرة بأنها ترغب في اخماد رغبتها الملتهبة بالمياه الباردة . وحسبت انها ترغب عن الالتصاق بي . فهي تبغض حرارتي المطفأة . وحرارتي مطفأة لأني مجامل . صديق يدعوني الى كأس . وأنا أدعو صديقاً آخر الى كأس . انها حياة « البيزنس ـ من » . وأعود الى البيت منطفئاً خامداً بعد ان غادرته في الصباح مشتعلاً حماسة ، مستفزاً متوتراً مثل صياد يبحث عن فرصة كي يقتنصها . ولكن زوجتي زهرة لا تفهم انني بت شخصية اعلامية مرموقة (مندوب احدى الصحف الاردنية ، مندوباً في الاذاعة الاردنية ، مندوباً في التلفزيون الاردني الخ) لأنني فهلوي وسارق اضواء وفرص وشعاري « الحركة بركة » . اسأل السؤال وأجيب عنه ، بحيث تتركز الأضواء علي (أنا السائل) بدلاً من ان تتركز على المجيب . هذا قانون واحد من مئات قوانين الحياة التي تعلمتها بالقوة وبعد ان دفعت ثمناً باهظاً ، ألم يأت اوان القبض بعد ؟ الى متى سأظل أدفع الثمن ؟ .

أما جمعة القفاري ، ابن عمي ، فهو ابله مثالي لا يعرف من أين تؤكل الكتف ، ولا يعرف من أين تؤكل الاقدام ، ولا يعرف من أين يشتري الكاز أو المازوت ، ولا يعرف كيف يرمم صنبور مياه تعطل تعطلاً هيناً . وزوجتي المصون تعتبره بطلاً ولد قبل زمانه او بعد زمانه . لعن الله الأدب الانكليزي الذي درسته في الجامعة . لماذا لم تتزوج جمعة ما دامت مبهورة بما تسميه براءة جمعة وطهارته ؟ أنا لست بريئاً ، فالبراءة في عالم اليوم كلمة مهذبة بديلة للبلاهة . أنا لست أبله. تعلمت السرقة ، سرقة الاضواء والفرص والفهلوة . . ولهذا السبب بالتحديد تزوجتني زهرة . ولو تقدم لها جمعة القفاري لقبلته حبيباً مثالياً ولأحببته حباً افلاطونياً . . . ورفضته زوجاً . لأنها ترغب في الاستقرار ،

والاستقرار يتطلب قطاً سميناً . وأنا في طريقي الى الانضمام للقطط السمان . فإن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب .

والله يعلم كم حاولت مساعدة ابن عمي جمعة . حتى انني اقترحت عليه ان نهبط الى فندق من الدرجة العاشرة في شارع طلال حين راح يشكو من انه عاجز عن الكتابة لأنه يفتقر الى ما سماه بنبض الشارع الشعبي . كل ذلك من اجل ان تحترمني زهرة وتبوس الارض التي امشي عليها فالارض التي امشي عليها تجري من تحتها الأضواء . وأنا فهلوي عصامي ، فقد بدأت من الصفر ، وانتهيت الى الملايين . أما جمعة افندي ابن عمي الطاهر كما تصفه صاحبة الصون والعفاف زوجتي ، فقد بدأ من المليون وانتهى الى الصفر . وأنا لم أهبط الى شارع طلال من اجل سواد عيني جمعة ، كما ادعيت لزهرة . ولكني فكرت في اجراء تحقيق صحفي عن شارع الملك طلال . قلت لجمعة :

- انت اديب يبحث عن مغامرة . . وأنا أقترح عليك ان ننزل في فندق في شارع الملك طلال . وكان ذاهلاً يفكر في بطل روايته نعمان العموني . ويحدق الي بنظرات لا تراني لأنها تخترقني وتحلق بعيداً عن عالم المادة والواقع والملموس الى عالم مغامرات النعمان في شوارع عمان . وأنا اقول لنفسي : رحم الله والده الذي توفي في حادث انفجار مبنى رئاسة الوزراء حين كان المرحوم هزاع المجالي رئيساً . لو علم ان ابنه سوف يعجز عن مجابهة الحياة لدفنه حياً . وكانت ام جمعة تقول بعد ان فقدت زوجها ثم عقلها :

- السياسة ليس لها دين .

غير ان عمي ، رحمه الله ، كان متديناً ، ويمر بالصدفة قرب مبنى الرئاسة حين وقع الانفجار . لكن أمه رحمها الله كانت تقول انه كان يعقد اجتماعاً مع الرئيس المغدور . وظل جمعة يبول في الفراش اعواماً بعد هذه الحادثة . وأخذته امه في حضنها وضمته الى صدرها كي تحميه من العالم ، فلم يتعلم كيف يسلق بيضة او يعد فنجان قهوة . وكان يمشي معي الى المدرسة ويقول انه سيخلص البشرية من عذاباتها ، وهو عاجز عن ان يخلص حذاءه اذا انغرز في الطين . فجمعة يمشي ولا ينظر امامه . انه يتطلع الى الأفق او السماء بعينين

حالمتين . . . فأضطر انا الى نزع الحذاء من الطين .

حاصله . . أين كنا ؟ أه . . قلت له :

لماذا لا تهبط معي الى الفندق السوقي وتختلط بالجماهير ؟

آه ليلتها . . ليتك حدقت الى عيني جمعة حين تناولنا عشاءاً مبكراً في مطعم هاشم ، ثم مشينا في شارع الامير محمد ، وعدنا ادراجنا ، فدعوته الى حانة في دخلة سينما رغدان . احتسينا « السم الهاري » حتى الثمالة . ثم عدنا متساندين الى الفندق المزدحم بالصراصير .

بدا جمعة الذي يفتقر الى القدرة على التأقلم وكأنه استعاد هذه القدرة . كان واثقاً من نفسه ، يضحك بلا سبب امام رجال الشرطة ، ويبصق امام محال الصرافين . . بلا سبب ايضاً . . أحسست انه يشعر ، بعد كل هذه الكؤوس ، انه ابن عمان المدلل الوحيد .

حين تلاطم مع جدران درج الفندق وكاد يسقط ، حملته على كتفي ، فأدركت انه ثقيل الوزن ، على الرغم من ان هيئته لا تدل على ثقله .

كان يشخر وانا أتقلب على ظهري وبطني في السرير الآخر ، حين نادى الضابط علينا ثم قرع باب غرفتنا بقبضته الحديدية المصقولة بتهذيب من لعب البيانو في طفولته .

لم تدغدغني شعشعة الشمس في الزنزانة . بدا وجه الضابط مزدحماً بالسأم والشحم الزائد ، والعرق ينز من مسام جبينه ووجهه . كان يلتقط انفاسه كأنه اعتلى لتوه قمة « قلعة الربض » أحسست ان اجواء المخفر ركيكة ، وانها بحاجة ماسة الى بلاغة التنظيم . انتفضت عن مقعدي مثل رجل لسعه لسان الشمس السليط وقلت بثقة مبالغ فيها :

ـ نحن نمثل السلطة الرابعة .

حدجني الضابط بنظرة مستريبة ذات مغزى لو نطقت لاتهمتنا بالشذوذ ثم نقلها الى جمعة ، ثم تكلف عينين ناعستين وقال بصوت فيه سكينة وثقة :

ـ طظ ! ماذا كنتما تفعلان في فندق شعبي في عمان . . . وأنتما من سكان عمان الغربية .

وهكذا قضينا ليلتنا في الزنزانة .

***

اقتحم فاضل الغلباوي شقة جمعة ، وهتف :

ـ الوزارة استقالت . وسيبدأ عهد ديموقراطية جديد .

انقلب جمعة على ظهره ثم استقر على بطنه . رفع رأسه بتثاقل ، وفغر فاه ، وفتح عينين ذاهلتين ولم يأت على ذكر نعمان العموني او وداد او نانسي . وانما انزلق من السرير ، واندفع نحو الحمام . وراح يستحم بمياه باردة كالثلج . . كأنما يرغب في ان ينفض غباراً وصدأ تراكم عليه طوال اعوام ، وحال بينه وبين التأقلم مع شعشعة الشمس ، والهواء المنعش ، والحظ الذي يفلق الحجر . . كأنه يصحو لأول مرة من قبضة ذهول اعتصرته في جوفها منذ زمن سحيق . وصاح مخاطباً « كثير الغلبة » :

ـ هل تذهب معي الى معان والطفيلة . . انني لا اعرف الطريق ؟ .

وقف شعر كثير الغلبة هولاً . وقعد على أريكة قريبة وهو يكذب أذنيه .

***

جمعة « الصدمة »

انا يعني كنت متماسكاً . . يعني . . في صغري ، لا أذكر انني بُلت في سروالي ، إلا بعد ان انفجر مبنى رئاسة الوزراء . . تذكرون . . يعني . . ماذا أقول ؟ وأبي قتل وهزاع المجالي ايضاً رحمة الله عليهما . وكان ابي يمر من هناك بالصدفة لأنه يعني أبي أقصد لا يميل الى السياسة وكان رحمه الله يقول السياسة في بلادنا ليس لها دين . ومع انه كان متديناً إلا أنه مات بالانفجار .

وامي خافت علي لأني صرت أبول في الفراش ، على الرغم من انني أقلعت عن هذه العادة وأنا في الثانية من عمري . لكنها عادت لي وأنا فتى بعد الانفجار . يعني . . أقصد . . انت شايف ؟ أنا لا أرغب في ان أحكي بالفصحى ولكنك لا تقرأ إلا الفصحى . وأمي صارت تخاف علي من الطير الطائر ومن نسمة الهواء . واختي الكبيرة عائشة لم تهتز ، ربما لأنها كانت كبيرة . واختي عائشة كبيرة منذ مولدي . لم تكن صغيرة أبداً . انها أكبر مني دائماً . . يعني . . أقصد . . أنت تعرف ماذا أقصد . شايف ؟ وأنا قصتي بسيطة ولا تحتاج الى تعقيد . وأمي خافت أن أتعقد . وأخذتني للطبيب . والطبيب قال انني أبول على عقبي من وقع الصدمة . وأخذتني الى طبيب آخر فقال انها حساسية بسبب الطقس . وأمي تحميني ولا تدعني ألعب مع الاولاد . كانوا يلعبون كرة القدم وانا أقرأ البؤساء وأبكي . ويلعبون البلياردو في « دار البولنغ » لصاحبه ابن البطيخي رحمه الله وأنا أجلس في البيت ، أنتبذ ركناً قصياً وأقرأ « آنا كرنينا » ودموعي تنحدر على وجهي ، وأمي تضم وجهي الى

صدرها . وتقول لا تبكي يا حبيبي . ارادة الله أن يذهب أبوك الى الجنة في عز شبابه . وأنا أبكي لأن « آنا كارنينا » انتحرت . . وأحبها . أتنشق رائحة الاشجار البعيدة حين تضمني أمي ، وأشم رائحة آنا كارنينا . وفاضل القفاري يدعوني للمضي مع الشلة الى « دار البولنغ » في اول طلعة جبل عمان . وامي تمنعني . تخاف علي من اولاد الحرام والسيارات وانا في الثالث الاعدادي . وهربت مرة مع فاضل واكتشفت ان « الشلة » تشتري السجائر . . سيجارة سيجارة . السيجارة بتعريفة أي نصف قرش يعني . وأنا رفضت ان أدخن أمام افراد الشلة الذين احترموا طهارتي وسخروا منها بالسر . ورحت أدخن في الحمام . وأمي تقول :

ـ لماذا تبقى في الحمام طويلاً ؟

وأنا لا أقول لها انني افتح النافذة ليدخل الهواء النظيف ويخرج الدخان .

وأشاع افراد العصابة انني ولد طاهر وشاطر ، كانوا يسخرون من فضيلتي ويحترمونها . وكنت أقترف الموبقات في الحمام . يعني كنت أدخن وأتخيل الممثلات والبنات عاريات وأشياء من هذا القبيل ، يمنعني الحياء من ذكرها ، ولم أكن اتخيل « آنا كارنينا » عارية لأني كنت أحبها . نعم . وكنت أحب أديب الدسوقي بطل الملاكمة الاردني الذي هزم أبطال الاستعمار . هذا الاستعمار كرهته لأن عبد الناصر كان يشتمه . ولما تغلب فهد الطنبور على بطلي الدسوقي بكيت . لأني اكره الخسارة . وبيتنا كان صامتاً صمت القبور . أمي اضربت عن الكلام منذ مقتل والدي لاسباب سياسية وهو بعيد عن السياسة وقريب من مبنى رئاسة الوزراء . وعائشة تثرثر في المدرسة ، وحين تعود الى البيت يكون كلامها قد نفد . وفي المدرسة كنت منعزلاً . لكن العالم ، أقصد يعني هذا العالم ، لا يتركك وشأنك .

وأنا لم أفهم شيئاً ، كنت جائعاً وأبو سيمون في الدكان والبرد يقرصني ، وجاء العملاق . وكان يرتدي قميصاً احمر ورائحة الخمر تلفح أنفي . ثم قال انه يرغب في مصاري وعرفت انه يريد أخذ « خاوة » من فاضل كما يأخذ من غيره . وانا حسبته شحاذاً ، ولم أفهم ، ثم نزلنا ، وامتلأت دخلة

هاشم بالناس ورائحة الحمص والفول والفلافل . وكنت ادس يدي في جيبي وقضيب الحديد تحت سرتي ، واعرف انني ضعيف ، غير ان قلبي لم يخفق بشدة . ثم اقترب فاضل من العملاق كاد يدفع مستسلماً ، والرؤوس والعيون ورائحة العرق تحيط بنا . وضربت العملاق فهرب فاضل وصحبه ، ولا ادري ماذا حدث بعد ذلك . رأيت الدم يتدفق من رأسه ، ثم اختفى بين الأحذية غير الصقيلة . وأطلقت ساقيي للريح ، وكنت الهث ، وابي يحتسي الخمر ، ثم تناهى رنين الهاتف الى مسمعي . وقال ابي كلاماً غير مفهوم . ثم وضع كأس الخمرة جانباً ، وخلع حزام بنطاله ، وحسبت انه يرغب في الدخول في منامته ، فهرعت الى غرفته لأحضر له منامته ، قلت ان الخمر سلطت النعاس على عينيه ، وانه لا يرغب في النوم بملابسه كعادته كلما ثمل . وحملت منامته وركضت الى الصالة ، فإذا به يهرع نحوي ، وكنت اهرع نحوه . كنت احمل منامته وهو يحمل حزام بنطاله . وأحسست بلذع الحزام الجلدي ذي الدائرة المعدنية على جلد وجهي . أحسست بصدمة لا تخلو من لذة ، ثم خدر موجع جلاب للنوم ، واضطجعت على الأرض . غير انني ما كنت اريد أن أنام . أبي ما كان يريد ان ينام . لكنه يريد أن أنام انا . ورأيت خيطاً من الماء الأحمر يسيل من انفي على قميصي الأبيض ، وكانت امي تصرخ وعائشة تنشج واعتقدت انني أحلم ، وكنت ارغب في الخروج على سلطة الكابوس ، لكن عيني تأبتا ، وعجزت عن ان افتحهما . وقلت متى أستيقظ كي اتحرر من هذا الكابوس . وبدأ صراخ أمي ينأى ، والوجع اللذيذ والخدر يدغدغ جسدي ويضرم فيه شهوة النوم . وشممت رائحة وجع لاسع يشبه رائحة « اليود » . وأبي يصرخ في وجه أمي :

- ابنك السرسري يغازل بنات الناس . . ومَنْ ؟ أخت البلطجي ابو الفلاح .

والغلباوي أنقذ أختي عائشة من الموت ، وأنا ارتبكت ، وكانت هي مضطجعة على أرض الحمام عارية فاقدة وعيها . وسألت نفسي برعب كاسر اذا ما كان الغلباوي قد رآها عارية ، ولم أسأل ، للوهلة الأولى ، ان كانت حية أو ميتة . يعني انا هكذا . . غريب الى حد ما . . متأسيف يعني . . لا أطلب منك سوى ان تطرديني من مدارات ذاكرتك . اعتبريني مجرد شبح أو طيف مر

بمنامك . كابوس تبدد وارتفع عن كاهلك ، وهل تذكرين يا عائشة كيف كان ابي يرفع كأسه ويقول عاشت الأمة العربية ، عاشت النهضة العربية ، ثم يتساقط ويقع على الأرض ، فيترنح وهو يرفع كأسه مرة اخرى ويقول :

ـ عاشت اليقظة العربية .

ثم تأخذه عينه فينام وتنام معه اليقظة العربية . كان ذلك في الخمسينات ، ثم ترك السياسة ، لماذا ترك السياسة ؟ وترك الخمرة ، أقلع عنها ، وأقلع الى الكعبة فقبل الحجر الاسود ، ورجم الشيطان بالحجارة ، وصار الناس ينادونه « الحاج مصطفى القفاري » . وكان قبل ذلك لا يملك نفسه في مجلس الشراب ، فيعود محمولاً على أذرع اصحابه . وكانوا يخافون من أمي . فيقرعون الباب ويركنونه مسنوداً الى الجدار بجوار الباب ، ويطلقون سيقانهم للريح ، وهو يشرب ما ان يصحو ويقول :

ـ قولوا لمن يسأل عني انني غير موجود .

وكانوا يسألون عنه . وأنا صغير . وأقول انه غير موجود . فيقولون ان سيارته تقف عند باب الدار . مما يعني انه موجود . فأقول وأنا أهرب الى داخل البيت أنه هو الذي أمرني ان اقول انه ليس موجوداً .

وكنت أخاف ان أذهب بعد موتي الى النار ، لأن الكذاب يذهب بعد موته الى النار . هل تذكرين ؟ وأبي انقطع عن الشراب ، وجعل يصلي ويصوم ويحب جمال عبد الناصر . وترك السياسة . وترك البيت في ذلك اليوم ، وانفجر مبنى رئاسة الوزراء . وكان هو يمشي بأناة على الرصيف . وتناثر هو والبناية ودمه . وقالوا ان جماعة تابعة لمخابرات عبد الناصر فجرت المبنى . واذا صح هذا القول الغريب فإن عبد الناصر لم يكن يعرف بكل تأكيد ان ابي كان يمشي لحظة الانفجار امام مبنى الرئاسة في شارع السلط ، لأن أبي يحب عبد الناصر . ولا يمكن لعبد الناصر ان يقتل من يحبه . وقالت امي انني مصاب بصدمة . وانها ستحميني من العالم .

وقال الطبيب المرعب انني أعاني من تخلف عاطفي ، وأنني معاق

انفعالياً ، ولم أفهم ما قاله الطبيب . غير انني شعرت بسعادة بالغة لأنه لم يغرز إبرة في مؤخرتي . إنني أكره الاطباء لأنهم يغرزون تلك الابر الحادة الموجعة في مؤخرات الناس . وقالت عائشة ان الطبيب أحمق وانه هو المتخلف وان الذي خلفه هو المعاق لا أنا . ثم امسكتني من يدي وخرجنا . وفي يدها الاخرى حقيبتها التي دست فيها الوصفة الطبية . وتحسست يد عائشة الطرية ، وتمنيت لو كانت امي . لو تضمني الى صدرها ، وتمسد على شعري . إنني بحاجة الى أم ، لا أخت وتذكرت كيف وقعت في الحمام مرة وانقذها فاضل ولم أعرف ان كان رآها عارية وشعرت بخجل ونحن نغادر عيادة الطبيب ، ومشينا في جبل عمان . وكانت عائشة تمسك بيدي ، والعابرون يرمقوننا بنظرات فضولية ، كأنهم يحسبون أننا عاشقان ، ويستنكرون وضع يدي في يدها أمام العالم والناس . وكنت احبها وأحب ابنتها آخر العنقود . . على الرغم من حقدي عليها لأنها تناكفني وتضطهدني . تصور ان تتسلط عليك طفلة لم تتجاوز الثالثة من عمرها . أي قهر هذا ؟

ومررنا بمدرسة المطران ، وسألتني عائشة :

- هل تذكر أيام مدرسة المطران ؟ . كنت تلاحق بنات المدرسة الأهلية يا ملعون .

وأنا أذكر أيام المدرسة ، كنت صبياً وأقرأ كتاب البؤساء وأبكي واقرأ العبرات للمنفلوطي فتنحدر العبرات من عيني وابن عمي وفاضل القفاري (المعروف بالغلباوي أو كثير الغلبة) زعيم عصابة ، وكانوا ينزلون الى دار البولنغ ، ويأخذوني معهم . وعمان صغيرة ، هم يلعبون البولنغ والبلياردو ولا أذكر ماذا ، وأنا أنتبذ مكاناً قصياً وأقرأ « البؤساء » وانتحب بصمت ان هذا العالم عصي على فهمي .

مشهد : جمعة والعملاق

جاء مرة أبـو الفلاح العمـلاق . وكنت في مطعم صغـير قرب مـدرسة المطران اسمه مطعم ابو عمر ، وهو غير مطعم ابو سيمون . وقال أبو الفلاح انه ضريب شفرات ، وخفت . وأبو عمر طنش وعمل حـاله « أُذن من طـين وأُذن من عجين » . وكشف ابو الفلاح عن بطنه المزدحم بالطعنات ، وأنا لم يقشعر بدني خوفاً ، لأن ابن عمي الغلباوي معي ، وهو أقوى ولد في الصف الثالث الاعدادي . وكان يرفع تنكتين من علب السمنـة المحشوة بـالاسمنت وبينهما يمتد قضيب حديدي . كان يرفع الأثقال وعضلاته تنفتل ويريد ان يكون مثل « نمر كعوش » بطل كمـال الاجسام الاردني . ويـدهن صدره وعضـلاته بالزيت ويقف تحت الشمس يلمع ويبرق . ثم يقف أمـام المرآة ويثني ذراعـه ويتأمل عضلاته بثقة واعتزاز . وكنت أقلده أحيـاناً ، واعجـز عن منافستـه ، وكنت نحيلاً معروق العـظام ، وألهث بسرعـة ، ويداهمني احسـاس بالعجـز والقهر فأكـظمه . وكنت أحس احسـاساً خفيـاً غامضـاً بأنني مختلف وغـريب ودخيل .

قال ابو الفلاح لفاضـل أنه يـريد ثـلاثة دنـانير . وأبـو الفلاح نـاهض في الفضاء وصدره ممتد في الأفق وكرشه يميل نحو الأرض . كان يسد الجهات ، غير اني رأيت سور المدرسة من ورائه . وفاضل يرتدي قميصاً يبرز عضلاته إذا رفع الكمين الى اعلى كي ترى الفتياتِ عضلاتـه المفتولـة . وحسبت ان « ابو الفـلاح » شحاذ . وقـال ابو الفـلاح وهو يلتفت الى « ابـو سيمون » بـوجهـه

المتجهم وقال :

ـ أنا أبو الفلاح . . هل تعرف من هو أبو الفلاح ؟

وحسبت ان عضلات الغلباوي سوف تدب الرعب في قلب ابو الفلاح ، وتمنيت لو يرفع الغلباوي ذراعيه الى الأعلى متظاهراً انه يتثاءب فيرى ابو الفلاح عضلاته حين تتكور وتتقلص . واختفى صاحب المطعم وراء صندوق ، وتجاهل المشهد ، وتشاغل باعداد ساندويش الفلافل . ولم أفطن الى غاية « أبو الفلاح » ، وحرت في تفسير موقفه : هل يشحذ أم أنه يريد أن يسرق ؟ بدا لي شريراً ، وقلت ان الغلباوي سوف يلقنه درساً لن ينساه .

والنسيم هب بارداً ، لكن العرق تصبب من جبين الغلباوي ، وكانت رائحة العرق تفوح من ظهر هذا الجاموس وكنت « أحسب ان العرق ذا الرائحة النفاذة هو عرق الابطين فقط . وادركت ان هذه الشاحنة المتحركة لا تملك اي فكرة عن مساحيق مزيل رائحة العرق ، وكانت أنفاسه تهبط من فوق فتلفح أنفي برائحة الخمر .

ودس الغلباوي يديه في جيبيه وأخرجهما فارغتين وبسطهما أمام ابو الفلاح ، وكان على راحته اليمنى عشرة قروش . أشار ابو الفلاح وقد تميز غيظاً وجعل ينفخ مثل خنزير بري الى القروش العشرة وقال وكأنه اكتشف كميناً :

ـ هذه عشرة قروش .

وهز الغلباوي رأسه ، وقال انه لا يحمل سوى عشرة قروش . ولاحظت رعشة خفيفة تسري في يدي الغلباوي . ثم اختفت يداه في جيبيه مرة اخرى، واختفت معهما الرعشة ، وأخرج الغلباوي بطانتي جيبيه ليتحقق أبو الفلاح بنفسه من أنهما خاليتان . ولاحظت أن بطانة الجيب اليسرى كانت ممزقة . ولم أفهم ما الذي يجري بالضبط . وكان العملاق يحجب الشارع ، لكنه لم يحجب الشمس ، فتسلطت أشعتها على عيني . ولم أرفع يدي لأحجب الشمس عن عيني . فسالت دمعة من عيني اليمنى . قهقه ابو الفلاح وقال انني أبكي من الخوف مثل البنات . وزعلت وقلت انني لا أبكي ولكنها الشمس ، وقلت انني

أملك عشرة قروش ايضاً . وأكدت ان الغلباوي ليس أكثر ثراء مني . لاحظت ان العملاق يرمقني بنظرة ازدراء واستخفاف .

وقال ابو سيمون :

- توكل على الله يا أبو الفلاح . صل على النبي واكفنا شرك .

فزأر ابو الفلاح وقال لـ « أبو سَيمون » ان يغرب عن وجهه ، فأظلم وجه « ابو سيمون » الأحمر الكروي وغاب بعد ان غاص تحت طاولة متكلفاً تنظيف الأرض .

وكان المارة لا يلتفتون . وأحسست اننا في خطر ، وأن هذا العملاق يهدد الغلباوي ، وأن الغلباوي خسر المعركة قبل ان يخوضها . ووقفت مجموعة من الطلاب تتفرج من بعيد دون أن تتدخل . ودهمني شعور بالغيظ والقهر والعجز ، غمغم الغلباوي :

- سأحضر لك الدنانير غداً .

ومر رجل تبدو عليه مظاهر الهيبة والوقار ، ويبدو انه عرف « ابو الفلاح » اذ توقف عن بعد وقال :

- حل عن الناس يا أبو الفلاح . . وبعدين معك ؟

التفت ابو الفلاح فانكشف الأفق المحجوب وقال بصوت خرج من اعماق حنجرته :

- اقلب وجهك أحسن ما افتح فيه شوارع .

فقلب الرجل المهيب وجهه واستأنف سيره وهو يحوقل . ووثب ابو الفلاح في الفضاء مثل الدب ولما حط على الارض أوشك كرشه المائل نحو الارض ان يسقط . غير انه تماسك في اللحظات الأخيرة الحاسمة . وقذف العملاق عشرات اللعنات في ظهر الرجل المحترم . ثم قال انه سينتظر الغلباوي غداً في السوق . وسأله الغلباوي بلهجة تنم عن استسلام كامل وهزيمة ساحقة :

ـ أين بالضبط ؟

غمغم العملاق بكل ثقة :

ـ انت اسأل عن « أبو الفلاح » . . في السوق . . وسط البلد . . وستجدني .

وابتعد العملاق ، فتنفس الغلباوي الصعداء ، وجفف عرقه بظاهر يده .

اجتمع الشباب وقرروا ان لا فائدة ترجى من مواجهة هذا البلطجي . وفهمت أنهم سوف يجمعون المبلغ قرشاً قرشاً ، واقترح احدهم ان يسرق الغلباوي المبلغ من جيب والده ، ويعطيه للعملاق . واقترح آخر ان يبلغ الغلباوي والده ، كي يعتقل هذا الشرير ويخلص الطلاب من ابتزازه . وقال ابو سيمون :

ـ يا عمي هذا قاتل قتله . . يقتل القتيل ويمشي في جنازته . ابن حرام ضريب شفرات . يدخل السجن كما يدخل الى فندق خمس نجوم . ويخرج لينتقم من الذي اشتكى عليه .

وقرروا ان يدفعوا له المبلغ . أما أنا فقد ضمرت في سري قراراً خطيراً .

* * *

ومشينا في السوق نبحث عن العملاق . قالوا ان منطقته تمتد من سينما رغدان مروراً بدخلة هاشم الى سينما زهران . وبحثنا ، وسألنا . ووقفنا بدخلة هاشم ، وقال الغلباوي بصوت مرتعش هذه دخلة هاشم ، وكنا جميعاً نعرف ان هذه دخلة هاشم . واندفعت روائح الفلافل والحمص والفول الى أنفي ، واشتهيت كوباً من الشاي مع صحن فول ورأس بصل ، وكانت عيناي تبحث عن رأس العملاق البغل . . ولحستنا عيون الزبائن الذين كانت قطع الخبز في أيديهم تلحس صحون الحمص والفول ، ولاحظت ان عيونهم تومض ببريق عجيب . وكان قلبي يخفق بشدة ، والشوارع تنبض تحت عجلات السيارات ، واقدام المارة . وبغتة إنبثق ابو الفلاح بوجهه المليء بأخاديد وآثار تركتها

سكاكين وشفرات حادة . انبثق مثل كائن اسطوري خرج لتوه من حفرة من حفر المجاري السحيقة تحت المدينة . تدحرج نحونا فسد بجسده الهائل مدخل دخلة هاشم . ورأيته وهو يحدق الى الغلباوي بعينين حمراوين وامضتين شرهتين . ومر بي كأنني مقعد قش صغير وتقدم من الغلباوي ، وكان ثلاثة من اولاد صف الغلباوي يرافقونه على سبيل الاحتياط . وتنشقت رائحة الخطر ، وطأطأ الغلباوي رأسه ، مثل مسكين من مساكين « البؤساء » ودس يده في جيبه مستسلماً ، وانا رأيت فتاة ذات شعر أسود طويل تمر على الرصيف المكتظ ، وتمنيت لو تقف وتراني ، ولكنها ما كانت تعرف ماذا أضمر ، فمرت واختفت ، والتفت الى العملاق ، كنت خلفه مباشرة . كان ينهض في الفضاء بيني وبين الغلباوي وجماعته . ورفعت رأسي وحدقت الى رأسه الحليقة الضخمة ذات الاخاديد والقطب ، ولم أر الغلباوي غير اني رأيت طرف يده تمتد حاملة الدنانير الخضراء . وكنت البس سترة تغطي جسدي الناحل الضئيل وسري المذهل . وخفضت من بصري بعد ان تأكدت من ان رأس هذه الكتلة من الشحم واللحم والعضلات بعيدة نائية في الفضاء ، وانثنيت ، وفتحت سترتي ، والعملاق فتح ثغرة في ساقيه وباعد ما بينهما . وتناولت قضيب الحديد ، وكان يبلله عرقي ، أمسكته بيدي وانحنيت ثم ضربت به ما بين ساقي العملاق بكل ما أوتيت من قوة ، لم يتزحزح لوهلة خاطفة ، ثم اطلق زئيراً حجب هدير الشارع ، ومال الى الامام وأمسك ما بين ساقيه بيديه كأنما يخشى ان تسقط « بضاعته » في سرواله وتستقر في حذائه . بدا لي رأسه قريباً من صدري ، انفتلت بحركة خاطفة ، فأصبحت في مواجهته ، والدنانير سقطت على الارض ، والعيون الذاهلة هوت عليَّ ، وأجساد الجالسين همت بالوقوف ، وأجساد الواقفين أوشكت ان تبتعد عن هول المفاجأة ، ولم أر سوى مؤخرة رأسه ، كان منحنياً منثنياً يعول ويبكي كالنساء وأصابعه كلها بين فخذيه ، وهويت بقضيب الحديد على رأسه الذي كان فاتنا ويدعوني بنداء غلاب لا يقاوم . وارتطم قضيب الحديد بالرأس المقلوب ، كان وجهه منخفضاً كأنما يبحث عن شيء سقط منه على الارض . بسط ذراعيه فسد « دخلة هاشم » ثم تقدم خطوة وسقط على الارض . وسقط قضيب الحديد من يدي ، وهوى ،

في تلك اللحظة ، قلبي في أعماق الخوف السحيقة .

اضطرب الغلباوي وصحبه ولم يبتوا سريعاً في الأمر . فلم يهربوا ولم يجهزوا عليه ، وانما وقفوا في اماكنهم يفغرون أفواههم ويتلفتون ، يخطون خطوات الى الامام وخطوة الى الوراء .

ولما تأهب « أبو الفلاح » للنهوض بعد ان بدد هول وطأة الوجع الأول ، هبت ريح كأنها كانت بانتظار الغلباوي وصحبه للتدخل في اللحظة المناسبة ، فأطلقوا سيقانهم لها . هربوا وتركوني وحيداً في مواجهة هذا الخطر الفادح . لم أتردد رميت بنفسي فوق ابو الفلاح قبل نهوضه الذي لا يقاوم اذا ما تم واكتمل ، فانبطح ابو الفلاح مرة اخرى على الأرض ، وتناولت قضيب الحديد ورحت اضربه على ظهره بقوة اليأس الضارية وجبروت الرعب الكاسر .

والغلباوي يركض ويصرخ :

- . . « ورطنا جمعة ابن الحرام . . » ثم تجمع الناس، واقتلعوني عن ظهر «أبو الفلاح » كما لو أنهم يقتلعون مسماراً، فقد كنت مغروساً في ظهره . وقالوا اهرب قبل ان يأتي رجال الشرطة . ولم اعد أرى شيئاً ، كانت ريح المساء بانتظاري ، فأطلقت لها ساقي واندفعت صوب البيت .

* * *

سألني الغلباوي بعد الحادثة بسنين عن ردة فعلي لو سألني العملاق ان ادفع له الفلوس . فهززت منكبي وقلت أدفع . غير اني لا أطيق ان أرى صاحبي يتعرض للهوان .

* * *

غير ان ابو الفلاح العجيب قرر ان يلجأ الى اسلوب آخر غريب كي ينتقم مني . فقد اتصل في اليوم التالي بأبي وقال له انني أتحرش بأخته . وانه

لولا احترامه وتقديره لمكانة أبي لما سكت عن سوء التصرف هذا على الاطلاق .

* * *

(واكتشفنا ان ابو الفلاح ليس سوى منفاخ ، بالون مكتنز بالشحم المترهل ، وبت بطل المدرسة) .

مشهد الاغماء

عدنا وكانت الشمس تميل عن الهاجرة ، ودلفنا الى البيت . كان اولاد عائشة يخوضون مجموعة من المعارك الشرسة . قالت احدى بناتها :

ـ هذا القلم الأخضر قلمي .

ورد احد ابنائها :

ـ لا القلم الأخضر قلمي أنا . . قلمها هي أزرق .

ولعب الغلباوي دور قاضي الاولاد ، وتمنيت ان يشنق نفسه لأتخلص منه نهائياً . ومسدت على شعر آخر العنقود ، فانتفضت وأشارت الى الحمام . وقالت :

ـ ماما . . حمامو . .

ففهمت ان أمها تستحم . وأحسست بعرق لزج يتصبب من ظهري ، وسعيت الى غرفتي لأغير ملابسي ، ومررت بالحمام ، فصفع أذني صوت شخير قوي جبار ، فتوقفت عند باب الحمام ، وناديت على اختي عائشة ، فردت بشخير خارق ، أحسست أعضائي تتخاذل ، وناديت الغلباوي بصوت ينم عن يأس وفزع . وهرع الغلباوي فأشرت نحو باب الحمام . هتف :

ـ عائشة .

فردت عليه بشخير متصل . أظلم وجهه ثم امتقع . واقترح ان يكسر باب الحمام بقدمه ، فكرت في الأمر ملياً ، وقلت انها سوف تكون عارية في

حوض الحمام . فطن الغلباوي الى ما أرمي اليه ، فقال انه سوف يغض بصره او يغمض عينيه بعد ان يحطم الباب .

صمتنا وهلة ونحن نتبادل النظرات ، وكان يحدق الي بنظرة كاوية كأنما يستعجل قراري . وشخير عائشة يرتفع ويتأجج . خفت ان يسترق النظر اليها وهي عارية . قلت له ان ينصرف الى الصالة ، وانني سأتدبر الأمر وحيداً . وضربت الباب بقدمي ، فلم يتزحزح ، ثم ضربت مرة أخرى فظل جامداً في مكانه لا يميل ولا يتداعى . وتململت بين اليأس والرجاء ، ثم فزعت الى غرفتي وأحضرت غطاء السرير . غير ان الغلباوي لم ينتظر عودتي ، ضرب الباب بقدمه بقوة ضارية فأطاحه ، وسارعت الى قذف الغطاء عليها في اللحظة المناسبة . كان الحمام مكتنزاً بالبخار ، انثنيت عليها وحاولت أن ارفعها ، غير أنها كانت ثقيلة ، وأنا متضمر الوجه نحيل الظل ، تقدم الغلباوي ودفعني جانباً بيده الغليظة ، حملها بخفة ورشاقة وسعى الى غرفتها وطرحها على سريرها . انحسر الغطاء على جانب من جسدها ، وأحسست بدمي يغلي غليان الماء في مرجله . وصاح الغلباوي قائلاً :

ـ إنها بحاجة الى تنفس اصطناعي . هل تتقن ذلك ؟

وسألته عن معنى التنفس الاصطناعي . وبدا وجهها شاحباً ونظراتها زائغة . فدفعني مرة اخرى فكدت اسقط على الارض ، كانت ركبتاي تصطكان ، وشفتاي ترتجفان ، وأنا أضرب كفاً بكف والدموع تملأ عيني ، وأغمغم :

ـ هل ماتت ؟ هل ماتت ؟ .

وانثنى الغلباوي فوقها ووضع فمه على فمها وراح ينفخ . كنت ذاهلاً شارد النفس مضطرباً ، و لكن هذا المشهد المريع جعل نفسي تثوب الي . فاندفعت نحو الغلباوي ودفعته بعيداً عنها ، فسقط عن السرير من الناحية الأخرى . وهتف :

ـ انت مجنون . مريض . متخلف .

وقال انه كان يقبلها قبلة الحياة ، ويحاول ان ينقذها . وبدأت تتنفس بصعوبة ، وراح صدرها يعلو وينخفض ، فتنفست الصعداء . وسويت الغطاء فوق جسدها. خرج الغلباوي مغضباً ساخطاً وقال انني حمار وانه سيتصل بالطبيب .

اختنق صوتي فلم أنبس بكلمة . جلست على طرف السرير ، وعاد فاضل بوجهه المتجهم وقال ان الطبيب في طريقه الينا . وظل واقفاً وهو يولي عائشة ظهره . وقال انه ابن عمها ، ثم اطبق شفتيه وشبك ذراعيه على صدره مقطباً . كنت استرق النظر اليه بين الحين والآخر ، فيلتفت نحوي وترتطم نظراتنا تأخذ عيني عينه وتأخذ عينه عيني ، ثم سرعان ما تدع عيناي عينيه وأطاطىء .

قال الطبيب أنها كانت تعاني من حالة اختناق . وأنها ستتحسن بسرعة . ثم خرج وخرج الغلباوي في اثره دون ان يودعني . وآويت الى غرفتي ، وخلوت الى نفسي واخذت رأسي بين يدي ورحت انتحب وتساءلت بمرارة :

ـ ترى . . هل رأى الغلباوي جسدها عارياً ؟

واجتاحتني قشعريرة حادة ، فاضطربت نفسي وزلزل قلبي . وحين فتحت عائشة عيناها بدت وكأنها تفيق من حالة لم تكن نوماً ولا يقظة ، كانت تسحب أنفاسها بصعوبة . وتحلق الاولاد حولها ، فطردتهم ، إلا آخر العنقود فقد تأبت علي . فاستسلمت . قالت بصوت خفيض انها تشعر بثقل في الرأس ودوار كأنه الحمى تدور وتدور حارة متقدة في جفنيها ورأسها . وسألتني :

ـ ماذا حدث ؟

كانت ترتعش بقوة . حملت بطانياتي كلها وكومتها فوقها ، وسألتها ان كان الغلباوي قد رآها عارية .

نظرت الي نظرات غافلة شاردة ذاهلة وبدا أنها لا تدرك اطلاقاً ما الذي حدث .

***

كثير الغلبة يتكلم

أقسم بالله أنني حاولت ان اساعده على التأقلم . قلت له يا جمعة يا حبيبي يا ابن الحلال يا ابن عمي ، ينبغي ان تخرج من غربتك وتدخل الحياة العامة . انظر الي ، لقد بدأت من الصفر ، من عتمة دامسة منسية خرجت لاصبح نجماً لامعاً .

دغدغته أشعة الشمس فابتسم . دعوته لحضور جلسة في بيت كاتب من أعضاء الرابطة . سأل عن طبيعة الجلسة بقلق . قلت :

- أبداً مجموعة من اعضاء الرابطة التي أعيدت الى الحياة بعد أن حلت . . تجتمع وتتناقش .

فهز رأسه موافقاً .

وإذ اوت الشمس الى هاوية الغروب ، سعينا الى دار الكاتب الصديق ، كانت مجموعة من الكتّاب تناقش أسبوع الشعر الذي احيته الرابطة بمناسبة يوم الارض .

حييت الشباب فرد بعضهم التحية ، واسترسل البعض الآخر في النقاش . كان النقاش حامياً والآراء تشتجر . الكاتب الديموقراطي الموهوب كان يعترض بحدة على اتاحة الفرصة لشاعر رجعي ان يلقي قصيدة في مثل هذه المناسبة الجليلة . قال ان الهيئة الادارية للرابطة «تلمع الشعراء اليمينيين». وكانت سحب الدخان تنعقد في فضاء الاجتماع المنعقد . ساد هرج ومرج ،

فتناولت زجاجة الخمر وسكبت في كأسي وكأس جمعة الذي التزم الصمت ، وكان يرغب في مناقشة مسألة الالتزام في الأدب . لكن الآذان معرضة ، والنقاش حامي الوطيس . وقال كاتب يطلق شعر رأسه وشعر ذقنه ويبسط يديه كلما انتهى من عبارة ، بينما يمسك خياله ، ويلجم ويقبض موهبته بقواعد عقلانية صارمة ، ان المسألة مسألة ايمان في الديموقراطية والتعددية .

وسأل :

ـ هل نؤمن فعلاً بالتعددية ؟

وشبك ساقاً على ساق ، ثم أردف قائلاً :

ـ اذا كنا نؤمن بأن التعددية والديموقراطية استراتيجية وليست تكتيكاً فإني لا أرى غضاضة في منح شاعر يميني او رجعي فرصة القاء قصائده من منبر الرابطة .

وتساءل ان كان الديموقراطيون والتقدميون ديموقراطيين وتقدميّين فعلاً .

ثم أتى على ما في كأسه بجرعة واحدة وتساءل :

ـ لماذا كنا ننتقد قمع السلطة للتقدميين . . ونحن نحاول الآن قمع اليمينيين . يبدو ان التسلط يعشعش في نفوس جميع ابناء العالم الثالث . في اعماق الضحية والجلاد في آن .

ترنح أحدهم وقال :

ـ لا اسمح لك باتهامنا بالفاشية .

رد الكاتب :

ـ أنا لم اتهم احداً بالفاشية .

أصر المترنح :

ـ كلامك يقود الى هذه النتيجة .

قال الكاتب بعصبية :

ـ يا أخي . كل ما أردت قوله هو اننا نعيش مرحلة ديموقراطية . فلنحارب مجموعة هذا الشاعر اليميني على مستوى انتخابات الهيئة الادارية حرباً

ديموقراطية شريفة . ولكن لا يحق لنا أن نمنعه من القاء الشعر في الرابطة ، وهو عضو فيها .

أطلق كاتب ذو وجه يذكر بوجه تروتسكي ضحكة مجلجلة وقال بين التهكم والاستنكار :

- وهل تصدق اننا نعيش مرحلة ديموقراطية ؟ انها مجرد جمعة مشمشية لتخدير الناس . مجرد استراحة بين شوطين .

ثم كور قبضته وضرب الطاولة بها فاهتزت الكؤوس واضطربت الرؤوس . وانسل جمعة وسط ضباب الدخان متستراً بالصخب واللغط والكلمات المتطايرة بفوضى عجيبة الى الخارج . فلم ينتبه الى خروجه أحد. والحق أقول ان احداً لم ينتبه ايضاً الى دخوله .

قال انه يرغب في أن يملأ رئتيه بهواء نظيف . وقال انه كان يتوقع حواراً أدبياً حول مسائل ثقافية . وكنت بحاجة ماسة الى كأس اخرى ، فاقترحت عليه ان نسعى الى بيت صديقي المحامي الذي يترأس لجنة الدفاع عن حقوق الانسان . تأبطت ذراعه غير انه حررها بحركة هينة من قبضتي . وقال انه كان يعتقد انني مقرر لجنة الدفاع عن حقوق الانسان . قلت انني مقرر لجنة مقاومة هجرة اليهود السوفيات الى فلسطين. فقرر انه لا يرغب في حضور أي اجتماع هذه الليلة .

اختطفته العتمة فلم أجد له أثراً . بغتة تذكرت ان طائرة المفكر العربي المصري الصديق الذي دعته مؤسسة شومان الى عمان لالقاء محاضرة ستحط على أرض مطار الملكة علياء بعد نصف ساعة . وتذكرت انني تبرعت بأن استقبله في المطار .

صدقوني . . هكذا تمضي أيامي . مثل أم العروس . فاضي مشغول . ألهث طوال النهار . أطير الى المطار بسيارتي . وعادة . . لا مفر من تأخر الطائرة . ثم احضر مهرجاناً بمناسبة ما لأصفق . ثم اهرع الى اجتماع لجنة منع اليهود السوفيات الذين هاجروا من الهجرة ! ثم اسارع الى حضور اجتماع

لمجموعة من الشباب الذين يفكرون في انشاء حزب جديد يتجاوز كل الأحزاب الموجودة على الساحة . ويبدأ الحديث في الدوران في حلقة مفرغة من نحن ؟ ماذا نمثل ؟ ما الجديد الذي سنطرحه ما هي النقاط التي نتفق عليها وما هي النقاط التي نختلف عليها . وندور في حلقة مفرغة ، والخمر تدور في رأسي فيدور رأسي ، وحين اعود عند منتصف الليل خائراً واتداعى على السرير واضع رأسي على الوسادة ، أتساءل :

ـ ماذا أنجزت اليوم يا فاضل ؟

فأجيب نفسي بلهجة خائبة :

ـ لا شيء أبداً .

* * *

مع كثير الغلبة

بدأ نجمي يلمع في الصحافة . قلت لجمعة القفاري ناصحاً :

- انصرف عن الأدب والحكي الفاضي ، وتعال الى عالم الاعلام . وكشفت له عن سر خطير حين قلت له ان سر نجاحي ومفتاحه هو النفاق على الخفيف ، واسماع المسؤول ما يحب ان يسمع .

كانت وداد تتأبط ذراعه ، وهبات نسيم تزف فيترنح شعرها . وجمعة يرى ان الكتابة في الصحف والعمل في الاذاعة او التلفزيون ، يستنزف الأديب . وقال انه لا يعرف كيف يمسح الجوخ !

فسألته :

- هل تعتقد انك تملك موهبة تولستوي ؟

حرر ذراعه من ذراع وداد ، وانثنى نحو الارض . سألته إن أضاع شيئاً ؟ غير أنه شد رباط حذاءه . ثم انتصب مرة اخرى ، وواصل السير ، دون ان يعيد ذراعه الى ذراع وداد .

ثم اختفت وداد من حياته نهائياً . بعد ان اكتشفت ان جمعة يخلط بين شخصه الكريم وشخصية نعمان العموني الروائية التي لم ترو بعد .

المهم ان تمسك طرف الخيط . وعائشة تحيك الخيوط ببراعة وصمت . وأنا اراقبها ، أحكي كلاماً دون معنى ، وهي تحيك دون ان تسمع . وطرف

الخيط كان مدير تحرير احدى الصحف المحلية . وقال لي تعـال واكتب عموداً اسبوعياً . ورحت أكتب . وجاءت الفرصـة الفريـدة ، ففصل وزيـر الاعلام سبعة من كتّاب الزوايا اليومية . وسألني مدير التحرير ان كنت على استعـداد لكتابة افتتاحية يومية تمـدح الحكومـة (دون توقيـع) ، فوافقت من فـوري ، مهتبلاً اللحظة الحرجة التي كتب عنها لينين الذي لم أقرأ أعماله .

وفي الصحيفة اكتشفت ان ثورة المعلومات هي سمة العصر ، واكتشفت ان عائشة لا تحب ما أكتب ، غير انها لا تعترض .

ومن خلال الصحافة تعرفت الى أقطاب ووجهاء البلد . ومنهم مسؤول في الاذاعة . والمسؤول في الاذاعة قـال انه اكتشف انني اتمتـع بحنجرة ممتـازة وانشاء رائع . أتحدث ساعة بلا معنى ، وأكتب مقالات مطولة لا تقول شيئاً . وجمعة اتهمني بالنفاق ، فقلت ان الافتتاحية اشبه ما تكون بـاعلان تجـاري . واكتشفت ان وجهاء البلد « يستلحمون » على ظهور صورهم !

وقال جمعة بلهجة احتجاج انني أتـردد على بيت عـائشة بـطريقة مبـالغ فيها . قلت انها ابنة عمي وانني احب زوجته . ره ، وانني ارغب في ان ازجه في عالم الاضواء . وكانت عيناه تومضان ببريق غامض مخيف . وكنا ننطلق الى مبنى التلفزيون ، وقال جمعة ان كاميرا التلفزيون مخيفة . ظننته يمازحني ، وكان الهواء يعبث بشعره ، فـإذا خصلاتـه تتياسر وتتيـامن ، وفتحت جيب سيارتي وناولته مشطاً ، قلت :

- ستظهر على الشاشة وأشرت عليه ان يسوي شعره . غير انه كاد يسوي تحته خوفاً من الكاميرا التي لم يرها بعد .

وقال دون ان ينظر الى المـرآة انني ارشوه كي ابسط طـريق العلاقـة بينه وبين اخته عائشة . وانقبض قلبي . بينما تبسط هو في الكلام . وكانت عينـاه تبرقان خوفاً من الاضواء قبل ان يراها . وأنا قلت في سري هذا الولد يخاف من الحياة . بينما انا مقبل عليها ، لا أخافها ولا أعرض عنهـا . وهكذا دلفت الى بيت عائشة ، فرأيت جمعة يقضم اظافره مغالباً مزاجه المتقلب . ورأيت عائشة

تقضم خيط زر قميصه المخلوع . اتخذت هيئة جنرال خاض حرباً خاطفة وربحها دون تردد .

قلت انني ادعوها لتناول العشاء في فندق « هشام » بجبل عمان . رفع جمعة عينيه دهشة دون ان يرفع رأسه . وعائشة لم ترفع عينيها ولا رأسها ، وراحت تسوي زر قميص جمعة وتشد الخيط . غالبت ارتباكي وقلت ما رأيك يا جمعة ؟

سألني ان كان مدعواً . فقلت انني دعوت عائشة واقترح ان يلعب دور جليس أطفالها الى ان نعود . وسألته ان كان يقبل بلعب هذا الدور . قلت :

- لن نتأخر . هل توافق ؟

انتزع القميص من يد عائشة . ثم دخل فيه . وتقدم من المرأة وقال ان عائشة لا تسهر . وأن القميص ممتاز . وضعت عائشة كل ما في حجرها جانباً وسألت جمعة :

- ومن قال لك انني لا أسهر ؟

قذف جمعة قميصه بعيداً . وقال ان الزر لا يدخل في العروة . وان الحياة معقدة مثل كمبيوتر لا يفهم ازراره . واخذ رأسه بين يديه كالحردان ، بينما قامت عائشة لتلبس ملابس السهرة .

مشهد : الغلباوي يحلل شخصية جمعة

« مشكلة جمعة يا عائشة لا تكمن في انه عاجز عن التصالح مع نفسه وعقد معاهدة سلمية مع الحياة كما يحلو له ان يقول . شايفة يا عائشة ؟ » وعائشة ترفع عينيها نحو « كثير الغلبة » دون وجهها وتقول وكأنها تصحح له خطأ في قواعد اللغة العربية :

- سامعة مش شايفة .

وتضحك . ثم تصرخ على ولد من اولادها وتقول له ان يذهب الى غرفته ويدرس . ثم تعود اصابعها الى التكتكة على الآلة الطابعة :

والغلباوي يقول :

- يا ابنة عمي . أنا أريد مصلحته . تصوري انني تواسطت له كي يعمل في التلفزيون . تصوري .

لكن عائشة لا تتصور فهي لا تضع نظارتها الطبية ، وهي ملهية بالبحث عنها . قالت أنها اضاعت نظارتها الطبية مرة اخرى . وانها دون نظارتها الطبية لا تستطيع ان تدخل الخيط في ثقب الابرة . وقالت انها لا تعرف لماذا تتساقط ازرار قمصان جمعة دائماً .

انثنى الغلباوي ومسح بنظره الأرض بحثاً عن النظارة . وسألته عائشة ان كان قد اسقط شيئاً . قال انه يساعدها في البحث عن نظارتها . فأدارت ظهرها وقذفت بصرها عبر النافذة . قالت ان المرء لن يعثر على نظارة ضائعة اذا

كان يتوقع ان يجدها على الأرض .

وقف الغلباوي خلفها وراقب شعرها الاسود يتدفق مع نسمات الهواء الهينة على ظهرها . بدا له ان هذا الشعر ينبض ، ان خصلاته تنبسط وتنقبض . فانبسط صدره وانشرح وقال انه يحاول ان يساعد جمعة لكن جمعة لا يحاول ان يساعده على مساعدته . وقالت عائشة دون ان تلتفت :

ـ ما عاد يمر منذ اعوام وأعوام .

اتسعت عينا الغلباوي وارتبك وسألها :

ـ مَنْ ؟

فأغلقت النافذة . كان النسيم بارداً . قالت أنها تقصد الباص .

حدق الغلباوي الى مظلة الباص المهجورة ، ثم عاد ومال نحو عائشة ثم قال ان جمعة فشل في البرنامج التلفزيوني الذي حشره فيه الغلباوي بالواسطة منذ اول حلقة .

تصوري انه كان ينتظر دوره كي يسأل الضيف . لم تبث الحلقة كلها . لأن جمعة أفسدها . انه لا يعرف كيف يسرق الاضواء . قلت له : « يا جمعة ، يا خوي ، سرقة الاضواء حرفة ينبغي ان تتقنها». انظري الي ، ألم أتحول الى شخص لامع ؟ لكن جمعة خاف من الكاميرا . كانوا ثلاثة مذيعين يسألون ضيفاً عن الثقافة والأدب .

قلت لجمعة قبل ان يدخل الاستوديو :

ـ انس وجود الكاميرا يا جمعة . هذا امتحان وينبغي ان تنجح فيه . ثم اسرق الأضواء . اجعل سؤالك طويلاً كالازل ، ثرثر ، اسأل السؤال وأجب عليه عند الضرورة ، استرسل ، كي تتركز الكاميرا عليك أطول فترة ممكنة . ينبغي ان تتعلم سرقة الاضواء ، وخطف الكاميرا . لكن جمعة انكمش في مقعده وراح ينتظر دوره كي يسأل السؤال . تصوري انه كان يقبض على ذراعي مقعده وكأنه على وشك السقوط في هاوية ، كانت الرعشة تسري

بوضوح في يديه وعنقه . ونجح المذيع الأول في أن يسأل سؤالاً تجاوز فيه الوقت المحدد لاجابة الضيف ، ولما أجاب الضيف على السؤال الطويل غير المفهوم ، عاد المذيع الأول ليقتنص الاضواء ويحرم جمعة وصاحبه منها فقدم مداخلة طويلة تعليقاً على اجابة الضيف . وجمعة ينتظر دوره ، لا يبادر ولا يدافش ولا يدافع ولا يقتحم . شفت ماذا فعل بي وبنفسه يا عائشة ؟

ونفت عائشة انها شافت ماذا فعل أخوها ولكن ها هي تسمع .

ودلفت عائشة الى المطبخ وقالت انها ستعد ركوة القهوة . ثم رفعت عائشة ركوة القهوة عن النار ، والتفتت نحو الغلباوي بحثاً عن الفنجانين . فهز منكبيه وقال :

ـ هل تعرفين ماذا قال جمعة حين أشرت عليه بأن يقتنص الاضواء ؟

سعت عائشة نحو خزانة وفتحتها ، وضعت الركوة على ظهر احد الرفوف وتناولت صينية . قالت انها لا تعرف ماذا قال جمعة حين أشار عليه الغلباوي ان يقتنص الاضواء . قال الغلباوي بلهفة :

ـ اسأليني أنا .

ولم تسأله . لكنه لم ينتظر طويلاً ، فأجاب دون أن تسأله . قال ان جمعة قال له :

ـ لست قناص فرص .

وانا قلت له ان الحياة مثل مائدة طعام ، افترض ان صديقاً أولم لك ، ينبغي ان تمد يدك وتتناول الطعام ، وإلا قمت عن المائدة جائعاً .

قال ماذا ؟ لوى بوزه وقال انه لا يمد يده الى الأطباق البعيدة مهما كانت شهية ، وانه يعود عادة من دعوات العشاء الى البيت جائعاً ، فيتناول الطعام على راحته في البيت . شايفة يا عائشة . . عجبك هذا المنطق . . شايفة ؟

ابتسمت عائشة ابتسامة وضيئة وقالت :

ـ سامعة مش شايفة . ألم أقل لك ان تحضر فناجين القهوة ؟

فتح الغلباوي فمه دهشة وقال انه بحث عن مكان الفناجين وعن النظارة فلم يجده . أطلقت عائشة ضحكة خافتة مشرقة . قال الغلباوي ان موقف جمعة يبعث فعلاً على الضحك . قالت عائشة وهي تسكب القهوة في الفنجانين :

- طول عمره هكذا .

سألها الغلباوي :

- يعني طول عمره أحمق . الحياة تحتاج الى فهلوة . الحركة بركة . . يعني .

قالت عائشة :

- لا . طول عمره عنده عزة نفس !!

* * *

اني اراقبها . عائشة تعيش في حلم متصل . أصابعها تنقر على الآلة الكاتبة ، وحين لا تنقر اصابعها على الآلة الكاتبة ، فإنها تعكف على اولادها تدرس هذا ، وتعد الطعام لذاك ، وتضرب الثالث على مؤخرته . وحين تفرغ من كل هذا الصخب والاضطراب ، تترك خدها ليميل على راحة يدها ، وتحدق من النافذة الى الشارع . الى مظلة الباص المهجورة . كأنما تنتظر احداً . انها لا تسمعني . تهز رأسها موافقة ، ثم تضرب ابنها الصغير على مؤخرته ، ثم تترجم صفحة او صفحتين . ثم تهز رأسها وتلتفت الى النافذة ، فيشرد بصرها الى البوابة ، ثم الى الشارع ثم الى مظلة الباص المهجورة . . . ثم يسرح في الأفق البعيد . وتقول حين تأنس مني صمتاً :

- نعم . نعم . تابع حديثك . اني أسمعك . كلي آذان كما يقولون .

واعرف انها لا تسمعني ، غير اني استأنف حديثي بحماسة لا تعرف اليأس او الكلل . وقلت انني سأحاول اقناع اصدقائي في التلفزيون او الاذاعة منح جمعة فرصة أخرى . . أخيرة .

* * *

مشهد : الفرصة الأخيرة

يدخل « كثير الغلبة » الى البيت . يدخل ؟ لا ، انه يعصف ببيت عائشة مثل زوبعة شعثاء . وما ان تقع عيناه على عينيها ، حتى يبدأ في عرض حالتي الميؤوس منها . يشكوني لها كأنها قاض وهو ضحية . يقول ، وهو يلوح ذراعيه في الفضاء :

- ماذا أفعل ؟ حاولت ان أساعده . . فلم يساعدني على مساعدته . . ماذا افعل يا عائشة ؟

وعائشة تنقر بأصابعها القوية الباذخة على الآلة الكاتبة . ثم ترفع اليه عينيها دون رأسها . عينان تجللهما نظرة غامضة تواري وراء حيادها خوابي اسرار وكنوز مشاعر خفية ، عصية على التخمين .

يدور « كثير الغلبة » في الصالة مثل زوبعة غاضبة متوجعة ، فيدور رأسي ويثور غبار الصداع ، وأمضي الى صندوق الاسعافات الأولية ، لأتناول قرصاً من الاسبرين . تقول عائشة وانا اهم بفتح الصندوق :

- اجعلهم قرصين !

ويحكي لها كيف « دبرني » في التلفزيون بواسطة علاقاته الشخصية . وكيف فشلت في أداء دوري ، في تلك اللحظة لم أتمالك نفسي فقاطعته وقلت لعائشة بلهجة المحامي المتمرس انهم طلبوا مني اجراء مقابلة مع وزير خارجية الصومال ، وان « كثير الغلبة » أشار علي بأن أصفف شعري وأسرحه عند

حلاق حداثي طليعي ، وأن اضع ربطة عنق وارتدي بذلة أنيقة . وكانت اصابع عائشة انيقة وهي تنقر على الآلة الكاتبة . والاولاد لا يحومون حولها لانهم في المدرسة . وكانت ذبابة تحوم حول انفي . وقلت لعائشة :

ـ تصوري ان وزير خارجية الصومال كان يرتدي الزي الشعبي الصومالي .

صمت برهة ثم خفت ان يستغل « كثير الغلبة » صمتي ليستكمل بيان ادعاء خيبتي . فكررت بالحاح :

ـ تصوري يا عائشة . . تصوري .

لكن عائشة لم ترفع عينيها عن الآلة الطابعة فأدركت انها لم تتصور .

واندفع كثير الغلبة مزاحماً فقال ان مندوب التلفزيون ينبغي ان يكون وسيماً أنيقاً ، وانني كنت أشبه ما أكون بصعلوك خرج لتوه من القفار . والكاميرا تصور جمعة وهو يقابل وزير خارجية الصومال ، تصوري ، وشعره أشعث ، اقصد جمعة . وقلت ان وزير الخارجية نفسه كان صاحب شعر أشعث . قال كثير الغلبة :

ـ ولكنه كان يغطيه باطقية .

وتوقفت عائشة عن الطباعة والترجمة وقالت انها لا تستطيع التركيز . وان مشاكلي ومشاكل كثير الغلبة تصدع رأسها . التفت كثير الغلبة نحوي وقال بلهجة آمرة :

ـ احضر لها قرصاً من الاسبرين .

ضربت قدمي في الارض وقلت :

ـ احضره أنت .

وقامت عائشة فإذا بنظرات « كثير الغلبة » ترافق حركتها . ومشت نحو الباب ، فلحقت بها نظراته ، ثم حطت الذبابة على جفنه . وخرجت عائشة الى الحديقة . قالت انها ترغب في ان تشم الهواء .

التفت كثير الغلبة نحوي وقال بلهجة زاجرة :

ـ عجبك ؟ سببت لها صداعاً . ألا تكفيها مشاكلها ؟

وطرنا أنا و« كثير الغلبة » الى المطار . قال تعال أعلمك كيف تجري حواراً مع الناس الذين يتمتعون بوزن ثقيل . وطار شعري الاشعث من النافذة ، ولم أغلقها ، فتبعثرت خصلاته الجعدية ، وكان شعر كثير الغلبة مسرحاً بعناية فائقة . وخاف على تسريحته فقال :

ـ اغلق النافذة .

وأغلقت النافذة لكنه لم يغلق فمه . وراح يثرثر عن فهلوته كالعادة . وفي صالة الشرف أجرى كثير الغلبة (مندوباً عن التلفزيون الاردني) مقابلة مع الضيف ذي الوزن الثقيل ، علماً ان الضيف بدا لي نحيلاً معروق العظام متضمر الوجه يكاد يختفي في بدلته . مد كثير الغلبة المذياع نحو فم الضيف وكانت الكاميرا تصور . سأله كثير الغلبة :

ـ سيدي . . جئت الى عمان لاجراء مباحثات اقتصادية مع الجهات الاقتصادية الاردنية المعنية ، وكانت هذه المحادثات مفيدة وناجحة ، وقد اتفقتم مع وكيل وزارة الاقتصاد والتجارة على ان تلتقوا مرة أخرى بعد شهر في عاصمة دولتكم . . فما هو رأيك في هذه المحادثات الأخوية ؟

اتسعت عينا الرجل النحيل ذي الوزن الثقيل ، ثم ابتسم ابتسامة ساخرة ، ثم قال باقتضاب :

ـ لقد سألتني سؤالاً وأجبت عليه أنت بنفسك . . فشكراً .

ثم قام ليودع كبار الموظفين الاردنيين وادار ظهره وطار . وطار « كثير الغلبة » من وظيفته في التلفزيون . فوجدنا انفسنا مرة أخرى في الشارع . أقدامنا تدوس شارعاً مقفراً ، وأيدينا تندس في جيوبنا المقفرة . وأنا لم أشمت به ، ولم ارد له الصاع صاعين .

* * *

مشهد : جمعة في سوق الصاغة

ينبغي على المرء أن يتعلم كيف يحترم نفسه . أنا على سبيل المثال ، ما كنت ارتدي بدلة أنيقة وربطة عنق حين اندفع صاحب محل المجوهرات بوجه وقح لا يأخذ وجود المارة بعين الاعتبار وصرخ :

- حرامي .

وركض المارة لا أدري إن كانوا يلاحقون الحرامي ام يهربون من رجال الشرطة . تدافعوا بالمناكب ، الشارع مزدحم بالناس ، مقفر من الهواء . وركض الشارع من تحتي ، للوهلة الأولى حسبت ان الشارع يركض بكل هؤلاء الناس . ثم اكتشفت انني اركض مثل بقية الناس . وواجهات المحال تركض ، وملامح عابرة تومض ثم تختفي ، وعيون واسعة في محاجرها رعب ، وفي احداقها غضب . وكنت الهث وامرأة بدينة تتدحرج أمامي مثل إوزة ، وتصرخ :

- يا ويلي . .

ولم أعرف ان كانت تقول « يا ويلي » بدافع الخوف من رجال الشرطة ، أم انها تستنفر النخوة في الناس لينشطوا ويمسكوا الحرامي ، أم لأنها هي نفسها حرامية وخائفة بعد ان انكشف أمرها ، أم لأن الحرامي سرق تحويشة العمر منها مباشرة .

كانت تسد الرصيف ببدانتها المفرطة وتدحرجها الذي لا يخلو من تلكؤ .

وتلهث ويهتز الشحم واللحم تحت الثوب البنفسجي . والارض تهتز من تحتنا ، والكل يلهث . دفعها رجل فقد اتزانه تماماً فمالت نحو الشمال ، واوشك جسدها ان ينثني ويميل نحو الارض ، ففزعت اليها ، وأمسكت بذراعها ، وأعدت اليها توازنها ، وركلني هارب أو مطارد من الخلف ، فكدت اسقط فوق المرأة البدينة التي منعتها من التداعي . . مالت برأسها نحوي ، حدقت الي بذعر من بين الاجساد المتدافعة ، ثم بصقت في وجهي متسائلة باستنكار :

- أهذا وقته ؟ أنا قدّ أمك يا ابن الحرام !

نعم . ينبغي للمرء أن يتعلم كيف يحترم نفسه ، فلا يخرج من البيت إلا اذا كان على أهبة الاستعداد لمواجهة العالم الخارجي : بدلة انيقة من البالات . وربطة باذخة المظهر ، وشعر مصبوغ صقيل يلمع ، وحذاء مصبوغ صقيل يلمع ايضاً . لو فعلت ذلك لما ركضت مع الراكضين ما ان صرخ ذلك الاحمق (ما اوقح حدقته) :

- حرامي . . حرامي . .

اذ لا يليق برجل يرتدي بذلة وربطة عنق وشعراً مستعاراً على سبيل المثال ان يركض مع عامة الناس . لا بدافع القبض على الحرامي ، ولا بدافع الخوف من رجال الشرطة .

كانت الشمس ضاحكة ، والنسيم هيناً ، وكان بوسعي (لو كنت ارتدي ملابس رسمية لائقة) أن أقف في مكاني ، ما ان صرخ الأحمق ، وانتبذ مكاناً قصياً على الرصيف ، وأراقب المارة وهم يركضون فتطير شعور النساء ، حذية الرجال ، وترتفع اصوات رجال الشرطة وابواق السيارات المستثارة ، راكض والسيقان المنطلقة في الريح . واكتفي بأن أطلق صفير المطمئن وابتسم تسامة الواثق ، بدلاً من ان اطلق ساقي للريح ، في شارع مزدحم بالناس فتقر الى الريح . الابتسامة والملابس الانيقة تمنحان الثقة وتبعدان الشبهة . في ية حال ، الحياة دروس وعبر . وقد سجلت في دفتري ان المرء ينبغي ان لا يخرج من البيت الى الشارع والعالم الخارجي إلاّ وهو على أتم الاستعداد

للمواجهة . اذ لا يعقل ان يركض رجل انيق محترم في الشارع وهو يرتدي ملابس فاخرة المظهر . وأنا ركضت لأني لم أكن متأهباً . لقد اخذني الشارع او الحياة على حين غرة . كنت ارتدي سروال « جينز » بهت لونه ، وقميصاً ذا ياقة متسخة ، والعرق يبلل ظهري . لهذا السبب بالتحديد ، ركضت عندما رأيت الناس يركضون ، ثم سمعت « الجواهرجي » يصرخ في وسط البلد وفي وضح النهار :

- حرامي . . حرامي .

« كثير الغلبة » ، فيلسوف زمانه ، عجز عن امساك لسانه في فمه حين سمع بالحكاية . فعلق قائلاً وهو يبتسم ابتسامة الحكيم العارف ببواطن الأمور ان الناس تراكضوا نتيجة للخوف المزروع في نفوسهم منذ أيام الامبراطورية العثمانية !

* * *

مشهد : جمعة جليس اطفال

منذ ان بدأت عائشة تغرق في الحياة العامة ، حتى بت جليس اطفالها . والصحيح انني اصبحت جليس طفلتها الصغيرة (آخر العنقود) فجميع ابناء عائشة الآخرين يمضون منذ الصباح الباكر الى مدارسهم . فيما تسعى عـائشة لتخوض في الحياة العامة . وأبقى أنا وآخر العنقود وحيدين في البيت الـواسع القديم .

لم أكن أعرف الكثير عن آخر العنقود . فماذا يمكن للمرء أن يعرف عن طفلة لم تتجاوز الثالثة من عمرها ؟ كنت احسب أنه لا توجد « معلومات » عن طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره . . وبالتالي فإنه من الطبيعي أن لا أعرف شيئاً يـذكـر عن آخـر العنقـود . وكم اكتشفت بعـد الاسبـوع الأول انني ج'هـل وبريء !

* * *

خرج الاولاد الى مدارسهم ، وتوجهت امهم الى الجمعية . وبقيت انا وآخـر العنقـود ذات الشعـر الاشقـر الجعـدي والصمت وحيـدين في البيت القديم . انني اقوم بهذه المهمة لأول مرة . اذ باشرت عائشة عملها متفرغة للحياة العامة اليوم فقط . وطلبت مني ، بصفتي بلا عمل ، أن أهتم بالطفلة الصغيرة الى ان تعود . ابتسمت وقلت :

ـ ولو . . بسيطة . . على رأسي .

مضت عشرات الدقائق قبل ان اكتشف ان آخر العنقود تتبعني وتمشي في أثري أينما وحيثما توجهت . انتبهت الى هذه الظاهرة ولاحت لي أنها ظاهرة طريفة . دلفت الى الحمام ، فقفت خطواتي . توقفت في منتصف الحمام ، فتوقفت وهي تحرص على أن تترك مسافة محددة بيننا . كانت تحدق الي بنظرة ذات مغزى غامض ولكنه بليغ . فتحت صنبور المياه . غسلت وجهي واسناني . ولاحظت أن آخر العنقود تراقبني بعيني صقر لا تفوته فائتة .

حين بدأت احلق ذقني تبدلت نظرة عينيها . راحت تراقب رغوة الصابون في ذهول مسيطر عليها تماماً . أحسست ان هذه الطفلة تخشى ان اكتشف ذهولها . بدت وكأنها تحاول مداراة دهشتها بقوة غلابة . غير انني سرعان ما جففت وجهي وطردت هذه الخواطر الطريفة اللامعقولة . وقلت لنفسي ان الوحدة والصمت تدفعان المرء الى تصور أمور غريبة غير موجودة .

هممت ان اخرج من الحمام ، فإذا بها تتنحى جانباً لتخلي لي الطريق . قلت في نفسي انها طفلة هادئة عاقلة مدجنة . أخرجت لها لساني مداعباً ووضعت يدي وراء أذني ورحت أحرك اصابعي بسرعة . لم تضحك . حدقت الي بنظرة من ينظر الى أبله . سألتني وهي تلحق بي نحو الصالة عن امها . مضيت الى الغرفة التي احتفظ فيها بكتبي . جلست على اريكة وتناولت صحف الصباح . قلت :

ـ أمك راحت الى الشغل .

قرأت المقالات اليومية التي تتحدث معظمها عن المسيرة الديموقراطية الجديدة في الاردن . الاخبار كانت متشابهة في الصحف الثلاث . وقرأت مقالة عن العلاقة بين الأزمة الاقتصادية والفساد والسمسرة وضرورة معالجتها بالديموقراطية . ونسيت آخر العنقود اذا استغرقتني صحف الصباح تماماً .

بغتة احسست بيد تشد الجزء الاسفل من بنطالي، طويت الصحيفة وأطلت عيناي من فوقها بينما أخفى نصفها السفلي بقية وجهي . واذا بي

اكتشف ان آخر العنقود قد أحضرت كمية كبيرة من العابها بخفة ورشاقة ، حتى انني لم انتبه إلا بعد ان انتهت من نقل معظم العابها الصغيرة من غرفتها الى الغرفة التي خصصتها عائشة لكتبي واوراقي . شدتني من بنطالي . قالت :

ـ تعال .

ابتسمت ابتسامة مفتعلة وقلت بلهجة من يتكلم مع امرأة ناضجة :

ـ حسناً . ولكن بعد أن أقرأ الجريدة .

ثم أمرتها ان تحمل العابها وتعيدها الى حجرتها شارحاً لها ان هذه الغرفة مكتبة لا غرفة العاب . وعدت أتصفح الصحيفة .

بغتة انتفضت كالملسوع حين صفع أذني صوت شيء يسقط ويرتطم بالارض . وضعت الصحيفة جانباً ، فإذا بي أرى آخر العنقود وقد تسلقت رفوف المكتبة ، ورمت أحد الكتب على الارض .

كدت أفقد رشدي ، وفقدت صوابي واضللت عقلي . صرخت في وجهها :

ـ انزلي .

غير أنها أثبتت قدميها على الرف العريض لا تميل ولا تزحزح . كانت ترميني بنظرة تحدٍ واستفزاز كأنما تدعوني الى معركة او نزال .

أخذت نفسي بالهدوء فلم اوفق إلا في مشقة وعناء . تجاهلتها ، عدت الى مقعدي فما تناولت الصحيفة مرة اخرى حتى ارتطم كتاب آخر بالارض . اندلق لساني ، ورحت ارغي وأزبد ، دهمني شعور في قرارة نفسي بأن هذه الفتاة التي لم تبلغ الثالثة بعد ترغب في اذلالي وفرض سطوتها علي . صحت :

ـ هذا كثير . الزمي حدك .

فرمتني بكتاب ثالث وهي ترمقني بعينين فيهما نظرة باردة مخيفة ، وفيهما نظرة كبر وصلافة واعتداد .

كدت أفقد سيطرتي على أعصابي ، فخرجت من المكتبة وسعيت الى الصالة بخطى متلاحقة متسارعة ، فما كان منها إلا أن هبطت ومضت في أثري . عدت الى المكتبة ، فانقلبت على اعقابها ولحقت بي . تداعيت على الكنبة وملت الى الوراء وأغمضت عيني لالتقاط أنفاسي . فإذا بي انتفض مرة اخرى بعد ان سمعت صوت ارتطام كتاب رابع بالارض . التفت فإذا بها قد عادت الى ذلك الرف . كانت ترنو الي في سكون عميق . دب الجزع والغيظ في صدري . أفلت مني زمام نفسي ، فقمت الى الكنبة الأخرى حيث كومت العابها ، وامسكت بلعبة من البلاستيك ، انها فتاة ذات جدائل شقراء وعينين زرقاوين . رفعتها بيدي نحو فضاء الغرفة ثم لوحتها وطوحت بها فهوت على الارض وتناثرت الى قطع واشلاء صغيرة .

انتظرت نحيبها ونشيجها كي أنفس عن غيظي ، وقر قراري على مصالحتها بعد ان تذرف دموعها ، بشراء قطعة من الحلوى من عند البقال القريب . وقفت انتظر ردة فعلها بفارغ الصبر . لكنها لم تبك . لم يطرف لها جفن . كانت تحدق الي بتلك النظرة الغامضة المستفزة الباردة ساكتة ساكنة لا تقول ولا تومىء . انثنت قليلاً ثم تناولت كتاباً آخر وقذفت به نحو الارض فتطايرت اوراقه وحطت على اشلاء لعبتها ذات الجدائل الشقراء .

كدت افقد رشدي . التفت الى الكنبة ، تناولت لعبة اخرى ، (عربة صغيرة) وقذفت بها بكل حقد وضغينة بالارض ، فتطايرت اجزاؤها . وسرعان ما أدركت ان هذه المخلوقة الضئيلة قد وطنت نفسها على اشكال حرب وجود لا حدود ضدي . وما هي إلا لحظات كالومض حتى تحول الاشتباك الجزئي الى حرب شاملة . هي تقذف كتاباً من كتبي . وأنا اقذف لعبة من العابها . وحين أتت على كل كتبي وأتيت على كل العابها ، اتسعت دائرة الحرب لتشمل البيت كله . كانت تركض الى غرفتي فتتناول وسادتي وترفعها وهي تنوء تحت ثقلها ثم تتركها تهوي على الارض ، فأفزع انا الى غرفتها واتناول وسادتها ووسائد اخوانها وأدفع بها الى الارض بكل ما أوتيت من غضب تراكم عبر أعوام واعوام . ولم ينج المطبخ من عراكنا الاسطوري العنيف

الفريد . هي تدب الملاعق ، وأنا أحمل الشوك والسكاكين وارمي بها الجدار .

بغتة ، وفي غمرة هذه الحرب التي لا هوادة فيها ، وبينما كنت الهث وأجفف عرقي بظاهر يدي ، انقشع غبار التعب فإذا بالغلباوي يقف بباب المطبخ صامتاً فاغراً فاه ، يضع يديه على خصره وينقل نظراته الذاهلة المصدومة بيني وبين الطفلة والحطام .

منظره العجيب وهيئته الغريبة اعادت الي رشدي فجأة . التقطت انفاسي كأنما انتزع نفسي من ذلك الاحساس بفقدان التوازن الذي يسيطر على رجل كان يجلس في دولاب من دواليب مدينة الملاهي التي تدور وتدور بسرعة رهيبة فتفقد المرء اتزانه فيستسلم لقوانين حركتها .

كانت عينا آخر العنقود مسلطتين عليَّ ، لا تطرفان . ورأسها شامخاً لا يطأطىء . قال الغلباوي وهو يكاد يكذب ما تراه عيناه :

- ماذا جرى لك ؟ هل تضع رأسك في رأسها ؟ .

استقبلت كلماته بوجه مشيح وأذن معرضة . ورحت امسح بكفي على فمي كأنما اتوقع أن اعثر على آثار دماء . هم الغلباوي في الاسترسال ، لكني غادرت الغرفة وتوجهت الى الصالة .

تداعيت على كنبة ، وحين أخذت رأسي بين يدي ، سمعت ضحكته المجلجلة الصاخبة . قال بلهجة جادة :

- هل تعرف من أين أتيت لتوي ؟

غمغمت من بين أسناني انني لا أعرف من أين اتى لتوه . كان يقف وراء الكنبة التي انكمش فيها متداعياً . سألني عن حكايتي مع آخر العنقود ، فلم أنبس ، كنت حرداناً من آخر العنقود ، ولا أرغب في الحديث مع أي كان . وما كنت مبتهجاً بوقوف الغلباوي وراء ظهري ، رأسه فوق رأسي - ويداه على منكبي . كنت ممتعضاً من وقفته السمجة هذه . غير أني ما وجدت رغبة في الاحتجاج . أحسست بأن الهزيمة تسحقني . وأن آخر العنقود رفعت أعلام

انتصاراتها على لهاثي . قال انه كان معتصماً مع موظفي بنك البتراء . قال :

- اعتصمنا ضد الادارة امام البنك ، في شارع وادي صقرة ، المطالب سوف تتحقق ان شاء الله .

ثم اشعل سيجارتين ، ناولني واحدة . ما رأيته ، رأيت يده تتدلى فوقي وأصابعه تدنو من فمي تهبني سيجارة . تناولتها بلهفة ورحت انفث دخانها بعصبية .

أحسست أنه يبتعد عن الكنبة . وسمعت صوته دون ان ارى وجهه . قال :

- آه ما أجمل الاعتصام . ذكرني بأيام زمان . الحشود والاصدقاء ، احتفال في الشارع العام . . تصور .

ثم سمعت خطواته تبتعد وتنأى . قال انه سيعد فنجانين من القهوة . ويطمئن على آخر العنقود . لم أتمالك نفسي فقلت بحدة دون ان التفت :

- وأنت مالك ؟

قال انه ليس موظفاً في البنك ، ولا عضواً في النقابة ، لكنه قام بواجبه في التضامن مع الموظفين ضد الادارة . وقال ان قضية بنك البتراء رمز للفساد والسمسرة . قال كانوا يحلبون البلد كما لو كانت بقرة . وأن الادارة القديمة اقيلت بقرار عرفي والادارة الجديدة ، عينت بقرار عرفي . وتساءل من المطبخ :

- أين القضاء ؟

ثم صمت قليلاً وعاد يسأل :

- نعم أين المحاسبة ؟ أين ركوة القهوة ؟ أين آخر العنقود . وقال ان عائشة سوف تصاب بانهيار عصبي اذا عادت ورأت كل هذه الفوضى والوسائد والملاعق والسكاكين والصحون المهشمة والالعاب المتكسرة والكتب المتناثرة . . على ارض البيت . واقترح ان نعيد ترتيب ما يمكن اعادة ترتيبه . ثم اقترح ان أشارك في الاعتصام . قال :

ـ ينبغي ان تشارك في الحياة العامة .

كنت مسترخياً في مقعدي ، وقد أغمضت عيني وأرحت ساقيي على منضدة ، حين أحسست بالاصابع الصغيرة تشد طرف بنطالي وتضرب قدمها الضئيلة بالارض كأنما تستدرجني الى النزال من جديد .

* * *

مشهد : قبول النقد . . عادة تنمو من المران

رفع فاضل الغلباوي « كثير الغلبة » منكبيه . استهانه بعد أن استمع الي وأنا أروي له مشاهد من الرواية ، وقال بلهجة توحي بالكثير من الخيلاء والاعتداد بالنفس ولا تخلو من استخفاف وازدراء الآخر (أي حضرة جنابي) وقال ان شخصية نعمان العموني تكاد تكون تكراراً لشخصية جمعة القفاري . وبناء عليه . .

سألته مقاطعاً :

ـ بناء على ماذا ؟

استأنف دون ان يلتفت الى سؤالي :

ـ وبناء عليه ، فإن القارىء سوف يعتقد ان نعمان العموني هو نفسه جمعة القفاري . وأن هذا الشخص الواحد مصاب بفصام .

واكد ان الخصال والصفات والطبائع وظروف ونمط حياة الشخصيتين تكاد تكون واحدة .

وعلى الرغم من صدري المعروف باتساعه، وحبل صبري المعروف بطوله وامتداده ، إلا ان صدري ضاق بما ترامى الى مسمعي ، وانقطع حبل صبري تحت وطأة فضول فاضل الغلباوي المعروف بـ« كثير الغلبة » ، فأعماني الغضب وفقدت صوابي وأضللت عقلي وصحت :

ـ لا تتدخل في أمور لا تعنيك يا أخي . أنا حر .

كانت عينا « كثير الغلبة » تحدّقان الي بحياد يشوبه الفضول المعتاد . انه يرمقني بنظرة من يرنو الى مجنون من المستحسن مداراته ومسايرته . قال وهو ينحي الغليون عن فمه :

ـ طبعاً انت حر . طيب . . ماذا ستكون نتيجة العلاقة بين نانسي وجمعة ؟ وكيف ستنتهي العلاقة بين نعمان العموني ووداد .

وأكد لي ان نانسي نسخة طبق الأصل عن وداد . التهمته بنظرة كاوية ، اختنق صوتي فلم أنبس بكلمة . أحصيت اصابعي كلها ، كعادتي حين أرغب في تهدئة خواطري ، وتمالك نفسي . ثم اخذت نفساً عميقاً ملأ رئتي ، فهدأت نفسي بعض الهدوء وسكنت بعض السكينة . ثم قلت بصوت خفيض :

ـ لعن الله اليوم الذي سمحت لنفسي فيه بأن احكي لك عن روايتي . وسألته ان كان ثمة وسيلة تخرجه من حياتي . مد يده الى غليونه بكل هدوء ، ثم وضعه في جيب سترته . كان الارتياح بيناً على محياه القمحاوي . ولاني ظهره ، وابتعد بخطى وئيدة . قال :

ـ أنت شخص غير ديموقراطي .

ثم اختفى .

كدت الحق به ، إلا انني غالبت غضبي فغلبته . كنت اسحب أنفاسي بصعوبة . ثم ملأت رئتي بالهواء مرة اخرى . وقلت لنفسي :

ـ ينبغي ان تعترف يا جمعة ، انك فعلاً غير ديموقراطي ، ولا تتقبل النقد .

اطرقت ملياً كالذي ينظر في أمر قد حيره فلا يتوجه له في امره وجه . جد صوت جمعة الصادر من اعماقي بلهجة من يفكر بصوت مرتفع :

ـ بل أنا ديموقراطي . والدليل الذي يقطع الشك باليقين ، أنني أروض نفسي مع الأيام ، على احتمال فضول كثير الغلبة ، وتدخله المستمر في حياتي . . انه يُنغّص عليَّ حياتي ، وأنا لا أطيق فراقه ، ولا استطيع معه إلا الصبر والسلوان !

***

ورحت أحلم بالوقائع العجيبة والمغامرات الخارقة والاكتشافات المثيرة التي خبرها نعمان العموني في حياته .

قال ان حياته تشبه حياتي قال .. هذا الغلباوي أحمق .

* * *

جمعة القفاري :
الطفل الكبير

أحدث الوقائع الجديدة في حياة جمعة القفاري :

١ ـ تخلت عنه وداد بعد أن اتهمته بأنه خدعها ، وأنه كذبة كبرى ، وانه تقمص شخصية نعمان العموني وهي مجرد شخصية روائية لم تتجسد حتى على الورق ، شخصية شكلت هاجساً حبيساً في مخيلة جمعة . وأنها أحبت شخصية نعمان العموني الذي تقمصه جمعة . وهكذا اكتشفت ان جمعة كاذب ومزور وانه يخلط دائماً ، بوعي أو بلا وعي ، بين شخصيته الحقيقية التي تعاني من الاغتراب ، وشخصية نعمان المتقحمة المولعة بالمغامرات والاثارة .

٢ ـ عادت عائشة واولادها الى زوجها بعد تدخل العقلاء من الاصدقاء . فسافرت الى الخليج لتنضم الى زوجها . وتركت جمعة وحيداً ، بعد ان أمنت له خادمة سيرلانكية تقوم على العناية به وبأمور حياته .

٣ ـ انتقل فاضل الغلباوي من الشقة الصغيرة التي كان يستأجرها ويعيش فيها مع زوجته زهرة في عمان الشرقية الى بيت فخم نسبياً في جبل اللويبدة . وقد اشترى هذا البيت بثمن باهظ نسبياً بعد ان هبطت اسعار العقارات . ويقع هذا البيت الجديد بجوار بيت عائشة .

٤ ـ تخلى نعمان العموني عن خيال جمعة أيضاً . وهجر هاجسه بال جمعة . وأخذ جمعة يبرر الموقف بأن حبل الالهام والابداع انقطع ، وان قلمه جف . وان الجميع يتخلى عنه ، ابتداء من امه وابيه وعائشة مروراً بوداد وانتهاء بنعمان ونانسي بطلي روايته التي لم تكتب !

الطفل الكبير
جمعة . . بعد ان رحلت عائشة

ما ان يتناهى الى مسمعي وقع خطوات خارج الباب ، حتى أتوقع سماع ذلك الرنين الذي يعني ان الصمت المهيمن على البيت سوف يخرج من الباب الذي سأفتحه . وما ان اسمع رنين الجرس حتى اتوقع انني سوف أشم رائحة تختلف عن رائحة البيت . للجرس رائحة . افتح الباب ، فيدلف ضيف من أصدقاء أبي ، وتنسل رائحته من بين ملابسه وحركاته الى انفي . والضيف لا يرى رائحته طبعاً وهي تنسل من بين ذراعيه الى أنفي . إنها خفية ، وأنا أشمها . وهو لا يشمها . لكل ضيف رائحة خاصة به ، ولكل انسان اسم يختلف عن الآخر . ويدلف الضيف فيخرج الصمت الذي يشبه ذلك الفراغ الذي يملأ البئر الجافة السحيقة التي رأيتها قبل أيام او سنين . ويبتسم الضيف ويسألني بحماقة وهو يصافحني ويمسد على رأسي :

ـ هل الوالد موجود ؟

وأقول طبعاً موجود . والى أين يمكن أن يذهب ؟ والضيف يعرف ان الوالد موجود لكنهم جميعاً يسألون هذا السؤال عندما يدخلون وبعدما يسألوني عن صحتي ويقولون بصوت موسيقي :

ـ مرحباً . . كيف حالك ؟

وأنا ينشرح صدري لمجيء الضيوف . فذلك يعني انني سأقوم بواجباتي البالغة الخطورة . انني احب أن أقوم بواجبي على خير وجه . أرحب

بالضيف ، ثم أهرع الى غرفة النوم ، وأحمل والدي بيدي القويتين وأضعه على المقعد المتحرك وهو يسألني :

ـ من الذي جاء ؟

وأنا لا أدري بالتحديد . فالوجوه متشابهة ، والاسماء صعبة وتختلط . كيف يستطيع ابي ان يربط بين الوجه والاسم مع أنهما مختلفان ؟ وأدفع المقعد ذا العَجَلين ، ويبتسم أبي ابتسامة عريضة ويقول :

ـ أهلاً . . أهلاً .

ويشير بيده نحو كنبة . فيسعى الضيف الى الصالة ويستقر في تلك الكنبة . وأدفع أبي ليكون قريباً منه . يظل الضيف واقفاً ، ولا يجلس إلا حين يتوقف المقعد المتحرك عن الحركة . انه يحترم أبي . انهما يخوضان في السياسة . تحدثا عن الديموقراطية في الاردن .

قال الضيف انه لا يثق في أنها ستستمر . وقال انه لا يطمئن الى ان الانتخابات سوف تكون نزيهة . ووصف المرحلة بأنها مجرد جمعة مشمشية . وأنا أبغض رائحة المشمش . وأمقت كل الأجسام التي تخفي في داخلها مفاجأة لا ترى . وأنسى دائماً البزرة ، وحين أضع حبة المشمش في فمي تصطدم اسناني بالبزرة الخبيثة الصلبة المتوارية تحت الجلد المشمشي ذي الملمس الناعم . أحب أن ألمس المشمش فقط . وسألت ابي ما هي الديموقراطية . فقال إنها شيء حلو وجميل مثل زهرة . أحسست بنار الحب تتأجج في قلبي . سألته :
ـ مثل زهرة زوجة ابن عمي فاضل .

لا شيء يضاهي حلاوة زهرة . إنها تحبني وتضمني الى صدرها فيمس شعرها الأشقر المضيء كشعشعة الشمس وجهي ، وأحس باللهب في خدي ، وأشم رائحة ارض مال عليها المطر وهلة ثم مر عابراً ، فإذا هي ترسل رائحة منعشة نظيفة . انني اتنشق رائحة نظافة زهرة التي تشبه رائحة البحر . وضحك أبي ، ثم ضحك الضيف . انني أعتقد ان الضحك معدٍ ، غير انني منيع على العدوى . فلم أضحك . انني لا أحب أن أقلد الآخرين . لي

شخصيتي المستقلة . وهذا ما يحبب زهرة بي .

وطلب ابي ان ادفعه الى الحديقة . قال انه يرغب في أن يشم الهواء . ولم أقل له :

- بوسعك ان تشم هواء البيت .

لعله يظن ان البيت بلا هواء . وان الهواء في الخارج فقط . فالهواء في البيت خفي غير مرئي ، بينما يظهر واضحاً في الخارج وهو يحرك الأغصان . وقال أبي هل ترى تلك الزهرة ؟ وكنت مغرماً بزهرة وأقول دائماً دفعاً لاحاسيس الذنب « مثل اختي عائشة » . وحدقت الى النافذة . ورفعت رأسي . لكن الشمس دخلت في عيني . وقال اقطفها .

وهبطت زهرة من بيتها ، ووقفت في الحديقة بين الزهور ومسدت على رأسي برفق فاستيقظت . وقالت انني كنت أحلم واتكلم في منامي . وقلت انني كنت يقظاً وها أنا أنام وأحلم الآن . وقالت انني أتألم ، وانني مسكين . وضمت رأسي الى صدرها ، فتنشقت رائحة الحديقة لاول مرة . وقالت :

- ينبغي ان لا تبقى وحيداً . عائشة أوصتني بك .

وفتشت عن أبي فلم أعثر له على أثر . وسألت زهرة عن أبي الذي رأيته في منامي على مقعد متحرك . قالت انه قتل . . غير انني لم ابك .

انه يعتمد علي . ينبغي ان لا أهمله . وخفت ان يرى الجيران زهرة وهي تضمني الى صدرها فيظنون الظنون . اتسعت ابتسامة زهرة ، انها ابتسامة مخصصة لي . وقالت وهي تأخذني من يدي وتقودني الى البيت انني كنت احلم وان ابي توفي منذ أعوام بعيدة . ودلفت الى البيت وانتظرت وهلة حتى اذا ما دلفت زهرة ورائي تنشقت رائحة الحديقة . ان زهرة تمر بالغابات والحدائق والبحار وتقطف روائحها وتدسها تحت ملابسها .

دخلت زهرة فدخلت معها رائحة الحديقة . وقالت زهرة انني أتألم وانني وحيد ومقطوع من شجرة . وكانت تمر بأشجار اللوز فتستل رائحتها وتتركها بلا

رائحة . وتمشي كأنها امرأة تشبه شجرة لوز . وقلت مواسياً مطمئناً انني لا أتألم . وانني ألعب أدواراً في مسرحية . لكن هذه المسرحية لن تستمر الى الابد . وفي الوقت المناسب سوف يأتي المخرج ويقول وهو يرتب على كتفي :

- أحسنت يا جمعة . يعطيك العافية . انجزت أدوارك على أكمل وجه . والآن بوسعك ان تتحرر من دورك المؤلم . وتهبط عن خشبة المسرح . وعندئذ ينتهي هذا الألم وهذه الوحدة . وسألتني زهرة عن دوري في المسرحية . فقلت انني ألعب دور شخصية تتنقل بين اعمار مختلفة . وانني ألعب الادوار كلها في الوقت نفسه . دور الطفل ودور المراهق ودور الابن ودور الأب . وأخبرتها ان أبي مقعد وانه لا يستطيع الحياة بدوني . انه مسؤوليتي ، يعتمد علي تماماً في كل كبيرة وصغيرة . وألعب دور والد ابنة عائشة آخر العنقود . وأفهمتها ان عائشة قالت حين عادت مع أولادها الى زوجها الذي يعمل في احدى دول الخليج وتركتني وحيداً ، انها ستترك لي الخادمة السيرلانكية وآخر العنقود الملعونة . وقالت زهرة وهي تأخذ يدي بين يديها فتجتاحني رعشة لذة ، سرعان ما يرافقها احساس مبهظ بالذنب :

- ينبغي أن تأوي الى سريرك وتحاول أن تنام . سوف أعد لك كأساً من العصير .

وتراجعت جزعاً ، وانحرفت مبتعداً عن يدها ، وقلت انني لا أحب ان انام . لأنني لا أعرف الفرق بين الحلم او الكابوس من جهة ، واليقظة من جهة أخرى . انني أخشى الكوابيس . أنام فأرى عائشة وهي ترحل لتنضم مرة اخرى الى زوجها الذي انفصلت عنه . وأقول لنفسي المضطربة كي تستعيد سكينتها :

- انه مجرد كابوس . انني أحلم . وبوسعي ان استيقظ متى شئت ، وأعود الى الواقع حيث عائشة واولادها وأنا .

وتدنو زهرة مني وتمد يدها الناعمة نحوي فتأخذ بيدي مرة أخرى ، تقودني برفق الى الكنبة الكبيرة . ونجلس معاً على الكنبة الواسعة . وتقول

وهي تحدق الى عيني بنظرة ثابتة :

- لقد رحلت عائشة واولادها يا جمعة . عادت الى زوجها . وأبوك رحل منذ زمن بعيد . وأنت بحاجة الى علاج .

انتفض مغضباً ثائراً وأقول انني كنت مصاباً بالانفلونزا ، غير انني تحسنت الآن . وأسألها ان كانت قد سمعتني اعطس . واسألها ان كانت تخاف من العدوى . وأقول وأنا أقف بكبرياء وخيلاء :

- بوسعك ان تعودي الى بيتك اذا كنت تخافين العدوى .

وكنت أكذب . كنت أحب ان تبقى معي . قالت وهي تمسد على شعري ، أنها له تتركني ، وتضيف :

- وفاضل . . زوجي . . ابن عمك . . لن يتركك ايضاً . ألم نستأجر هذه الدار المجاورة لبيتك ، كي نجاورك ؟ .

بغتة أحسست بانقباض في قلبي ، وخذلتني أعصابي ، فرميت رأسي على كتفها وبدأت أنتحب وأسألها :

- متى ستنتهي هذه المسرحية يا زهرة ؟ متى سيأتي المخرج ليقول لي أن أدواري انتهت ؟

ثم مسحت دموعي وأخذت رأسي بين يدي حتى لا ترى زهرة رجلاً صلباً مثلي والدموع في عينيه . وكنت أتوقع جوابها . لكن الكلمات لم تخرج من فمها ، وانما من أصابعها . فقد شدت على يدي بأصابعها كأنها تقول بلا صوت :

- سينتهي دورك قريباً . اطمئن .

وسألتها وانا اجفف دموعي ان كانت تشترك معنا في المسرحية . وسألتها عن دورها . فأرسلت ضحكة من عينيها . ضحكت عيناها وكان لضحكة عينيها صوت البرق. تومض العينان ضاحكتين فأسمع رنين الومض المشرق البهي . وأقول لها أن لا تقلق ، فبوسعي ان استيقظ في أي لحظة . هذا مجرد

كابوس عابر . وقالت انها هي ايضاً ترى ما يراه النائم في المنام . وانها أحياناً ترى كوابيس بشعة ، فتطمئن نفسها ، وهي نائمة وتقول ، إن هـو إلا حلم فقط . ادرك انني احلم وانا نائمة . تخيل . فتخيلت . ثم تذكرت العـربة . فقلت وانا أهم بالنهوض الى مقعد والـدي المتحرك في الحـديقة. نسينـا المقعد ووالـدي في الحديقـة . فأمسكت ذراعي ونهضت فـانهال شعرهـا وقـالت انها ستقـول للخادمـة السيرلانكيـة ان تحضر المقعـد . غـير اني لا أثق بـالخـادمـة السيرلانكية . وقالت انها ستذهب الى بيتها لتعد طعام الغداء ، وانها ستناديني حـين يعود فـاضل لتنـاول الغداء معـاً . ومشت مثل طيف يمشي في الهـواء . وتساءلـت ان كنت احلم . وخرجت الى الحديقة فوجدت المقعد المتحرك ، ولم اعـثر لأبي على أثـر. وناديت الخـادمة السيـرلانكية. وكـانت الشمس تتألق في الفضـاء ، والسماء زرقـاء صافيـة . وشعشعـة الشمس تدغدغني فـأضحـك ضحكات مكتومة متتالية . وجاءت السيرلانكية . وسألتها عن ابي الذي هرب على الرغم من انه مقعد . قلت لها وأنا أشير الى العربة :

ـ انظري . تركته دقيقة وحين عدت لم اجده أين هو ؟

فلم تفهم . وابتسمت ببلاهة وقالت :

ـ وات ماستر ؟ أنا لا أفهم .

صرخت في وجهها وأنا أضرب قدمي بالارض حردان :

ـ وير از بابا ؟ بابا . . . أين بابا ؟

اتسعت ابتسـامتها البلهـاء . وأشـارت الى غيمـة صغيـرة في السـماء . وقالت :

ـ بابا ذير . . هناك . فوق .

ولم اتنشق رائحة الحديقة . إذ ذهبت زهرة الى بيتها وحملتها معها .

* * *

وأطلت زهرة من شرفة بيتها . ونادتني ، فأخذتني الخادمة السيريلانكية

من يدي ، وخرجنا الى الحديقة . وتنشقت صدى صوت زهرة في الحديقة . صداها أعاد الى الحديقة تلك الرائحة المتنوعة مثل قوس قزح . وحين خرجت الى الشارع كان اولاد الحارة يلعبون بكرة قدم . توقفوا عن اللعب حتى إذا رأوني أخذوا يصفقون . ودغدغتني مشاعر الزهو والاعتداد . إنهم معجبون بأدائي . مع انني لم أدرس التمثيل في اكاديمية خاصة . غير انني أتقن دوري . والمتفرجون يصفقون بحماسة . وعلى المائدة قلت لفاضل ان اولاد الحارة يصفقون حين تقع أبصارهم عليَّ . وأن نجمي تألق أكثر من نجمه . وأن شهرتي فاقت شهرته . لأنه صحافي وانا ممثل . والجمهور يعجب بالممثل اكثر من الصحافي . وكان الحساء ساخناً ، ومن الطبق ينطلق بخار يدغدغ ذقني . وزهرة تتفتح على المقعد المقابل لمقعدي وتقول :

- انفخ على الحساء .

وضرب فاضل الطاولة بقبضة يده ، فارتجت الأطباق ، وسرت قشعريرة خفية في جسد المائدة . وقال وكأنه ضبطني متلبساً بارتكاب جريمة :

- هاها . . أنت تعترف أنك تمثل . تعترف أنك لا تعاني من شيء وان صحتك أفضل من صحتي . وأنك تمثل ملتمساً العطف والمساعدة بعد ان سافرت عائشة .

قاطعته زهرة بحدة وزجرته وقالت انني مريض وبحاجة الى مساعدة . وان فاضل عديم الاحساس . وكانت نكهة صوتها لذيذة كالحساء .

وقال فاضل انه ملَّ وتعب من لعب دور ولي امري . ورفعت رأسي عن الطبق ، وقلت أنه فعلاً دور متعب ومؤلم . ثم واسيت فاضل قائلاً انها مجرد مسرحية . وحين تنتهي ، فسوف ينتهي الألم والاكتئاب والارهاق . وتناهى الى مسمعي صوت رنين جرس الباب . فقلت ان المخرج قد يطل برأسه بعد دقائق أو أيام او اعوام ليقول لنا :

- يعطيكم العافية . . المسرحية انتهت . وادواركم المرهقة انتهت . وعندئذ سنتنفس الصعداء . وسيصفق لنا الجمهور . ويقف احتراماً وتبجيلاً لما

تحملناه من عناء ، وما كابدناه من ألم ، في سبيل مواصلة اداء أدوارنا . وقلت له انه يلعب احياناً دور ابي باتقان يليق بالثناء . وسألته عن رأيه بأدائي . فأظلم وجهه وتكلف ملامح الغيظ والغضب المكتوم وراح يحتسي الحساء بحركات عصبية والملعقة تنتقل من الصحن الى فمه بحركات متلاحقة . انه ليس غاضباً مني طبعاً . ولكن دوره يقتضي ان يمثل هذا الدور . ترى متى سيأتي المخرج ويخلصنا ؟ وقالت زهرة :

- أين شردت ؟

قلت انني لم أشرد الى اي مكان ، وانني اجلس في مكاني هذا لا أبارحه منذ ربع ساعة . فضحكت ، فأضحكتني ضحكتها . ولم يشاركنا فاضل الضحك . وانما وضع طبق الحساء جانباً ، وقال لزهرة ان تسكب له ملعقتين من « المقلوبة » . وسألته زهرة عن التحقيق الذي يعده للصحيفة عن « الازمة الاقتصادية . . والديموقراطية الاردنية » . فقال : انه مضى اليوم الى « العالوك » ليسلم على صديق قديم غادر الاردن قبل عشرين عام لاسباب سياسية . ووجد العشرات من بني حسن يستقبلون المهنئين بعودة الغائب تحت بيت شعر ضخم . وانه استغل الفرصة وسأل شيخاً يجلس الى جانبه عن رأيه بالمسيرة الديموقراطية والبرلمان والنواب . فقال الشيخ وهو يهز رأسه حسرة وغضباً ان الناس هنا يريدون ان تهتم الحكومة بهم وبقراهم بدلاً من ان تركز كل اهتمامها على عمان . وقال ان الجوع في بعض القرى الجنوبية وغير الجنوبية يكاد يفتك بالناس . بينما اهل عمان يعيشون في نعيم .

احتجت زهرة وقالت :

- لكن الديموقراطية تمنع الفساد الذي أدى الى الجوع . ولولا الديموقراطية لما عاد قريبه من المنفى محتفظاً بكرامته .

وقال فاضل :

- أنت لا تعرفين شيئاً . انت خريجة أدب انكليزي من الجامعة الامريكية في بيروت . ولا تعرفين عن معاناة الناس خارج عمان الغربية ، شأنك شأن

جمعة ابن عمي . أنت لا تعرفين أين تقع « العالوك » .

وأنا لم أفهم تماماً ما الذي يدور بين الزوجين . غير انني اصغي بانتباه . وسألت فاضل ان كانت « العالوك » تقع في الجنوب ، وسألته ان كانت عشائر بني حسن تقرب لعشائر بني حميدة . وجفف فاضل فمه بمنديل من الورق . وسكب الماء من الزجاجة في كأسه . وأتى على كأسه بجرعة واحدة . ثم جفف فمه وشاربه مرة اخرى بالمنديل . وقال انني لا اعاني من اي مرض . وان مرضي الوحيد هو عدم قدرتي على التكيف . وانني مسؤول شخصياً عن هذا المرض لأنني لا أبذل جهداً كافياً للاندماج في المجتمع . ثم تساءل :

- هل يعقل ان يسأل مواطن أردني راشد ان كانت « العالوك » في الجنوب ، وهي قرية من قرى بني حسن التي لا تبعد عن عمان سوى ربع ساعة بالسيارة ؟

واقترح علي ان أتخلص من « سحب الافلام » وتصنع المرض ، والخروج معه الى القرى النائية والمشاركة في كتابة التحقيق المحلي . بدا لي مغضباً خارجاً عن طوره . ولكن لا بد ان يكون هذا المزاج جزءاً من الدور الذي يلعبه في المسرحية . « متى يقبل المخرج ويخلصنا من هذه الادوار المرهقة » . ونهرته زهرة ، فساد صمت ثقيل . أحسست بثقله على صدري . كان مثل جبل نهض من مكانه ووثب على صدري . وانقبض قلبي اذ استشعرت اجواء توتر تسود المائدة . وقلت ان دوري يقتضي تبديد اجواء التوتر . لأني صديق الزوجين المتوترين . فقلت مداعباً فاضل :

- أنت انتهازي .

واطلقت ضحكة رنانة شقت جدار الصمت الثقيل ، ورفعت زهرة رأسها عن صحنها ، وحدقت الي بدهشة . ثم التفتت الى فاضل وتكلمت عيناها معه بلا صوت . وقذف فاضل منديل الورق ونهض منتفضاً وغادر صالة الطعام دون ان يأتي على ما في صحنه . وسقط ذقن زهرة على صدرها في حركة يائسة مستسلمة . ولم أفهم لماذا لا يتمتع الناس في هذا البلد بروح الدعابة .

مما يضطر المخرج الغامض الخفي الى دفعنا للعب أدوار مرهقة عصبية كئيبة . ثم رفعت زهرة رأسها ، وحدقت الي في حنان ممزوج بعتب رفيق . سألتني لماذا شتمت فالح . وقالت ان فالح ليس انتهازياً . لكنه يريد ان يعيش . وحدقت الى الطبق أمامي ، ثم نهضت مخذولاً واحساس ملح بالذنب يعتصر قلبي . وقلت :

ـ كنت اداعبه . ألم يقل انه استغل أو انتهز فرصة وجوده في حفل استقبال صديقه فسأل الشيخ عن الديموقراطية ؟

وسعيت الى الباب وانا أغمغم انني كنت امازحه فقط . وانه هو الذي قال بعظمة لسانه انه استغل فرصة وجوده عند صاحبه الذي عاد بعد الديموقراطية وسأل الشيخ .

وقامت زهرة واخذت يدي بين يديها . وقالت انني لم أتناول لقمة واحدة من « المقلوبة » . وحاولت ان تسحبني برفق لتعيدني الى المائدة . فسحبت يدي من بين يديها . وسألتها متى سيأتي المخرج ليقول لنا :

ـ يعطيكم العافية . برافو . أدواركم كانت صعبة لكنكم صبرتم وها هو الجمهور يضج بالتصفيق . متى يسدلون الستارة ؟

وبدأت الدموع تنسال من عيني بصمت . ولم أجففها . وقالت زهرة وهي تربت على كتفي انها ستتصل بالطبيب ليحقنني بابرة تساعدني على النوم . قالت ان النوم سوف يريحني . اتجهت الى الباب . فتحته وقبل ان أغادر بيت فاضل ، وقبل ان تلحق بي السيرلانكية التفت الى زهرة وقلت لها انني نائم أصلاً . وما جرى الآن من توتر وزعل ونرفزة ليس سوى كابوس يراه النائم فيما يراه . وانني أدرك انني أحلم . وهذا ما يواسيني . انني أقول لنفسي :

ـ لا تبتئس يا جمعة . ما هذا سوى حلم . وبعد قليل سوف تصحو . . فإذا بك في عالم آخر لا كوابيس فيه . عالم يقظة فيه شعشعة شمس وتغريد عصافير وروائح مذهلة ، وأضواء وألوان واختك عائشة ستكون بانتظارك . وآخر العنقود سوف تناكفك . وقد تجد عملاً محترماً اذا ما تواسط لك والدك

ورفع سماعة الهاتف واتصل ببعض اصحابه من ذوي النفوذ .

وخرجت الى الشارع والسيرلانكية في أثري . وصفق الاولاد فرفعت يدي محيياً وهتفت ان المسرحية لم تنته بعد . وكنت أتضور جوعاً . ونادت زهرة على السيرلانكية ، فرجعت هذه أدراجها ، ودلفت الى بيتنا ، ولم يكن أبي في الحديقة ، ولا عائشة . . مع ان امي اوصت عائشة وهي تحتضر ، وقالت :

- احرصي على أخيك حِرْصك على اولادك .

لكن عائشة مقفلة مثل خزينة بنك . متقوقعة على نفسها مثل سلحفاة . ولم تف بوعدها ، فمضت الى زوجها في الخليج . . وتركتني . ولحقت السيرلانكية بي وهي تحمل طبقاً من الطعام . والتفت الى الغروب وسمعت اصواتاً تترامى من الأفق الغربي ومن الشارع والمقاهي والحانات والشركات والمنازل والمدارس .

- اغرب عن وجوهنا .

وكان الغروب . ولم أسمح للسيرلانكية باضاءة مصابيح البيت . جلست في الظلمة . وقلت لنفسي مواسياً مشجعاً :

- بعد سويعات قليلة سوف تشرق الشمس . فأستيقظ وأتحرر من هذا الكابوس .

وحين أشعلت السيرلانكية ضوء المطبخ ، ابتسمت وانطلق وجهي بعد عبوسه . . فأشرقت نفسي . وفتحت النافذة ، فإذا النهار لم يطلع بعد ، وإذا المدينة لجة من ظلام ملتهب .

انني أبغض عالم هؤلاء الرجال الناضجين الذين يسعون بلهفة فيستقرون على أقرب مقعد الى الهاتف كلما قالت الصحف ان الحكومة الجديدة سوف تتشكل خلال اليومين القادمين ، أو ان مهلة اختيار أعضاء مجلس الاعيان سوف يتم خلال يوم . او ان اصحاب القرار سوف ينتهون من تشكيل اللجنة الملكية للميثاق بعد ايام قليلة .

فاضل القفاري جاء وقبل رأسي وصالحني . كان يرتدي بذلة انيقة وربطة فاخرة . . على غير عادته . قال تعال معي الى البيت . سنجلس قرب الهاتف (بكامل اناقته) ، واعتقد ان الهاتف سيرن خلال الساعات القليلة المقبلة وسيأتي من الطرف الآخر صوت يحمل بشرى ومفاجأة . ثم همس انه سمع من مصدر عليم ان اسمه مدرج في قائمة المرشحين لمجلس او لجنة أو هيئة مهمة ومسؤولة . وان لقبه قد يتراوح بين سعادة وعطوفة ومعالي .

نهضت بتثاقل وانا لا افهم سبب لهفته وفرحته الغامرة التي يحاول ان يغالبها ، فإذا بها تغلبه . واجتزنا حديقة بيتنا وانا أمشي خلفه كالسائر في منامه . وحين فتح البوابة رأيت الأولاد يلعبون في الشارع ، كان يمشي أمامي ، والاولاد يتراكضون وراء الكرة . فتركته وركضت وراء الكرة ، وهو يمشي بخطوات سريعة متلاحقة عصبية خوفاً من ان يفوته النبأ المنتظر . لم ينتبه الي . تلاشيت من ذاكرته تماماً . نسيني . وأنا أقدر من الاولاد على اللحاق بالكرة ، وكانوا يصفقون لي . انني احب عالم الصغار أكثر . فالمنافسة سهلة عليَّ في عالمهم البسيط . انهم يعجزون عن التفوق عليَّ اثناء اللعب . . في الغالب الأعم .

عالم الكبار صعب معقد لا افهمه . وهو يصدني ويلفظني وينبذني . هذا ما يريده المخرج . انني العب الكرة الآن . ألعب دوري في المسرحية المرهقة الموجعة باتقان . العب دور ولد في العاشرة من عمره . أو ربما في سن المراهقة . المهم انني العب الكرة والعب دوري الذي فرضه علي المخرج .

متى سيأتي هذا المخرج ؟ واقترحت على الاولاد تشكيل فريق كرة قدم يمثل الحارة ، وشراء ملابس رياضية موحدة . ونفذنا الفكرة . وفي اليوم التالي كنت ارتدي بنطالاً قصيراً وجوربين صوفيين ملونين ، وقدمي في « بوط الفوطبول » اما القميص الملون الذي نسميه « الكولور » فقد كان ضيقاً الى حد ما . وأقمنا مرمى في اول الشارع . حجر هنا وحجر هناك ووقف حارس مرمى الفريق الاول في الوسط بين الحجرين . ووضعنا حجرين آخرين في آخر الشارع وانثنى حارس مرمى الفريق الثاني في وسط المسافة الفاصلة بين الحجرين متخذاً هيئة الاستعداد والتأهب للتصدي للكرة . مع أننا لم نبدأ

اللعب بعـد . ثم أدخلت اصبعي في فمي وأطلقت الصفـير المنتـظر ، وبـدأ اللعب . واختلط اللاعبون . واكتشفت اننا ارتكبنا خطأ جسيماً . فقد كانت ملابس الفريقين موحدة متشابهة . واختلطت علي الوجوه والجهـات وسجلت هدفاً في المرمى الغربي ، فصاح أعضاء فريقي محتجين وقالوا انني سجلت هدفاً في مرمانا بينما صفق فريق العدو بشماتة . ثم سجلت هدفاً في المرمى الشرقي فصفق لي اعضاء فريقي . وكنـا نركض جميعـاً ، الدفـاع والهجوم والجنـاحان وحارسا المرمى وراء الكرة ، حين حاصرتنا السيارات من ورائنا ومن أمامنا . وراح السائقون يطلقون ابواق سياراتهم كأنهم في موكب عرس لا يتحرك ، أو في مظاهرة جامدة . وامتدت بعض الرؤوس من نوافذ السيارات .

- افتحوا الطريق يا أولاد .

- أنتم تسدون الطريق .

- هذا شارع . لا ملعب .

وهبط رجل من سيارته وهجم نحو كرة القدم مثل ثور هـائج ، وكـان العرق يضرج وجهه فلا يجففه . وحاول اختطاف الكرة بيديه كي يسرقها . غير أني كنت لاعبـاً ماهـراً . فرقصته . وضحك الاولاد ، وهـو يتيامن ويتيـاسر بجسده الثقيل ويلحق بي وانا أمرر الكرة من قدمي اليسرى الى قدمي اليمنى ، فينثني الرجل الثور ويمد يده نحو اليمنى يلتمس خطف الكرة ، غير اني أرفعها بنقرة خفيفة من قـدمي فتحلق في الفضاء وتسقط لأتلقـاها بـرأسي ، ويسقط الرجل الثور بعد ان كان قد اندفع نحو قدمي اليمنى بقوة ضارية ، ثم حين قرر فجأة ان يقفز في الفضاء نقلت الكرة بغتة الى الأعلى . . وشتمني . ثم سمعنا أبواق سيارات الشرطة . وهبط رجـال الشرطـة واختلط السائقـون بالعـابرين برجال الشرطة بأعضاء الفريقين . وقال الضابط ان عقلي صغير وانني اعـطل السـير . وانني احط عقـلي في عقـل اولاد . وسـألني ان كنت لا أخجـل من نفسي ؟ ثم جرني الى سيارة الشرطة ، وأخذوني الى المخفر . واستقبلني رجال شرطة المخفر بنظرات ذاهلة حين رأوني ادخل بكامل ملابسي الرياضية محاطاً بـرجال شـرطة آخـرين . وكنت ابتسم حتى لا يعتقدوا انني ارتكبت جريمة .

ولعبت دور البريء . وكنت بريئاً فعلاً .

أين المخرج . . متى سيأتي . لأهبط عن هذا المسرح ، وأعود الى عالمي الواقعي . وصرخت :

- يا . . م . . خ . . ر . . ج . . يا ابن الـ . . . تعال .

وحانت مني التفاتة فرأيت رجلاً ضخماً جباراً يبدو انه من عتاة المجرمين يحدق الى فخذي البارزين من « شورت » الرياضة بعينين يتقد فيها ومض غريب مرعب . فضممت فخذي . وحدقت الى عينيه بنظرة ثابتة متحدية . ولاحظت ان هذا المخلوق يتنفس من فمه ، ويتحدث من أنفه .

أخرجه فاضل من المخفر . وقال سيأخذه الى طبيب . فتأبى جمعة وقال انه لا يحب الاطباء لأنهم ينخزون الناس في مؤخراتهم بحقنات ذات إبر موجعة . وعادا الى بيت فاضل وكان هذا صامتاً . ثم قال وهما يقتربان من بيته انه سيظهر على التلفزيون . وجلسا مع زهرة ينتظرون ظهوره على التلفزيون . وكان يتقلقل ويتململ في مقعده لا يستطيع صبراً . ثم ظهر على التلفزيون وكان بكامل أناقته غير المعتادة . وسأله المذيع عن نتائج تحقيقة الصحافي الذي اتخذ شكل الاستفتاء . فقال وقد ابتسم ابتسامة ان سلم الأولويات بالنسبة للمواطن الاردني في القرى والريف والبادية يتمثل في القضاء على الغلاء أولاً ، وتوفير المواد الغذائية الاساسية ثانياً ، ومحاسبة المسؤولين عن الفساد ثالثاً ، وحل مشكلة البطالة رابعاً ، وتأمين تعليم الابناء في الجامعات خامساً . ثم تأتي الديموقراطية بعد كل هذه الأولويات

وهتفت زهرة بذهول :

- انت تحرض ضد الديموقراطية .

ولم يرفع فاضل عينيه عن التلفزيون . كان يتأمل نفسه باعجاب وزهو واتهمته زهرة بأنه يفصل بين هذه المطالب وان هذه المطالب مترابطة . غير ان شاشة التلفزيون شدت نظرات فاضل بقوة مغناطيسية جبارة . كان يتفرج على نفسه بمتعة . وأشار بيده اشارة تطالب زهرة بعدم تشتيت انتباهه . وقال :

- انظري . . كم انا وسيم .

فصرخت زهرة :

- انت تحرض ضد الديموقراطية كأنك من القوى التي تضررت من الديموقراطية كأنك كنت مستفيداً من الفساد و . . .

قاطعها فاضل بعصبية :

- أنت تتنعمين بنعم تلك المرحلة . بيت فخم . وسيارة فارهة ووو . . ثم تتقمصين دور الملاك المثالي .

وجمعة لا يفهم ما الذي يدور بينهما بالتحديد . وعنّ له ان يضرب فاضل دفاعاً عن زهرة ، لكنه أمسك في اللحظة الأخيرة حين تناهى الى مسامعه لغط اولاد الحارة وهم يلعبون كرة القدم ، فانسل من الصالة ، وغادر بيت فاضل لينضم الى فريقه . لم يشعر فاضل بخروج جمعة . كان مفتوناً بتأمل نفسه على الشاشة . وكانت زهرة في غرفتها والدموع تتدحرج من عينيها . وكرة القدم تتدحرج بين قدمي جمعة . وهو يرقص بقية الاولاد ويعبث بهم ، ويضحك من أعماقه وهو يعرقل السير ، بينما ينقل الكرة من قدمه اليمنى الى اليسرى ثم يرفعها الى رأسه برشاقة لا تجارى .

* * *

في تلك الأثناء قدم بعض سكان الحارة عريضة الى محافظ العاصمة تطالب بطرد جمعة القفاري من الحي ، بتهمة انه يعلم الاولاد على الصعلكة والزعرنة ، ويعرقل سير السيارات ، ويعيق مسار المارة . بالاضافة الى ان هذا الرجل يتصرف تصرفات عصية على الفهم . . كأنه طفل كبير مشاغب .

كان جمعة يسجل هدفاً ، واعضاء فريقه من الاولاد يركضون نحوه فيعانقونه ويهنئونه ويصفقون له . . . حين بزغت سيارة الشرطة من مدخل الحارة ، وراحت ترسل تلك الأصوات التي تشبه الزعيق . فظن جمعة ان حريقاً قد شب في الحارة ، أو ان احد الجيران قد أصيب بنوبة قلبية ، كان

يطلق ضحكة مجلجلة حين سجل الهدف . فما ان سمع تلك الاصوات التي تصدرها سيارة النجدة ، حتى ترك الكرة وتخلص من الاولاد الذين كانوا يتحلقون حوله ، وهرع نحو سيارة النجدة . توقفت سيارة الشرطة ، فانثنى جمعة وسأل الضابط من وراء زجاج نافذتها :

- هل أستطيع المساعدة ؟

وكان الاولاد يتفرجون ، والشمس تهم بالغروب ، وبدأت العتمة الغامضة تلقي ظلالها الشاحبة على الحارة . وبدأ بقية ما تبقى من آثار النهار يذوي ويخمد او ينسحب دون ضجة . . . وحين اختفى النهار تماماً ، انطلقت سيارة الشرطة واختفى جمعة من الحارة . كان جمعة في السيارة ، وكانت العتمة في الحارة . وعنَّ لجمعة وهو يحدق من خلال النافذة ، أن الستارة قد أسدلت اخيراً ، وانه ذاهب لمقابلة المخرج ، وكان يتساءل بقلق ان كان المخرج سيقول له :

- يعطيك العافية . أبدعت . إنتهت اخيراً أدوارك المؤلمة .

أم أنه سيقول :

- احسنت . . والآن سنبدأ فصلاً جديداً .

وكان قلبه يخفق بعنف ، ورأسه يضج بالقلق والأمل وهو يبتسم ابتسامته العريضة !

* * *

جمعة القفاري
يوميات نكرة

تتضمن هذه الرواية مشاهد مختلفة ومتفرقة من حياة المواطن جمعة القفاري .

من هو جمعة القفاري ؟ هل هو صعلوك نبيل ؟ ام انه دون كيشوت هذا العصر ؟ لماذا يعجز عن عقد معاهدة صلح بينه وبين نفسه ؟ لماذا يخفق في إبرام اتفاقية سلمية بينه وبين العالم ؟ هل يعيش غربة داخلية وخارجية تدفعه الى اليأس الطريف ؟ لماذا يعجز عن التأقلم والتواصل والتكيف مع نفسه ومع محيطه ؟ لماذا يفشل في الملاءمة بينه وبين الناس والاشياء والقيم والمفاهيم السائدة .

أين يكمن مصدر الخلل .. فيه أم في العالم ؟ هل تنبذه الشوارع ، وتلفظه المقاهي والمجالس ، وتعرض عنه الآذان ، وتشيح عنه العيون أم أنه هو الذي عطل قنوات تواصله مع ما يحيط به ؟

هل هو ذئب من ذؤبان المدينة أم أنه حمل يتيم يجلس الى مائدة ذئاب لئيمة ؟

هل ينطبق عليه قول « التوحيدي » : « أين أنت عن غريب لا سبيل له الى الأوطان ، ولا طاقة به على الاستيطان ؟ » ولماذا كان يردد دائماً ما قاله صاحب « الاشارات الالهية » : « هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ، ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه . وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه » .

لماذا كان يقبل على الحياة فتدبر .. فإذا أدبر عنها أقبلت عليه ؟ هل هو شخصية سلبية لا مبالية ، أم انه يتفاعل ويعيش حياته بقناعة ونشوة .. ولكننا نحن الذين لا نفهم أسلوبه الخاص وطريقته الاستثنائية ، او الموجة التي يعمل عليها راداره في التواصل مع الحياة والناس ؟ هل يكمن الخلل فيه أم فينا ؟

أسئلة قد نجد اجوبتها في الرواية .. وقد لا نجدها .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي . هـ ١/٨٠٧٩٠٠
تلكس : LE / DIRKAY ٤٠٠٦٧

لوحة الغلاف جياكوميتي / ايطاليا
تصميم الغلاف : زهير ابو شايب